رواية

عَتَباتُ الجَبرِ

لِسحر خواتمي وَ هبة اعرابي

سلسلة فيء الغمام

عن الرّواية

هذه الرّواية هي جزء من سلسلة فيء الغمام، وهي مجموعة روايات اجتماعيَّة تقدِّم سبع قصص متوازية ومتداخلة فيما بينها، ورغم ذلك فإنّ كلّ رواية قائمة بحدٍّ ذاتها. تتناول الروايات مجموعةً من شباب وشابَّات لِكُلٍّ منهم قِصَّته وأحلامه، ومحاسنه وعيوبه، ونقاط قوته ومواطن ضعفه، ومشكلاته التي سيواجهها وسيسعى لحلِّها. تدور معظم الأحداث في السلسلة فيما أشرنا إليه بـ "الوطن"، وهو إحدى الدول العربية في الشرق الأوسط دون تحديد أو تقييد.

وفيما يخصُّ التصنيف العمريّ، فنحن نرى أنَّ السلسلة مناسبة لمن عمرهم خمسة عشر عاماً أو يزيد، لكن مع هذا فإنَّ الحبكة الدرامية وما بها من تفاصيل وجوانب نفسيَّة واجتماعيَّة تؤهلها لمن هم فوق العشرين عاماً.

الروايات متاحة بشكل مجانيّ، ويمكن تحميلها عبر موقعنا أو صفحاتنا على مواقع التواصل الإجتماعي.

Website : www.faibooks.com

E-mail : info@faibooks.com

Facebook : @faibooks

Instagram : @faibooks7

Twitter/X : @faibooks7

رواية عتبات الجبر

تأليف: سحر خواتمي وَ هبة اعرابي

رقم الإصدار وتاريخه: الإصدار الأوّل – 10 سبتمبر 2024.

التدقيق اللغوي: نورا خدَّام

تصميم الغلاف: هبة اعرابي

الرسوم التصويريَّة: سحر خواتمي

تنويه: جميع الحقوق محفوظة ولا يجوز دون الحصول على إذن خطي من المؤلفتين استخدام أي مادة من مواد هذا الموقع الشبكي أو استنساخها أو نقلها كليّاً أو جزئيّاً -في أي شكل وبأي وسيلة- سواء بطرق إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها.

سحر وَ هبة

إهداء

إلى القلوب المعلّقة بمحراب الرضا

مقدِّمة

في كثيرٍ من الأحيان، نضع أمامنا تصوُّراتٍ وأحلام، وننتظر أن توصلنا تلك الأحلام إلى درجة الرضا والسعادة التامَّة، وحين لا نصل إليها لسببٍ أو لآخر، نتخبَّط، فنحذف ونضيف، ونُلغي ونثبِّت، آملين أن نعيد التوازن إلى معادلة سلامنا واطمئناننا، فنحن نريدها دوماً معادلةً تجمع آمالنا، وتوقُّعاتنا، وأحلامنا، وطموحاتنا لتُنتج نسبةً كاملةً من السعادة والرضا والسلام، لكن في الواقع ثمَّة مشكلاتٌ لا تُحلّ مهما سعينا، وعقباتٌ لا تمهَّد مهما فعلنا، وظروفٌ لا تتبدَّل مهما حاولنا، وقوانين لا تصل أيدينا إليها مهما تقدَّمنا بالعلم والمعرفة.

الشخصيَّات الأساسيَّة

أُسَيد، أغسطس 1985

زينة، مارس 1989

"سعيتُ دوماً نحو المعرفة والحقيقة، وآمنت بأنّي لكي أتقرّب إلى الله، ليس هناك طريقة أفضل من ذلك من البحث عن المعرفة والحقيقة."

الحسن ابن الهيثم

الفصل الأوَّل

أُسَيد يناير 2014

رنَّ الهاتف أكثر من سبع مرَّات ولم ترد! عاودت الاتِّصال بعد دقائق فقد نفد صبري بالكامل، ثمَّ قلت في نفسي لعلَّها نائمةٌ، وما إن هممت بإنهاء المكالمة حتَّى سمعت إحداهن تجيب:

- السلام عليكم!
- وعليكم السلام، عفواً أطلب رقم والدتي، فمن المتحدِّثة؟
- أنا الممرِّضة المشرفة على رعايتها، الخالة أم حذيفة نائمة، وخشيت أنَّ يكون اتِّصالك ضروريَّاً وهنالك ما يستدعي الرد.
- آه فهمت، أنا ابنها، أردت الاطمئنان عليها، هل هي بصحَّةٍ جيِّدةٍ؟
- تتحسَّن حالتها لكن ببطء، الحمد لله.
- حسناً، سأتَّصل بها لاحقاً، السلام عليكم.

يزعجني عدم وجودي مع والدتي بينما هي في أمسِّ الحاجة إلينا، فحذيفة يسافر كثيراً رغم وجوده في البلد، وأختاي تعيشان في قارتين مختلفتين :أميرة تزوجت وهاجرت مع زوجها إلى أستراليا، وانتقلت

سناء منذ شهرين إلى ماليزيا في بعثةٍ دراسيَّةٍ. لم تكن حالة والدتي بهذا السوء، لكنَّها تحتاج إلينا!

أمّا أنا فيجب أن أسلِّم أطروحة الدكتوراة الأسبوع القادم.

أُسَيد يناير 2014

ابتسم المشرف وهو يتصفَّحها، ثمّ قال:

- من النادر أن يسلِّم طالبٌ أطروحته قبل الموعد النهائي، أحسنتَ أُسَيد!

فسألته:

- متى سيتحدَّد موعد مناقشة الرسالة؟
- تروَّ قليلاً، نحتاج إلى بضعة أسابيع لتشكيل اللجنة.
- حسناً، هذا جيد.

نظر إليَّ ثمَّ سألني:

- وهل حقَّاً سترفض عرض البروفيسور مايكل؟
- لا أعلم، ما أزال أفكِّر في الأمر، يجب أن أناقش خطَّة العمل معه أوَّلاً، وبعدها سأقرِّر إن كنت سأتابع العمل في المجال الأكاديمي هنا، أم في جامعةٍ أخرى.
- فكِّر جيِّداً في الأمر، ولا ترفض العرض مباشرةً.
- حسناً، والآن اسمح لي بالانصراف.

وانطلقت مباشرةً إلى المطار، منذ سنتين لم يتسنَّ لي السفر وزيارة والديّ في الوطن. كان من المقرر أن أنهي مناقشة رسالة الدكتوراة، ومن ثمَّ أسافر لأزورهما في عطلة عيد الفصح في أبريل، لكِن آلم قلبي صوت والدتي وهي في المستشفى، وعزَّ علي أن تكون وحيدةً. حجزت بطاقة الطائرة دون أن أعلمهما بقدومي، لعلِّي أُدخل السعادة إلى قلبها بمفاجأةٍ كهذه. وقبل أن أغلق هاتفي، كتبت منشوراً وحلَّقت الطائرة.

حلِّقي بعيداً.. ارفعي جناحك.. لأخفض جناحي. Osaid

أُسَيد يناير 2014

- لن تستطيع الدخول، الخالة أم حذيفة نائمةٌ الآن، كما أنَّ وقت الزيارة قد انتهى.
- لكنَّني ابنها، ومن الضروري أن أراها حالاً.
- عفواً، هل تهزأ بي؟
- ولم سأهزأ بكِ؟! هل وجود ابن مريضة في المستشفى نكتة أم مزحة؟
- لم أقصد هذا ولا ذاك، لكن هلَّا أخبرتني باسمك؟
- أتحقِّقين معي؟
- لا، بل أسأل فقط.
- اسمي أُسَيد، دعيني أدخل الغرفة يا آنسة.
- أعتذر، لن أسمح لك بالدخول إلا بعد أن تظهر لي بطاقتك الشخصية.
- وماذا ستفعلين إن أخبرتك أنَّها ليست معي!

نظرتُ إليها متحدِّياً، فأجابتني بتحدٍّ أكبر:

- وماذا ستفعل إن قلت لك إنَّ ذاك الأُسَيد لا يعيش في البلد، وهو مسافر، واتَّصل بوالدته اليوم صباحاً من لندن؟

ضحكت ولم أستطع كتم صوت ضحكتي، وقلت بصوتٍ مرتفعٍ كما لو أنِّي أحدِّث نفسي:

- ما هذا؟ هل أنا في مخفر شرطة!
- عفواً يا أستاذ، سأطلب الأمن إن لم تغادر حالاً.
- حسناً حسناً، بحوزتي جواز سفر هل يكفي؟
- أرني إيَّاه!

وأخرجتُ لها جواز السفر، حين أمسكته تلك الممرضة العنيدة راحت تقارن بين وجهي وصورة الجواز، كما لو أنَّها موظَّفة على الحدود أو شرطيَّة، لم أكترث لما تفعله، وانتظرتها لتنهي تحقيقها، فأنا أتمتع ببالٍ طويل في مجابهة هذه النوعيات من البشر خاصَّة، وأحبُّ أن أرى إلى أيِّ مدى سيتمادون بإظهار فطنتهم وذكائهم. كنت أنتظر اللحظة التي ستستسلم وتبتعد فيها عن طريقي، وبالفعل حالما انتهت من مقارنة الصورة بي قالت:

- اعذرني، فالخالة أم حذيفة لم تخبرني أنَّك ستأتي!

- الخالة أم حذيفة ذاتها لا تدري بأنِّي آتٍ، هلَّا أفسحتِ لي المجال الآن؟

نظرت إليَّ باستياءٍ ومن ثمَّ قالت لي:

- مع أنَّ الوقت غير مخصَّصٍ للزيارة، لكنَّها ستفرح بقدومك، حسناً تفضَّل.

جلستُ على الكرسيِّ المقابل لسرير والدتي، ورحت أنتظرها كي تستيقظ، كانت الساعة الثامنة مساءً، وبعد عشرة دقائق شعرت والدتي بوجودي فاستيقظت، في البداية اعتقدتْ بأنَّها تحلم، قبَّلت رأسها ويديها، وأخبرتها بأنِّي وصلت منذ ساعات، كانت فرحتها بلقائي تفوق كنوز الدنيا وعاد رونق وجهها إلى طبيعته، وبعدما تحدَّثنا قليلاً، سألتني:

- هل رأيت والدكَ أم ليس بعد؟
- لا بل أتيت مباشرةً إلى المستشفى.
- كم ستبقى في البلد يا بني؟
- بضعة أيامٍ فقط، يجب أن أعود لأجهِّز لمناقشة رسالة الدكتوراة، لقد سلَّمتها اليوم وأتيت مباشرةً لأراك.
- رضي الله عنك يا بنيَّ، ما فرحت منذ سنوات كفرحتي برؤيتك يا حبيبي.

ضممتها إلى قلبي، وقضيت معها ساعتين، ومن ثمَّ انطلقت إلى المنزل كي أرى والدي، الذي كانت سعادته لا تقل عن سعادة والدتي بي. سهرنا معاً إلى أن حان وقت صلاة القيام في منتصف الليل، ذلك التوقيت الذي يصلي فيه والدي أربع ركعات، طلب منِّي أن أؤمَّه في الصلاة ففعلت، وحين فرغنا من الصلاة ذهبنا إلى النوم. كان كلُّ شيء في غرفتي مختلفاً عمَّا تركته رغم أنَّه هو ذاته لم يتغيَّر! شعرت أنَّ مقبض الباب أصغر، وسقف الغرفة أعلى، الأبواب لونها داكن أكثر من المعتاد، وسريري مقاساته غريبة. تأمَّلت المكان، وقلبي يخفق من المشاعر المتضاربة التي تعتريه. فتحت جهاز الحاسب، ضبطت إعدادات الإنترنت ومن ثمَّ ألقيت نظرةً على بريدي الإلكتروني، وعندما انتهيت، فتحت صفحتي الخاصَّة وكتبت:

يخفق القلب رضىً وحمداً ويطمئنُّ ذِكراً - من ربوع الوطن Osaid

لم يتنظر آدم مجيء الصباح، فردَّ مباشرةً على المنشور:

- بركاتك شيخنا أُسَيد! دعنا نلتقي في ربوع الوطن، اشتقنا إليك!

ضحكت وأنا أغمض عينيّ، لا يتغيَّر آدم، لا يتغير البتَّة.

أُسَيد يناير 2014

- هل ستسافر اليوم بالفعل؟ لقد عدتُ للتوِّ إلى المنزل، أودُّ أن أطبخ لك الأطعمة التي تحبُّها، أودُّ أن أراك أكثر يا ولدي.

سألتني والدتي بينما كانت تساعدني في حزم حقيبتي، فأجبتها:

- لا تقلقي سأعود بعد ثلاثة أشهر، فإجازتي في أبريل كما كنَّا متَّفقين، أمَّا زيارتي الآن فهي زيارة استثنائية كي أطمئنَّ عليك، وبحمد الله قد زيَّنتِ المنزل مجدَّداً، أستطيع أن أسافر وقلبي مطمئن.
- رضي الله عنك يا أُسَيد وأرضاك، ووفقك في امتحانك النهائي، متى موعده؟
- سيُحدَّد خلال أسابيع، سأخبركم بالموعد حالما نتأكَّد منه.
- حتى ذلك الحين، سأكون قد اخترت لك عروساً كما أخبرتك مسبقاً.

ابتسمت وأجبتها:

- حسناً، سأستعد لذلك الأمر أيضاً، أعتقد أنَّه الوقت المناسب.

يهزأ أغلب أصدقائي منِّي حين يسمعون أنَّ والدتي تبحث لي عن عروس، لا أؤمن بمقولة "الحبُّ للشجعان، الجبناء تزوِّجهم أمهاتهم" المنسوبة لنزار قبَّاني. فالشجعان أيضاً تستطيع أمَّهاتُهم أن تختار لهم زوجاتٍ مناسباتٍ. لا أقول إنَّ أمهاتهم سيجبرونهم على إحداهن، ولكن ما الضير إن أُعجبت الأم بإحداهن ورأتها مناسبةً لابنها، وعرضت عليه الخطبة؟ وهل هناك أحدٌ أكثر من الأمِّ يعلم ما يلائم ابنها وما يحبُّ وما يكره؟ مَن غير الأمِّ يعلم كيف نشأ ابنها، والبيئة التي نشأ فيها، لتختار ما يناسب هذه البيئة؟!

وما الفرق بين أن تخبرنا أمَّهاتنا بفتاةٍ مناسبةٍ ونراها، ومِن ثمَّ قد يحصل قبول أو لا يحصل، وبين مواقع المواعدة التي انتشرت في الآونة الأخيرة وضجَّت بها الدنيا؟! تلك المواقع سَتُحَدِّدُ بناءً على خوارزميَّةٍ رياضيَّةٍ الشخصيَّةَ الأنسب إليك، وتعرضها عليك معتمدةً بذلك على معطياتك التي أدخلتها. بالمقارنة تلك، أليس الأهل أذكى من تلك الخوارزميَّة ويعرفون ما يناسب ابنهم أكثر من تلك المواقع؟

لماذا نحدث كلَّ هذه الضجَّة واللجَّة على الخطبة التقليديَّة؟! ننتقدها ونبغضها ونعيبها، بل ونعيب على أهالينا العملَ بها، وكأنَّها شيءٌ خاطئٌ يستحقُّ الثورة عليه. أخرجت الفكرة من رأسي، فكتبت على صفحتي:

في كثيرٍ من الأحيان نحن ننتقد لنتظاهر بالانفتاح والتفكير المتحرِّر، سواءً أكَنَّا على خطأ أم على صواب.

Osaid

ومن ثمَّ وضعت هاتفي على وضعية الطيران.

زينة أبريل 2014

نادتني والدتي بينما كنت أجهِّز نفسي:

- هل أنتِ مستعدَّة، سيصلون بعد قليل.
- نعم، انتهيت، ماذا كان اسم العريس؟
- لا أعلم، لم تذكر والدته اسمه.
- ولِمَ سيأتي من الزيارة الأولى؟ ماذا إن لم أنل إعجاب "حماتي"؟ ما فائدة الإحراج وقدوم العريس من المرَّة الأولى؟
- أخبرتني والدته أنَّه لا يعيش في البلد، وهو الآن في إجازة، لهذا السبب سيأتي معها اليوم.
- يا للروعة! منذ متى وأنتِ ترحِّبين بفكرة استقبال عريس مغترب؟
- لا أعلم، أشعر أنَّه من الأفضل ألا أتَّخذ أي قرار قبل أن نقابل العريس، إن كان نصيبك إلى غربة فلن أمنعه عنك مهما حاولت.

تنهَّدتُ قليلاً ثمَّ دخلتُ إلى المطبخ ورحت أجهِّز فناجين القهوة وأكمل حديثي مع والدتي:

- وماذا يعمل "عريس الهنا"؟
- أعتقد أنَّه مهندس على حسب ما أذكر.
- ومنذ متى والباشمهندسين يتقدَّمون لطلبي؟!
- لماذا تستخفِّين بنفسك هكذا؟
- لا أستخف، لكنِّي سئمت من الخطَّابين، هذا كلُّ ما في الأمر، لم أعد متحمِّسة لشيء، أغلبهم مزعجون، ولا أحبُّهم! ولا أعتقد أنِّي سأُخطب بهذه الطريقة.
- زينة! ما بك؟ لا تسمحي للتجربة السابقة بأن تؤثِّر عليك.
- حسناً...

لم أكمل كلامي إذ رنَّ جرس الباب، وذهبت والدتي لتفتح الباب بينما تأكَّدت من مظهر حجابي ووضعت دلة القهوة على النار.

زينة أبريل 2014

- هل عليَّ إظهار بطاقتي الشخصيَّة يا آنسة؟

قالها وهو واقفٌ بعد أن ألقى السلام عليَّ، إنَّها المرَّة الأولى التي يقف فيها العريس ويلقي السلام، فبعدما دخلت إلى الغرفة ووجدت الخالة أم حذيفة، لم أستطع إخفاء استغرابي.

الخالة أم حذيفة هي أم العريس! والعريس هو ابنها ذلك المسافر المغترب، الذي جادلته طويلاً قبل أن أسمح له بالدخول إلى غرفة والدته! يا للإحراج!

سألت نفسي: كيف حدث ذلك ومتى؟ لم تخبرني الخالة أم حذيفة ولم تلمِّح لي البتة برغبتها في طلبي لابنها؟ لم تسألني أي سؤال يثير الشك ولم أعتقد أنَّها أعجبت بي لدرجة أن تجعلني كنَّتها! أعلم أنَّها كانت تفضِّلني على بقية الممرِّضات، لكن لم تكن هذه هي المرَّة الأولى التي أُطلب بها من قبل النسوة الكبار في المستشفى، فهنَّ يعلمن أنِّي لن أنزعج من طلباتهنَّ وشكواهنَّ مهما أكثرن منها.

لم أعلم كيف أجيبه، وارتبكت كثيراً، فأخذ فنجان القهوة وهو يقول:

- شكراً لك آنسة زينة!

ومن ثمَّ جلس مجدَّداً.

كان الأمر غريباً برمَّته، فبالعادة تبدأ والدة العريس بطرح بعض الأسئلة لتتعرف إلى العروس، لكن هذه المرَّة الخالة أم حذيفة تعرفني جيِّداً، فمنذ أشهر وأنا أزورها في منزلها لإعطائها الحقن اللازمة، ناهيك عن الأسبوع الذي قضته في المستشفى وكنت بجانبها أغلب الوقت. هي تعرفني وتعرف عني كثيراً من الأمور، فلطالما كنت أحدِّثها كي تتسلَّى وتنسى آلامها، لكن لم يخطر ببالي قط أنَّها ستزورني في منزلي دون حتَّى أن تعلمني بالأمر.

- أعلم أنَّك مستغربة يا ابنتي، لكنِّي هكذا أرتِّب الأمور على مهلٍ ولا أستعجل، ولا أتحدَّث عن شيءٍ حتّى يصبح واقعاً، لهذا السبب لم أخبرك بنِيّتي في زيارتكم.
- لا بأس يا خالة، أهلاً وسهلاً بكِ.

ثمَّ وجَّهت كلامها لوالدتي:

- يا أم عبد الرحمن، كما قلت لكِ، منذ رأيتُ زينة أحبَّها قلبي، لفتتني أخلاقها الحسنة، ما شاء الله على هذه الأخلاق ونِعم التربية، ومنذ أشهر وأنا أنتظر لحظة تخرُّج ابني أُسَيد، فقد عزم ألا يرتبط قبل تخرُّجه، وها هو ذا قد أنهى دراسة الدكتوراة.

ردَّت والدتي وقالت وهي تنظر إلى أُسَيد:

- ما شاء الله، ألف مبارك يا ولدي.
- شكراً لك يا خالة، أخبرتني والدتي عن الآنسة زينة وعن أخلاقها وحسن منبتها، لذا خصَّصت هذه الإجازة لزيارة والدي، والتعرُّف إلى الآنسة زينة شخصيّاً.
- أهلاً بك يا ولدي.

وهنا نظر الجميع نحوي كي أشاركهم الحديث، لكنِّي كنت مرتبكة جدًّاً، لم أستطع توجيه أي سؤالٍ إليه، إنَّها المرَّة الأولى التي يكون فيها العريس على هذه الدرجة العالية من العلم والثقافة والدين، فأنا أعلم من الخالة أم حذيفة أنَّ أبناءها جميعهم حفَّاظ للقرآن الكريم ويحملون شهادات وإجازات بعلوم الشريعة من حديث وتجويد وعقيدة وفقه.

لم أجهِّز نفسي لموقفٍ كهذا، حسبته عريساً كباقي الرجال، لكنَّ هذا الأُسَيد مختلف. أربكتني ثقته العالية بنفسه، وطريقة كلامه، وملامحه، وكلَّ ما فيه، وأربكني أنَّ الخالة أم حذيفة تعرفني تماماً وأنا على طبيعتي وتراني الآن هادئةً لا أتحدَّث.

لا أعلم كيف انتهت الزيارة، ولا أعلم حول ماذا كانوا يتحدَّثون، لكن ما أعلمه أنِّي جلست صامتةً لا أنبس ببنت شفة، وما إن ذهبوا حتَّى تبعتني والدتي إلى غرفتي وقالت:

- ما شاء الله، حفظه الله لأهله، لا ينقصه شيء، أسأل الله أن يختار لكِ الخير، هل أعجبكِ الشاب؟

أجبتها وأنا أتصنَّع عدم المبالاة:

- لا تستعجلي الأمور، قد لا يعاودون الاتِّصال بنا!

- لا يا ابنتي، نحن لن ننتظر اتَّصالهم مجدداً، ألم تسمعي ما قاله العريس؟
- لا لم أسمع!
- لا بدَّ أنَّك كنت خارج الغرفة إذن.
- وماذا قال؟
- طلب أن نحدد له موعداً آخر ليزورنا مع والدته مجدَّداً بعد أيام فيتسنَّى لكما التعرُّف إلى بعضكما البعض.
- ولماذا اعتبرتِ أنَّ الأمر مختلف؟
- لو لم تعجبيه، لما طلب هذا الطلب، يا ذكية!
- حسناً كما تشائين.

ونظرت إلي والدتي نظرةً فهمتُ مغزاها، تبدو والدتي سعيدةً هذه المرَّة، آمل ألَّا أخيِّب أملها بفرحتها بي. كرَّرت سؤالها مجدَّداً:

- هل أعجبكِ الشاب؟
- ما فائدة رأيي، دعينا نرى رأي حضرة الدكتور المهندس الإمام العالم، على فكرة يبدو معتدَّاً بنفسه!
- والله يحقُّ له أن يعتدَّ بنفسه، ما شاء الله لا قوَّة إلا بالله، بالإضافة إلى أنَّه وسيم جدَّاً.
- لكنِّي أجمل منه!

- بالطبع وهل هنالك من يضاهي جماله جمال زينة الحلوة؟!
- ناهيك عن أنَّه ممتلئ الجسم، يبدو من النوع الذي لا يهتم بالرياضة.
- لا تتباهي برشاقتكِ، ستفقدينها مع أوَّل طفل.

ضحكت من قولها ذلك، بينما خرجت والدتي من غرفتي لتحضِّر طعام العشاء وتخبر والدي بالأخبار الجديدة، فهي متحمِّسةٌ جدَّاً، أمَّا أنا فانتابني الفضول لأرى حسابه على وسائل التواصل، بحثت عنه فوجدته مباشرة، يبدو أنَّ لديه شعبية كبيرة، فصفحته الشخصية عامَّة ولديه آلاف المتابعين. همست في نفسي: "هي فرصة جيدة لأفهم أفكاره وأحضِّر نفسي للزيارة القادمة". لم أستطع في تلك اللحظة أن أقرأ شيئاً من منشوراته فقد نادتني والدتي لأتناول طعام العشاء، لكنِّي وقبل أن أنهض، رأيت منشوراً كان قد كتبه للتوِّ.

الارتباك، لا ينطوي على شعورٍ واحدٍ، هو مزيجٌ من المشاعر، ترقُّبٌ وحياء.. قلقٌ وغبطةٌ، براءةٌ واحتشامٌ. Osaid

رحت أفكِّر، من يقصد، وماذا يقصد؟

زينة   أبريل 2014

لم يكن الفارق بين زيارتَي أُسَيد إلا أربعة أيام، لم أستطع خلال تلك الأيام القليلة تجهيز نفسي للقائه، لا معنوياً ولا نفسيَّاً. أمضيت ثلاث ليالٍ وأنا أقرأ منشوراته وكتاباته، وردوده. لم أفهم أغلبها، لكنَّني كنت أستمتع بقراءتها، وبمشاهدة صوره، معارض، ومؤتمرات، وورشات عمل، ودراسة واجتهاد. من ناحية أخرى، كان في كلِّ صوره ثابتاً لا يتغيَّر، ابتسامته مرسومةً بدقَّةٍ، ويتمتَّع بنظرةٍ ثاقبةٍ، وأكتاف مشدودة، كما أنّ ملابسه أنيقة دائماً، ويهتمُّ بكلِّ التفاصيل المتعلِّقة به، كما قالت أمِّي، إنَّه وسيم بالفعل، كما أنَّ شعره الأسود مميَّزٌ جدَّاً.

تساءلت وأنا أقلِّب صفحته وأصول وأجول فيها:

لِم هو مثاليٌّ إلى هذه الدرجة؟ هل هناك بالفعل أناسٌ مجتهدون ويحبُّون العلم إلى هذا الحدِّ؟!

وفي يوم زيارته الثانية استقبله والدي في بداية الأمر وألقى السلام عليه ثمَّ انصرف، حاولت ألا أرتبك وأكون أكثر صموداً أمام هالته المثاليَّة تلك، وبعد دقائق انزوت أمهاتنا جانب الغرفة لتفسحا لنا المجال للحديث من غير إحراج، فبدأ أُسَيد كلامه:

- بالمناسبة، هل أستطيع مناداتك بـ "زينة" دون أن أسبق اسمك بـ "آنسة"؟

ابتسمت وأنا بالكاد أبلع ريقي، وأجبته:

- طبعاً!
- حسناً يا زينة، كيف حالك؟ وكيف حال العمل؟
- الحمد لله بخير.

وصمت قليلاً، فاخترتُ سؤالاً عشوائياً من تلك الأسئلة التي كانت تدور في رأسي خلال الأيام السابقة:

- ما اختصاصك الهندسي؟
- درست الهندسة الطبيَّة هنا في الوطن، ومن ثمَّ سافرت بعد التخرُّج مباشرةً إلى لندن لاستكمال دراستي.
- ما شاء الله.
- وأنتِ؟
- أنا درست التمريض، كما ترى فأنا ممرضة.
- جميل، ولم اخترتِ هذا الفرع بالتحديد؟ هل تحبِّين الاعتناء بالآخرين؟

- في الحقيقة، أنا أحبُّ المجال الطبي، لكن لم تسمح درجاتي لي بالالتحاق بأي فرع من فروع المعاهد الطبيَّة، لذا اخترت التمريض، حين كنت صغيرة كنت ألعب دور الطبيبة دائماً، ألبس سماعات الطبيب ومعطفاً أبيض وأضع نظارات والدي، كم كان الأمر مضحكاً.

ابتسم ابتسامةً لطيفةً، ثمَّ قال لي:

- المهم أنَّك أحببت عملك في نهاية المطاف.
- نعم، ولا!
- لم أفهمك ماذا تقصدين؟
- أحبُّ العناية بالمرضى، والحديث معهم، لكن في المقابل، اكتشفت بعد ممارسة التمريض، أنِّي لا أحبِّذ رؤية الدماء والجروح كثيراً، لم أعتد ذلك حتَّى الآن، لكنَّه عملي الذي أجيده في كلِّ الأحوال. أعمل منذ أكثر من أربع سنوات في المستشفى، ورغم أنِّي أحصل على مناوبات مسائية كثيرة بحجَّة أنِّي لست متزوِّجة ولا أطفال لدي، إلا أنِّي أشعر بالامتنان.
- وهل خيار السفر متاحٌ لديك؟

ارتبكت جدَّاً حين بدأ يتطرَّق إلى مناقشة الأمور بشكلٍ جاد، فقال حين رأى ارتباكي:

- لا عليكِ، على أي حال، للسفر جوانبه السلبية والإيجابية، من كلِّ بد.

وصمتنا مجدَّداً، يا إلهي ماذا علي أن أحدِّثه، رغم أنِّي لا أصغره إلا بأربع سنوات، إلا أنِّي أشعر كما لو أنَّ أمامي رجلاً راشداً في الأربعين من عمره، كيف تخرَّج وحصل على شهادة الدكتوراة وعمره ثلاثون فقط! حينها خطر ببالي سؤال كي أكمل حواري معه ولا أبدو سخيفة:

- هل ستكمل عملك في الجامعة؟ وتصبح أستاذاً جامعياً؟
- نعم في غالب الظنّ، فأنا أحبُّ المجال الأكاديمي.
- وفقك الله دائماً.
- شكراً لكِ.

تبادلنا بعدها أطراف الحديث بسلاسةٍ أكثر، لكنِّي بقيت متحفِّظةً بكلامي، فأنا لا أودُّ أن أتحمَّس ومن ثمَّ تذهب حماستي أدراج الرياح، وقبل أن يمضي قال لي:

- حين أخبرتني والدتي عنكِ، شعورٌ ما حدَّثني أنَّك هي الفتاة ذاتها التي جادلتني على باب غرفة والدتي.
- ألم تسألها؟ كانت ستعلمك بالإجابة مباشرة، أنِّي هي الممرِّضة ذاتها.
- لا لم أفعل.

قطبت حاجبي وسألته:

- وما منعك؟
- لم أشأ أن أفسد شعور اكتشاف الأمر وجهاً لوجه.
- يبدو أنَّك لا تحب استعجال الأمور.
- هذا صحيح.
- وهل كانت تلك المفاجأة سارَّة أم عكس ذلك؟

لم يجبني بل اكتفى بابتسامةٍ صغيرةٍ، ومن ثمَّ قال:

- ماذا عنكِ؟
- لا أعلم، لكنِّي ارتبكت، فأنا لم أكن لطيفةً معك أثناء اللقاء الأوَّل في المستشفى، لذا لم أستطع أن أتحدَّث معك بشكلٍ طبيعيٍّ في المرَّة السابقة.

ضحك وقال لي:

- هذا طبيعي، ففي لقائنا الأول كنتُ رجلاً غريباً تحاولين التحرِّي عنه لتضمني سلامة المرضى، ولتحفظي الأمانة التي في عنقك، أمَّا في لقائنا الثاني، فصفتي مختلفة تماماً.

ابتسمت وأنا أومئ له بالإيجاب، فاستأنف كلامه قائلاً:

- لا تفكري بالأمر مجدَّداً على هذا النحو.

ارتاح قلبي بعد سماعي تلك الكلمات، ليس لأنَّه برَّر لي موقفي، بل لأنَّ تفكيره منطقيٌّ، وكلامه واضحٌ ومباشر، وطريقته مريحة. ارتاح قلبي ليس فقط لكلماته، بل لابتسامته، ونظراته، وكل ما يصدر عنه، وعندما غادر مع والدته، دخلت إلى غرفتي وقلبي يخفق من الفرحة، جميلٌ هو أُسَيد، يبدو أنَّه يعجبني فعلاً، لكن ماذا عنه؟

نظرت إلى المرآة لأرى ما تراه عيناه، وتساءلت:

كيف يراني؟ لم يعبِّر إلى الآن عن أيِّ شيء، كل ما قاله قبل أن يغادر أنَّه سيسافر بعد يومين، وسأل والدتي إن كان بإمكانه الحصول على رقم هاتفي الخليوي والحديث معي خلال الفترة المقبلة، فلم تمانع. لم أكمل

أفكاري تلك حتى وصلتني رسالةٌ قصيرةٌ من رقمٍ غريبٍ، علمت أنَّها منه، كتب فيها:

- أنا أُسَيد وهذا رقم هاتفي الحالي، تصبحين على خير زينة.

رغم أنَّ الرسالة عاديَّة جدَّاً، لكن استخدامه لاسمي جعل الرسالة أكثر دفئاً ومودَّة، ثمَّ تذكَّرت منشوراته، فمضيت لأتحرَّى وتساءلت: تُرى ماذا سيكتب اليوم؟!

انتظرت ساعة واثنتين، لكنَّه لم ينشر أي شيء هذه المرَّة. بل نشر أحد أصدقائه صورة معه، يبدو أنَّه خرج مع أصدقائه مباشرةً بعد زيارتنا، فملابسه هي ذاتها التي كان يرتديها قبل ساعات عندنا. قلت في نفسي: هل بدأت ليالي الترقُّب منذ الآن؟ يا لكِ من بلهاء يا زينة!

أُسَيد أبريل 2014

أعجبتني زينة، فتاة رقيقة ولطيفة، عيناها واسعتان تشعَّان بالحياة، وملامحها مريحة وطبيعية وغير مزعجة، فقد أصبحت أغلب الفتيات متشابهات في هذه الأيام، وفقدن ملامحهن الحقيقية. ورغم إعجابي المبدئي بزينة إلا أنِّي لم أستطع أن أقدم على خطوة الخطبة خلال تلك الأيام القليلة، فمن الأفضل أن أتأكَّد من طباعها وتتأكَّد من طباعي، لذا اقترحت الحديث معها عبر وسائل التواصل والسكايب عندما أعود إلى لندن، وقبل سفري بيوم تحدَّثت معها عبر الهاتف الخليوي:

- السلام عليكم.

أجابتني بصوتٍ خافتٍ ومبحوحٍ:

- أهلاً أُسَيد.
- لعلِّي أيقظتك؟ آسف!
- لا إطلاقاً، أستيقظ باكراً في أيام العطل، هل اختلف صوتي عليك؟
- لا، لم يختلف كثيراً. صحيحٌ هذه هي المرَّة الأولى التي نتحادث بها عبر الهاتف.

- أأنتَ متأكِّد؟

رحتُ أفكِّر ثمَّ قلت لها:

- هل أنتِ الفتاة التي حدَّثتني حين اتَّصلت بوالدتي في المستشفى؟!

ضحكتْ بصوتٍ خافتٍ، ففهمت أنَّها هي بالفعل، ثمَّ قلت لها:

- كما تعلمين سأسافر غداً، وسنتواصل كما اتَّفقنا، سأرسل إليكِ رقمي في لندن، وحينها نستطيع التواصل عبر الواتساب إن لم يكن لديكِ أي مانع!
- حسناً، في أمان الله، تمنياتي لك برحلةٍ آمنةٍ إن شاء الله.
- شكراً لكِ زينة.

ابتسمتُ وأنا أحاول استذكار حوارنا الأوَّل على الهاتف حين أجابتني بدلاً عن والدتي.

فتحت صفحتي وكتبت وأنا أشعر بالاطمئنان أكثر، وكتبت:

لا أؤمن بالصُّدف، كل شيءٍ مقدَّر. Osaid

زينة أبريل 2014

ناداني والدي بعد صلاة المغرب كي يتحدَّث معي:

- لقد سألت عن الشاب، فكما ترين هو يمضي بخطواتٍ مدروسةٍ حيال الخطبة، وعلينا فعل الأمر ذاته.

هززت رأسي وأنا أنظر إلى الأرض، فأكمل والدي حديثه:

- لقد مدحه الجميع، ذهبت إلى الحي الذي يقطنون وسألت الناس عنه وعن عائلته، يعرفهم الجميع، ودَرَسَ علوم الشريعة في مسجد الحارة ودرَّس كثيراً من الأطفال واليافعين قبل سفره، في الحقيقة، تحدَّث الجميع عن خلقه ودينه وعلمه، ما شاء الله، لم يترك لي المجال بأن أسأل عنه أكثر، فهو كما يقولون كامل الأوصاف، من خلال سؤالي عنه، علمت أنَّه حين سافر لم يكن وحده بل مع صديقٍ له اسمه يزن، حصلت على رقم الشاب كونه من الحارة ذاتها، واتَّصلت به، إنَّه يعيش في لندن أيضاً، تعلمين يا ابنتي، علينا أن نسأل عن الشاب هناك، إذ تكثر المفاجآت في الغربة.

وصَمَت أبي، فأخذتني مخيلتي إلى مكانٍ آخر، توقَّعت أن يقول لي أبي إنَّ أُسَيد كان متزوجاً أو ما شابه ذلك، ككثيرٍ من القصص التي نسمعها، وقلت في نفسي: ألهذا السبب يخطب ممرضة؟ هل يحسبني ساذجةً أم أنَّ أهلي لن يسألوا عنه؟ ومن حسن الحظِّ أن قطع والدي سلسلة أفكاري الشيطانية في اللحظة المناسبة، فقال لي:

- كان جواب صديقه يزن مريحاً للغاية.
- ماذا قال؟
- قال لي: "والله يا عمِّي لو عندي أختٌ يناسب عمرها عُمر أُسَيد لما تركته يخطب غيرها، والله شهيدٌ على ما أقول، فأنا لم أرَ بخلقه، وكرمه، وشهامته، وعلمه، وذكائه، استخر الله يا عمِّي وأتمنَّى أن يكتب الله لهما الخير".

خفق قلبي وتجمَّع الدم في وجهي، ولم أستطع أن أجيب والدي بشيء، فأنهى والدي حديثه معي قائلاً:

- تحدَّثي معه بما يلزم، وبما يرضي الله، وليكتب الله الخير.
- حاضر يا أبي.

ومضيت إلى غرفتي، والحماسة تحيط كياني.

زينة مايو 2014

ارتديت حجابي ورتَّبت غرفتي وجلست، وقلت في نفسي لعلَّه سيفتح الكاميرا، حينها سأكون جاهزةً وأفتح كاميرتي أيضاً، وحان موعد اتِّصالنا الأوَّل بعد وصوله إلى لندن.

- أهلاً زينة، كيف حالك؟
- أنا بخير، وأنتِ؟

وحين أدركت أنَّ الاتِّصال صوتيٌّ فقط، سألته:

- هل تمانع أن نتحدَّث عبر الكاميرا؟ أفضِّل أن أتحدَّث معك وجهاً لوجه ولو من وراء الكاميرا.
- ليس لدي أي مانع، لم أطلب ذلك خشية أن أحرجك.

وفتح كاميرته، كان يجلس في غرفة الجلوس في شقَّته الصغيرة كما وصفها لي. يرتدي ملابس رياضيَّة مريحة وشعره كما دائماً مرتَّب بشكلٍ أنيق. لم يعلِّق بشيء وحاول كسر الجليد، فالأمر مربك بعض الشيء.

- ما أخبارك زينة؟
- لا جديد، الجو عندنا حارٌّ رغم أنَّنا ما نزال في شهر مايو.

- آه نعم، أخبرتني والدتي البارحة أنَّ درجات الحرارة ارتفعت بشكلٍ ملحوظٍ، هل تخرجين في وقت الظهيرة؟
- نعم بالطبع، حسب المناوبات، في بعض الأيام أبدأ العمل في الساعة السادسة صباحاً، لذا حين أنتهي تكون الساعة الثانية بعد الظهر.
- كوني حذرةً، فالشمس حادَّة جدَّاً.

ابتسمت وشعرت بالسعادة من اهتمامه بهذه التفاصيل، ثمَّ رحنا نتحدَّث عن روتينه اليومي وكيف يقضي وقته وأيام العطل، ومن ثمَّ انتقلنا إلى أيام طفولتنا وأي المدارس درسنا فيها وصولاً إلى الجامعة، وحين وصلنا إلى هذه النقطة بالتحديد رأيت أنَّ هذا هو التوقيت المناسب لأخبره بهذا الأمر، فقلت له:

- أُسَيد، أودُّ أن أخبرك بشيء، لا أعلم إن حدَّثتك عنه الخالة أم حذيفة أم لا.
- وما هو؟
- ممم، لقد كنت مخطوبةً منذ سنتين تقريباً، ولم يتم النصيب.
- بصراحة ليس عندي فكرة عن الموضوع.
- هل ترغب في الاستفسار عن شيءٍ محدَدٍ؟

ابتسم نصف ابتسامة، يبدو أنِّي فاجأته بصراحتي، ثمَّ قال:

- إن وددتِ الحديث عن الموضوع فتفضَّلي، لا بأس.
- حسناً، هو ابن عم أولاد عمَّتي، كنت حينها في الثالثة والعشرين من عمري، متخرِّجة من معهد التمريض وأعمل في المستشفى كما الآن، لم تدم الخطبة لأكثر من خمسة شهور، إذ أعلمت والدي أنِّي لا أرغب بالاستمرار.
- كل شيء قسمة ونصيب.
- نعم بالضبط، وفترة الخطبة مخصَّصة لنكتشف الطرف الآخر، ونقرِّر فيما إن كنَّا سنستمر معه أم لا.
- صدقتِ.

صمت قليلاً ثمّ استأنف كلامه وسألني:

- زينة، أودّ أن أتطرّق لموضوعٍ هامٍّ وجوهريّ.
- تفضّل.
- تعلمين، هناك تداخل بين تعاليم الدين والشريعة، وبين أعراف المجتمع والعادات، ويختلف هذا التداخل من شخصٍ إلى آخر، كما أنَّ الشريعة بحدِّ ذاتها لها طيفٌ واسع، فمن الناس من يعامل المُستَحب على أنَّه واجب، والشبهات على أنَّها حرام، لقد كثر

اللغط هذه الأيام حول تلك الأمور، وحول حرية المرأة وعدم تدخُّل زوجها بها، أودُّ أن أعرف رأيك حول تلك الأمور بالعموم، وعلي أن أكون صريحاً معك، لست من النوع المنفتح، لا أرغب بخداعك، ويجب أن نناقش هذه الجزئيَّة بعنايةٍ.

- أُسَيد، لقد فهمت مقصدك، لكن دعنا نضرب أمثلةً، سيكون الأمر حينها أسهل وأوضح.
- فكرة جيِّدة، لكنِّي لن أحوِّل مكالمتنا اليوم الآن إلى حوار ممنهجٍ، دعيني أضرب الأمثلة حين يأتي سياقها ضمن الحديث، موافقة؟
- نعم بالتأكيد.
- إذن لن أطيل عليكِ أكثر، سأحدِّثك قريباً، سأرسل إليك التوقيت، وتستطيعين أيضاً الحديث معي متى شئتِ، أرسلي إلي حين يراودك أي سؤال أو استفسار، أنتِ دائماً على الرَّحب والسِّعة.
- إن شاء الله.

أغلقت المكالمة وأنا سعيدةٌ، فأُسَيد شخصٌ ذكيٌّ وسلس في النقاش، وغير مزعجٍ ولا يستعجل الأمور، أعجبتني تلك الخصلة فيه، لديه صبر وتأنٍ وحكمة، قلَّما أراها في شباب هذه الأيام.

"أنتِ دائماً على الرَّحب والسِّعة" ما أجمل هذه الجملة! إنَّها المرَّة الأولى التي يحدِّثني فيها بطريقةٍ خاصَّةٍ.

زينة يونيو 2014

بدأت والدتي خلال الأسابيع التي تلت زيارة أُسَيد تحدِّث خالاتي وصديقاتها عنه، أزعجني الأمر، إذ أنَّ أُسَيد لم يتقدَّم لطلب يدي بعد! تناقشت مع والدتي مطولاً حول انزعاجي من نشر هذه القصة لكن من غير جدوى، فأنا حتَّى لم أحكِ لصديقاتي عن الأمر، أمَّا هي فتنشر الإشاعات هنا وهناك.

كُل ما فعلته هو أنِّي سجَّلت في دورة للغة الإنكليزية، فلغتي الإنكليزية ضعيفة جدَّاً، وسواءً أكملت الطريق مع أُسَيد أو لم أكمله معه، فمن الجيد أن أحسِّن مستوى لغتي الأجنبية.

- الآن إن سمع الناس أنِّي سجَّلت في دورة اللغة، سيحسبونني أنتظر الفيزا وسأسافر إلى لندن بعد شهرٍ أو شهرين، لذا رجاءً يا أمِّي، ليس من الضروري أن تعرف كل العائلة بأمر دورة اللغة تلك، أرجوكِ!
- حسناً يا حبيبتي، والآن أخبريني هل سيتحدَّث معك اليوم؟

- أعتقد ذلك، أمِّي أرجوك افهميني، أُسَيد متأنٍّ جدَّاً، وما يزال يدرس الموضوع، أقسم إنَّه لم يلمِّح لأي شيء بعد، أرجوك لا تضخِّمي الأمر.
- لا تقلقي يا عزيزتي، وكما تشائين، أسأل الله أن يسعدك دائماً ويكتب لك التوفيق والخير حيثما كان.
- آمين.

وانطلقت إلى غرفتي كي أحادث أُسَيد، انتظرته عشرين دقيقة ومن ثمَّ اتَّصل.

- آسف يا زينة، لقد تأخَّرت.
- لا عليك، أنا في المنزل.
- أعتذر مجدَّداً، أنشغل كثيراً مع الطلاب، فأنسى التوقيت، لنقل إنَّ هذه إحدى عيوبي.
- يبدو أنَّك تود الحديث عن العيوب في هذه المكالمة.

ضحك ومن ثمَّ قال:

- ليس الأمر مُبرمجاً إلى هذه الدرجة، لكن من الجيِّد إيجاد موضوعٍ عامٍ لكلِّ مكالمة، أتوافقيني الرأي؟
- ممم، لا أعلم.

- أستخدم مجدَّداً أسلوب المحاضرات، اعذريني، لنقل هذا عيبي الثاني، أنا منغمس جدَّاً في طريقة العمل الأكاديمي.

صمتُّ قليلاً، فأنا لا أفهم كلَّ ما يقوله، فمفرداته صعبة أحياناً ومعقَّدة، لِمَ لا يستخدم الكلمات التي نستخدمها؟! عندما رآني صامتةً، قال لي:

- ماذا عنكِ يا زينة؟
- أنا، ليس لدي تلك الأشياء التي ذكرتها للتوِّ، لا أعلم كيف سأصيغ كلامي، فمفرداتك غير مألوفة.
- لست مضطَّرة إلى مجاراة أسلوبي، تحدَّثي بأسلوبك الخاص.
- الخاص! حسناً، أنت شخصٌ مجتهدٌ وتحبُّ إتقان عملك، وتسعى بهدوءٍ نحو هدفك دون تململ، صحيح؟
- نعم.

استجمعت أنفاسي وقلت له:

- أنا عكسك.

ضحك ثمَّ قال لي:

- لكنَّك تتقنين عملك.

- نعم بالطبع، أنا أتحدَّث بشكلٍ عام، أتحدَّث عن أي شيء نفعله، ليس بالضرورة العمل المهني.
- آه، فهمتك.
- على سبيل المثال أنا لا أحبُّ صنع الحلويات المعقَّدة أو الطعام الذي يستغرق وقتاً طويلاً، لا أحبُّ التطريز والحياكة، ولا أحبُّ الهوايات التي تتطلَّب وقتاً وصبراً وتأنٍ، ولا تروق لي.
- وما هواياتك إذن؟
- أحبُّ القراءة، قراءة الروايات والقصص، وأحبُّ الرسم والتلوين المائي، كما أحبُّ مشاهدة الأفلام بالعموم، ماذا عنك؟
- القراءة بالطبع، ومن الرياضة أحبُّ السباحة. هل تقصدين أفلاماً وثائقية؟
- لا، بل أفلاماً سينمائية.
- ممممم.
- هل لديكَ أي تحفُّظ على ما قلت؟ لعلَّه المثال الأوَّل يا أُسَيد؟
- شيءٌ من هذا القبيل.
- إن احتوى الفلم على مشاهد غير لائقة فأنا مثلك، لا أحبُّ مشاهدة هذا النوع من الأفلام، لكن ثمَّة كثير من الأفلام التي تحمل رسائل هادفة وجميلة، وتكون محترمةً وجيِّدةً.

- لنقل مجازاً إنَّ كلامك صحيح، في كلِّ الأحوال برأيي أنَّه من الهدر إضاعة ساعتين من اليوم لأجل فلم.

لم أعرف كيف أجيبه، فحاولت أن أغيِّر الموضوع، وقلت له:

- بالطبع، خلال ساعتين يستطيع الإنسان أن يفعل أشياء مفيدة، بالمناسبة، متى حفظت القرآن؟ وهل تستطيع استذكاره دائماً؟
- عندما كنت طفلاً في السابعة من عمري بدأ أبي -جزاه الله عنِّي كلَّ الخير- بتحفيظي القرآن، كان يشرح لي الآيات شرحاً مبسَّطاً، لم يرغب أبي بأن أحفظ القرآن حفظاً أجوف، بل أراد أن يؤثِّر القرآن في حياتي، وأن يُطبَع في قلبي كما يُطبَع في عقلي أثناء حفظي له.
- ما شاء الله. أتعلم! أنا حفظت "جزء عمَّ" عشرات المرَّات وما أزال أنسى كثيراً من سوره.
- "جزء عمَّ" ليس من الأجزاء السهلة كما يعتقد البعض، بل هو من الأجزاء التي تحتاج دوماً إلى المراجعة والتركيز.
- لدي سؤال، كلامك يشبه كلام الأئمة وعلماء الدين، لماذا لم تدرس الشريعة؟
- صحيحٌ أنَّني أعشق تلك العلوم لكن لم يكن حلمي يوماً أن أدرس الشريعة، وفي الحقيقة سبَّب هذا الأمر صدمةً لوالدَي، إذ

كانت آمالهما تتمحور في أن أصبح إماماً يستطيع إحداث ثورة وتغيير في تفكير الناس، ويحاول إبعادهم عن الفهم السطحي للدين، وعن المعتقدات الجاهلة التي ربطوها باسم الدين، ويقرِّبهم من الله بالعلم والمعرفة، لكن للأسف لم أستطع أن أتخيَّل نفسي إماماً، وباءت محاولات عائلتي لبرمجة عقلي بالفشل، فأبى عقلي أن يُبَرمَج ويُطبَع بصبغةٍ معيَّنةٍ، لكن مع هذا وذاك بقي المسجد هو المكان الأقرب إلى قلبي منذ طفولتي إلى يومنا هذا.

فهمت ما عناه لكن بصعوبةٍ، فسألته:

- هل تعلَّمت كلَّ هذه العلوم في المسجد؟
- نعم، في صغري كنت ذاك الطفل الشقي الذي يجري في ساحته بين استراحات الدروس، ويستأذن من الدرس كلَّما سنحت له الفرصة، ليجدِّد وضوءه مرَّات عديدة، ويتسنَّى له رشَّ الماء على رفاقه ثمَّ يعود إلى درسه بحبٍّ واندفاعٍ وطواعيةٍ. تعلَّقت بمسجد حارتنا حتَّى بتُّ أشعر أنَّه جزء من بيتنا. أحبُّ زواياه الهادئة ورائحته الخاصَّة وأحنُّ إليه كثيراً.
- أذكر أنَّ والدتك أخبرتني بأنَّ أختيك كانتا تذهبان أيضاً إلى المسجد وتتلقيان الدروس الدينية هناك.

- نعم، كنَّا نتنافس أنا وأختي أميرة، التي تكبرني بخمسة أعوام.
- ما شاء الله.

صمتنا قليلاً ثمَّ قال لي:

- على فكرة، أنتِ أنيسةٌ جدَّاً.
- ماذا تعني؟ لم أفهمك.

ولسوء الحظِّ انقطع خط الإنترنت في تلك اللحظة، فلم أفهم ماذا يقصد بوصفه ذاك، فهو لا يتحدَّث بعبثيَّةٍ، لكلِّ كلمةٍ مدلول ولكلِّ مدلولٍ سبب، لكن في الوقت ذاته كنت سعيدة بأنَّ المكالمة انتهت، فقد نفدت طاقتي ولم أعد أستطيع مجاراته بالحديث.

بقيت أفكِّر بالوصف الذي وصفني إيَّاه، إلى أن استطعت مجدَّداً الاتصال عبر الإنترنت بعد ساعات. ظننت أنه أجاب عن سؤالي برسالة خاصَّةٍ، لكنِّي وجدت منشوراً عامَّاً على صفحته، يبدو أنَّه نشره حين انقطع الخطُّ، كتب فيه:

الأنيس هو من إن تكلَّم، نظرت إليه بإعجاب، وسمعته بإصغاء، وتفكَّرت بكلماته بطمأنينة وأجبته بشغفٍ. Osaid

فاجأتني كلماته، على أي حال هو لا يعلم بأنِّي أقرأ منشوراته. تساءلت: ترى هل يقصدني أنا في هذا المنشور؟ لكن عن أي كلامٍ يقصد؟ أنا لم أتحدَّث كثيراً اليوم، أساساً هو لم يفسح لي المجال لذلك! متى سمعني ومتى تفكَّر؟!

زينة يونيو 2014

عدت من العمل في الظهيرة ارتحت بضع ساعاتٍ وجلست بعد العصر في غرفة الجلوس مع والدتي. يصبح الطقس حارًّاً بشكلٍ مزعجٍ في شهر يونيو، لا أحب فصل الصيف، أشعر بالاختناق أثناء العمل وفي الشارع وفي البيت. رفعت شعري بالكامل كي أزيحه عن رقبتي، وأمسكت بصحن المشمش اللذيذ، ثمَّ قلت لوالدتي:

- سأقصُّ شعري قريباً، لا أطيقه هذه الأيام.

وكما هو متوقَّعٌ أجابتني:

- ليس الآن! أنت على أبواب خطبة، لا تفرطي به، الشعر الطويل يليق بالعروس أكثر.

لم أشأ أن أردَّ على مزاعمها حول "عروسيتي"، ورحت أفكِّر بصمتٍ. فما لا تعلمه والدتي هو أنَّ حماستي حول موضوع أُسَيد قد هبطت هبوطاً شديداً، وبدأت أشعر بالملل من فكرة عدم وجود تقاطعٍ بيننا، هو يتحدَّث عن المجال الأكاديمي، والعلوم الشرعية، والثقافة العامَّة، والعلماء، والدراسة، والبحث العلمي، والأوراق والمجلات المحكمة

والمؤتمرات، وكل تلك المصطلحات التي لم أكن أتوقَّع أن يحدِّثني بها أحد.

ليتني أفهم، لماذا يريد التعرُّف إلى فتاةٍ بعيدةٍ عن مجال عمله وعلمه وشغفه؟

ثمَّ إنَّه إلى الآن لم يطلبني بالأساس! يتَّصل بي، يتحدَّث ويتحدَّث، فتكون أغلب ردودي "ما شاء الله" و"تبارك الله"، ثمَّ ننهي المكالمة بعد أن يعطيني مثالاً عن الأشياء التي لا ترضيه ولا تعجبه، وفي المرَّة الأخيرة وضَّح لي بصراحة أنَّ المكياج غير مسموحٍ به البتة، وإن كان ولا بد، فبالطبع على زوجته أن تغطِّي وجهها في تلك الحالة.

لماذا لا يخطب حافظة قرآن، أو عالمة شريعة، من صديقات أختيه؟

ثمّ إنَّه لا يهتم بي، لا يسأل ولا يرسل أي سلام إلا حين يخصِّص الوقت للحديث معي، فيرسل إلي الوقت المقترح كما لو أنَّه يدعوني إلى اجتماع عمل.

لماذا يخطب فتاةً لا يعرفها ولا تعرفه، ولا يكنُّ لها أي مشاعر؟!

انتهيت من التهام آخر حبَّة مشمش في الطبق، وفي تلك اللحظة وصلتني رسالة منه يسألني فيها:

- هل لديك وقت غداً الساعة الخامسة؟ دعينا نتحدَّث إن أمكن.

ضحكت، فها أنا ذا مستاءة من طريقته وها هو ذا لا يغيِّرها، فأجبته دون تردُّدٍ:

- أهلاً أُسَيد، لدي مواعيد كثيرة، للأسف لن نستطيع إجراء المكالمة.
- حسناً، لا بأس، نتحدَّث لاحقاً.

وتوقَّف عن الكتابة، لكنِّي لسببٍ أو آخر أردت إكمال الحديث لأستفزَّ نفسي أكثر، فسألته:

- ماذا تفعل؟
- عدت منذ قليل إلى المنزل، وأفكِّر بإعداد الطعام، أشعر بالجوع.
- هل تجيد الطبخ؟
- ليس بالقدر المطلوب، لكن أستطيع إعداد الأطعمة البسيطة.
- ماذا ستفعل في عطلة نهاية الأسبوع؟ هل الجو لديكم حار؟
- ليس لدي أي مخطَّطات حالياً، ويختلف الجو بين فترات الظهيرة والمساء، لكنَّه مقبول نسبياً، ماذا عنك؟
- لدي رغبة في الذهاب إلى البحر مع صديقاتي، أنا لا أحب الجو الحار، وفي الساحل تكون درجات الحرارة مقبولة، لكنَّ والدتي لم تسمح لي للأسف.
- وما السبب؟
- تخشى عليَّ، وتقلق كثيراً، أنت تعلم الأمهات.
- لكنَّها محقَّة!
- هل هو مثالٌ جديدٌ؟

توقَّف قليلاً ثمَّ أجاب بوجهٍ باسمٍ، رغم أنه لا يستخدم الوجوه التعبيرية التي تكون عادةً في التطبيقات، وحين يستخدمها أعلم أنَّه لا يود الاستطراد في الحديث أو الإجابة عن السؤال، لكنَّني لم أكن في المزاج الذي سأجعله يفلت منِّي بسهولةٍ، فتابعت وكتبت:

- أُسَيد، هلَّا أسديت لي معروفاً؟
- تفضَّلي!
- هل من الممكن أن تكتب لي بقية الأمثلة، أو ما يخطر ببالك دفعةً واحدةً.
- لا يخطر ببالي شيءٌ الآن.
- لا بأس، حين تذكر أي مثال، اكتبه مباشرة.

لم يرد، وبعد عشر دقائق أرسل لي قائمةً بأمثلته بالفعل!

الاختلاط الزائد في العمل، والأغاني، والمسلسلات، والصور الشخصيَّة في مواقع التواصل، مع كثيرٍ من التفاصيل المتعلِّقة باللباس الشرعي. لم أقرأ قائمته بتمعُّنٍ، إذ أحسست أنَّ هذا الأمر أثقل من استطاعتي. نظرت إلى الساعة، كانت السادسة مساءً وهو موعد دورة اللغة الإنكليزية، أرسلت رسالةً إلى زميلتي في الدورة:

- مرحباً أريج، لن آتي اليوم، لست على ما يرام.

رميت هاتفي بعيداً عنِّي ورحت أتأمَّل سقف الغرفة.

لا أرغب بتحسين لغتي الانكليزية بعد الآن!

وبعد ساعة رنَّ هاتفي مشيراً لوصول رسالة، قلت في نفسي لعلّها منه أرسلها ليبلغني أن نتوقَّف عند هذا الحد في عملية التعارف، فلا طائل منها!

زينة يونيو 2014

مرَّ يومان ولم أفتح الرسالة، لا أعلم لِمَ آلمني قلبي أن يتخلَّى أُسَيد عنِّي، فحتَّى لو كنَّا سننهي الأمر، يزعجني أن يطلب هو ذلك، وفي اليوم الثالث بعد إرساله إيَّاها، اتَّصل بي.

- أهلاً أُسَيد.
- زينة! أين أنتِ؟
- أنا هنا في المنزل.
- أقصد أين كنت طيلة الأيام السابقة؟ أرسلت إليك رسالة لكنَّك لم تقرئيها بعد، هل هنالك خطبٌ ما في التطبيق؟ أو لعلَّها شبكة الإنترنت كانت مقطوعة؟

لم أعطه جواباً واضحاً عن أسئلته، لكنِّي تنبَّهت أنَّها المرَّة الأولى التي يسأل فيها عنِّي ويتَّصل دون أخذ مواعيد.

- سأبحث عن الرسالة وأقرأها، والآن أعذرني علي أن أغادر، في أمان الله.
- حسناً مع السلامة.

لم يكن لدي أي مزاج للحديث معه، فحوارنا بات مناظرة دينية أو درس شريعة، بِمَ سأناقشه؟! وماذا سأحكي له؟!

هل سأخبره عن آخر فلم شاهدته كي يحقِّق معي فيما إن كان الفلم محترماً أم لا! أم سأخبره عن زميلاتي في العمل كي يطلب منِّي الكفَّ عن الغيبة! أم أطلعه على مخطَّطاتي في نهاية الأسبوع كي يستنكر ذهابي وحدي مع صديقاتي إلى الحديقة!

تنهَّدت وبحثت عن الرسالة.

"زينة، منذ قرابة الشهرين ونحن نتحدَّث معاً، نتواصل حين يُتاح لنا ذلك، رأيتك وسمعتك وتعرَّفك إليك عن قربٍ رغم بعد المسافات بيننا، كنت متأكِّداً منذ اللحظة الأولى أنِّي سأصل إلى النتيجة التي توصَّلت إليها اليوم، لكن كان لا بدَّ من التروي والتأكُّد من كلِّ الخطوات. لم أتوقَّف عن صلاة الاستخارة طيلة الفترة السابقة، ومع كلِّ يومٍ يزداد شعور الارتياح نحوك، أمَّا الإعجاب فقد بلغ حدَّاً قد يسمِّيه البعض حبَّاً، أمَّا أنا فسأكتفي بتسميته إعجاباً في الوقت الراهن إلى أن أسمع رأيكِ بي، وأعلم إن كنتِ تقبلين بي زوجاً؟".

وما إن علِم أنِّي قرأتها، حتى أرسل مباشرة رسالة كتب فيها:

- هل أطلب من والدَي زيارتكم في منزلكم؟ أم أنَّك تحتاجين إلى بعض الوقت للتفكير؟

أجبته:

- تروَّ قليلاً، ودعني أفكِّر بالأمر.
- حسناً، لكِ ما شئتِ.

زينة يونيو 2014

رغم أنَّ كلماته أفرحتني، وفاجأني بدفعة مشاعرٍ لم أكن أتوقَّعها منه، لكن ما أزال أشعر بالارتباك ولا أعلم ما سأقرِّر! أخبرت والدتي بما استجدَّ معي، وطلبت منها أن تتَّصل بخالتي لنناقش الأمر معها، فخالتي صباح تمتلك شخصيَّةً قويةً، اختلطت بالناس منذ صغرها، فهي تعمل في وزارة التعليم ولديها خبرة كبيرة وآراء سديدة، وهي من أقرب الناس إلينا، ونثق بها كثيراً.

وحين وصلت خالتي، جلسنا معاً، وسألتني:

- وماذا تنوين الآن؟
- سأصلي صلاة الاستخارة وأفكّر مليَّاً، لا أعلم يا خالتي.

وجَّهت سؤالاً لوالدتي عن رأيها، فأجابت والدتي:

- تعرفين رأيي منذ البداية، ولا سيَّما بعد أن سأل أبو عبد الرحمن عن الشاب وتأكَّدنا من حسن منبته ونسبه وأخلاقه، لكن ما يهمُّ هو رأي زينة، هي من تحدَّثت معه طيلة الشهرين السابقين، وفي الواقع، كنت أراها تتأرجح بين حالتين، لكنِّي لم أشأ أن أتدخَّل.

تفاجأت من وصف والدتي ذاك، فسألتها باستغراب:

- بين حالتين؟ ما هما؟
- كنتِ في بعض الأحيان تبدين عصفورةً طائرةً، سعيدةً ومتفائلةً، يتوَّرد وجهك فيصبح كالبدر بعد حديثك معه، تبتسمين وتكونين في مزاجٍ جيِّدٍ، تمزحين وتكملين يومك وأنت منفرجة الأسارير، لكن في المقابل هناك أيام تكونين فيها بعد حديثك معه هادئةً وشاحبةً، تشردين وتفكِّرين، وإن تحدَّث معك أحد تقتضبين الكلام وتعودين إلى مزاجك المعكَّر، لقد أدركت حينها أنَّ قرارك لن يكون سريعاً بعد أن يطلبك بشكلٍ رسميٍّ.

صمتُّ ونظرت إلى أمي وأنا متفاجأة بما تقوله، فلم أتوقَّع أنَّ مشاعري واضحة بهذا الشكل أمامها، فقالت لي كما لو أنَّها تقرأ أفكاري:

- أنا والدتك يا فتاة، أعلم بماذا تفكِّرين وكيف تشعرين من رفَّة جفونك.

ضمَّتني إليها وقالت لي:

- سيكون لك أطفال في المستقبل إن شاء الله وستفهمين ما أقوله لك الآن.

وهنا، عادت خالتي إلى الحديث مجدَّداً، فسألتني:

- الآن قولي لنا، كيف تشعرين نحو أُسَيد؟ هل يعجبك الشاب؟ وهل هنالك ما يزعجك به؟
- بصراحة، الشاب لا ينقصه شيء بالفعل، لقد كان في بادئ الأمر بارد المشاعر بطريقةٍ مزعجةٍ، فأنا فتاة مرشحة لأكون خطيبته، كنت أتوقَّع أن يكون كلامه مختلفاً، أن أستيقظ صباحاً فأجد رسالةً منه يقول لي بها: "صباح الخير"، أن يسأل عنِّي خلال اليوم، أن يتمنَّى لي أحلاماً سعيدة في المساء، لكنَّه لم يفعل أيَّاً من تلك الأمور، حتَّى وردة إلكترونية لم يرسل إلي! قلت في نفسي لعلَّه لا يريد أن يتجاوز الحدود معي، ولا سيَّما أنَّه ملتزم ويخشى أن ينتهك حدود الله، لذا تجاوزت هذا الأمر واعتدته، فهو في نهاية الأمر لطيفٌ وأنا ما أزال غريبةً عنه.

ربتت خالتي على كتفي وقالت:

- كلامك صحيح يا ابنتي، لكن في المقابل، عليكِ ألا ترفعي سقف توقُّعاتك كثيراً.
- ماذا تقصدين؟

- قد يكون هذا هو طبعه، سواءً أكنتِ غريبةً عنه أم كنتِ زوجته، هناك رجال لا يجيدون التعبير عن مشاعرهم، وهناك من لا يحبُّون الإفصاح عنها، ومنهم من لا يدركونها بالأساس، وما دام أنَّك لم تري الجانب العاطفي منه، فكلُّ الاحتمالات واردة.
- وماذا أفعل؟
- لا شيء، سأسألك سؤالاً، هل تهمُّك الأقوال أم الأفعال؟
- كلاهما!
- وإن كان الجميع يخبرك أنَّه ابن حلال، هل ستضمنين أفعاله معك؟
- نعم، فهو يخاف الله ولن يظلمني.
- وإن كانت مسيرته في الحياة توحي بجدِّيته المفرطة، هل ستضمنين بأنَّه مرنٌ وعاطفيٌ؟
- لا!
- وهل جدِّيته في الحياة ستشفع له عند تقصيره في هذه الجزئيَّة؟
- أعتقد ذلك!

ابتسمت خالتي، ثمَّ استأنفت كلامها:

- يا زينة، عليك أن تعلمي أنَّ لكلِّ ميزةٍ إيجابيةٍ مجموعة من السلبيات التي تأتي معها، ونحن حين نختار، نحاول البحث

عن السلبيات التي يمكن التغاضي عنها، صحيح أنَّ الجميع ينعته بالشاب الذي لا ينقصه أي شيء، لكنَّه وصفٌ عامٌ وغير دقيق، فبالطبع ستنقصه أشياء كثيرة، لا كمال إلا لله!

- ونعم بالله.
- وهنا مربط الفرس، فكِّري بسلبياته، وحاولي أن تتتبَّعي منشأها، ومن ثمَّ قرِّري هل هذه السلبية ضمن نطاق الاحتمال أم أنَّها جوهريَّة بالنسبة إليك.
- ماذا عن مثاليَّته المفرطة؟
- أي جانب تقصدين بالضبط؟
- العلم، والاطلاع، والدين، وكل هذه الأمور.
- وما السلبية التي ستنتج عن العلم؟
- سلبيات كثيرة! فهو معتدٌ بنفسه وأخشى أن ينظر إليَّ نظرةً دونيَّةً.
- هل فعل ذلك؟ أو أشعرك بهذا الأمر؟
- لا إطلاقاً.
- وهل هو بالشخص الذي سيختار زوجته كي يتفاخر عليها برأيك؟
- لا بالتأكيد.

هنا تدخَّلت والدتي، فقالت لي بحزم:

- أخبريني يا زينة، لِمَ تستخفِّين بنفسك؟
- لا أستخفُّ بنفسي، أقسم إنِّي لا أستخف بنفسي، لكنَّه مثقَّف على نطاقٍ واسعٍ. أمِّي، هو يعرف في كلِّ الأمور، ويدهشني من كمية المصطلحات التي يحفظها، والظواهر التي يفهمها، والكتب التي يقرأها... إنَّه موسوعة متحرِّكة صدِّقيني!

ضحكت والدتي بشدَّة، ثمَّ قالت خالتي وهي تحاول كتم ضحكتها:

- ما شاء الله! لكن دعيني أسألك سؤالاً آخر: ألم تقولي أنَّه ملتزم ويخاف الله؟
- نعم.
- وبرأيك، هل سيسمح للكِبَر أن يحيل تعبه وجهاده إلى هباءٍ منثورٍ؟ هل شابٌّ كأُسَيد بحاجةٍ إلى من يذكِّره بأنَّ الكِبَر من أكبر الخطايا؟

نظرت إليها نظرةً مغزاها "ربما"، فأكملت وهي تضحك:

- يا لك من مشاكسة يا زينة، على كلِّ حال جميعنا بحاجةٍ دائمة إلى التذكرة، لكن ما أقصده أنَّك حتَّى ولو شعرت باعتزازه بنفسه، فأنا واثقةٌ بأنَّه لن يتمادى.
- هل تدافعين عنه قبل أن تقابليه؟
- لا، لكنِّي أعلِّمك كيف تحلِّلين الأمور وتفكِّرين بطريقةٍ منطقيةٍ، اعتبريه درساً عمليَّاً، لا تغرَّك سنواتك الست والعشرين، فأنتِ لم تختبري الحياة بعد، ولا تعتقدي أنَّك اكتسبت الخبرة الكافية من تجربة خطبتك السابقة.
- أخبرني أُسَيد بخطوط حمراء لا يسمح لزوجته بتجاوزها، أخشى ألا نتوافق ونختلف على هذه المسائل. أشكُّ مثلاً أن يضع اسمي على بطاقة دعوة زفافنا! هل يرضيكما أن توزَّع بطاقات زفافي مكتوب عليها: "كريمته" بدلاً من اسمي؟

فقالت لي والدتي:

- وهل لهذا السبب لن تقبلي به؟
- لا يا أمِّي، أنا أضرب مثالاً فقط.

ردَّت خالتي وهي تحاول الدفاع عن أختها:

- نعلم ذلك، ونحن بالطبع لا نسخر منك، بل نسألك هل هذه الأمور جوهرية بالقدر الذي يجعلك لا تقبلي به؟
- لا أعلم!

فقالت والدتي موجِّهةً الكلام لخالتي:

- هي بالأساس لا تضع المكياج!

أجبتهما بحدَّة:

- صحيح، هو شيءٌ أمتنع عنه من قرارة نفسي، لكنِّي قد أستخدم الكحل واستعمل كريمات الأساس بالذات إن كنت مرهقةً وشاحبةً، ولا أحبُّ أن يأتي شخصٌ ويمنعني منعاً باتَّاً، هنا يصبح الأمر مزعجاً.

ردَّت خالتي قائلةً:

- لكن إن نظرنا إلى الأمر من زاويةٍ أخرى فسنجد أنَّ أُسَيد سيعينك على نفسك، ويرتقي بك.
- لكنَّه سيرتقي بي حسب رؤيته الخاصَّة.
- لا يا ابنتي، كلامك غير صحيح، فمرجعية أُسَيد هي الدين وأحكام الشريعة، أي أنَّك ستكونين في مأمنٍ، إذ أنَّ الدين هو

ما يحكم العلاقة وليس العرف أو العادات المجتمعية، والتي هي نسبيةٌ في غالب الأمر.

- نعم، معك حق.

صمتُّ قليلاً، فوجدتني والدتي وقد استُهلكت طاقتي بالكامل، ضمَّتني إلى صدرها وهي تقول لي:

- أدعو الله أن يلهمك الخير ويكتب لك السعادة في كلّ خطوةٍ تخطينها يا حبيبتي.

اطمأنَّ قلبي وشعرت براحةٍ لا توصف بعد بَوحي لهما بكلِّ ما يدور في خلدي.

أُسَيد يوليو 2014

انتهيت من العمل وكنت في طريق العودة إلى المنزل، فشعرت برغبةٍ في مقابلة يزن، منذ أشهر لم نجتمع رغم أنَّنا نقطن في لندن، فيزن لديه كثيراً من المشكلات في الآونة الأخيرة بسبب انفصاله عن عمِّه وإنهاء الشراكة بينهما، لم يكن الأمر هيِّناً، فقد احتاج إلى أن يدفع مبلغاً كبيراً من المال كي يستعيد ملكية المشروع.

اتَّصلت به، فتواعدنا في المقهى، وكعادته لم يتأخَّر ووصل في الموعد. هكذا هو يزن، صديقٌ صدوقٌ، قد لا نلتقي كثيراً، لكن حين أحتاج إلى رؤيته أجده مباشرة.

- ما أخبارك؟
- لا جديد، تسير الأمور على نحوٍ أفضل، استطعت الإبقاء على أغلب الموظَّفين، وبعضهم طلب الاستقالة من تلقاء نفسه.
- ستكون الأمور على ما يرام مجدَّداً، أنت مثابر وطموح.
- شكراً لك، أخبرني هل من جديدٍ يا عريس؟
- أنتظر جوابها منذ أسابيع، ما تزال تفكِّر!

- دعها تفكِّر مليَّاً، فقرار الزواج ليس قراراً سهلاً. بالمناسبة أُسَيد، أودُّ أن أطلب منك شيئاً.
- تفضَّل يزن!
- أرجو أن تعلمني مباشرة في حال موافقة الفتاة، كي أعيد إلبك المال الذي اقترضته منك.
- ما هذا الكلام؟ لا أحتاج إليه الآن.
- الزواج مكلف، هدايا ومهر وحفلة زفاف وبيت جديد، وسيارة، ستحتاج إلى كلَّ جنيه ادَّخرته، صدقّني!
- ليس إلى هذا الحد، معي الآن ما يكفيني ويزيد، ولا تتحدَّث عن هذا الموضوع مجدَّداً، حين سأحتاج إلى المال سأخبرك بذلك، ألم يكن هكذا اتفاقنا منذ البداية؟
- لا تكابر، ستضطَّر إلى السفر مرات عديدة، وتكاليف السفر وحدها باهظة جدَّاً.
- على فكرة أنا لن أسافر.
- ماذا تقول؟
- على الأقل الآن، فأنا لا أستطيع السفر حالياً، أنتظر جواباً من دائرة الأجانب حول موضوع التجنيس، وليس لدي رفاهية السفر الآن خارج المملكة المتَّحدة.

- آه فهمت، وهل علمت الفتاة بالأمر؟
- ليس بعد، لم أشأ أن أفتح جبهةً بلا سبب، ماذا لو لم توافق على الارتباط بي بالأساس؟
- وهل يُرفض أُسَيد؟ أشكُّ في الأمر، ستوافق عليك عاجلاً أم آجلا.

ابتسمت وأكملت قهوتي ومضينا، وحين عدت إلى المنزل كتبت على صفحتي مشيراً إلى يزن:

لا أجمل من صديقٍ وفيٍّ تفضي له بما في قلبك في الغربة الموحشة! Osaid

زينة يوليو 2014

كنّا نجلس في غرفة الجلوس أنا ومنى نحتسي القهوة، وبينما كنت ألاعب ابنتها الصغيرة، قالت لي وهي تتصفحَّ الصور:

- يبدو وسيماً، ولديه وجه مريح.

ضحكت وقلت لها:

- أعلم، يبدو كنجوم السينما لولا وزنه الزائد.
- يا لكِ من فتاة شقيَّة! ليس بديناً.
- لم أقل بدينٌ.
- وهل اتَّخذتِ قرارك النهائي؟
- ليس بعد، أودُّ أن أستأنس برأيك.
- وما الذي يجعلك متردِّدة؟
- ومن أخبرك أنَّني متردِّدة؟
- يا عزيزتي، حينما تكون الفتاة معجبةً بشاب فهي لا تحتاج إلى من يؤنسها في قرارها، ولا تنتظر رأي الآخرين.
- أذكر أنَّك طلبت رأيي بسليم قبل خطبتكما، رغم أنّكِ تحبِّينه جدّاً، ولم تتردَّدي إطلاقاً.

- هذا صحيح، لكن كان الأمر مختلفاً، فأنا أحببت أن أسمع رأيك به، وكان قراري نهائياً من اللحظة الأولى. على كلِّ حال، أخبريني ما رأي أختك ووالدتك؟
- لا أرى أختي زهراء كثيراً هذه الأيام، فهي منشغلة مع أطفالها ولا يتسنَّى لنا الحديث مطولاً، أمَّا والدتي فهي مرتاحة لأُسَيد، تحدَّثنا مع خالتي حول المخاوف التي أخبرتكِ بها، وطمأنتني وأقنعتني بكلامها.
- وما الذي لم ترتاحي له بعد؟
- لا شيء محدَّد، هو شعورٌ غريب يمنعني ويؤخِّرني عن قول "موافقة"، لقد كان الأمر هيِّناً حين خُطبت في المرَّة الأولى، لعلِّي كنت أصغر سنَّاً ولم أفكِّر مليَّاً، كنت سعيدةً بأن أصبح عروساً، أمَّا الآن فقد اختلف الأمر.
- تتكملين كما لو أنَّك في الأربعين من عمرك، على فكرة، ما تزالين صغيرة!
- أعلم، لكن تلك السنوات الأربعة، شكَّلت فارقاً في تعاملي مع الموضوع، وها أنا ذا ألاحظه، فأُسَيد شاب رائع، ولم أكن لأتردَّد لثانية لو أنَّه خطبني قبل أربع سنوات، فظروفه كلها جيدة، وهو شاب لا يمكن رفضه، ولا أعتقد أنِّي سأرفضه، لكنِّي لست

مستعدَّة للموافقة بعد، ليس من السهل أن تقرِّر الفتاة مصيرها، أشعر أنَّ هذه المسؤولية أكبر منِّي، إذ أنَّ قراري سيحدِّد أين ومع من سأكون بقيَّة حياتي، لا تنسي موضوع السفر، هو أيضاً ليس بالأمر الهين، على أي حال، لا أعلم كيف تجرؤ الفتيات على اتِّخاذ قرار الزواج، أشعر أنِّي أفتقر إلى الشجاعة والإقدام!

- أتعلمين أنَّ هذه هي الجزئية الأولى التي يتفوَّق بها الزواج عن حبٍّ على الطريقة التقليدية؟
- ماذا تقصدين؟
- حين توافق الفتاة على الشاب الذي يحبُّها وتحبُّه فهي توافق من غير أن تفكِّر بالعواقب، فحتَّى لو كانت تعلم عيوبه وتراها إلا أنَّها لا تمانع بها، بل تنتظر اليوم الذي ستجتمع به مع هذا الشخص الذي أحبَّته، لكن في المقابل، يبدو الأمر أكثر صعوبةً مع الطريقة التقليدية، لكن عليك أن تدركي أمراً مهمَّاً.
- ما هو؟
- لا علاقة لطريقة الزواج بالحبِّ بعد الزواج، ولا بالمودة أو الألفة، فبعد الزواج يعاد تشكيل وتعريف تلك الأمور مجدَّداً، سواءً لمن تزوَّج عن حبٍّ أو عن طريق خطبة الأهل، لكن كما

أخبرتك فوائد الزواج عن حبٍّ، أولها تسهيل الموافقة واتّخاذ القرار.

- ماذا عن ثانيها؟
- رصيدٌ جيِّد من أيام السعادة!

ضحكتْ ثمَّ استأنفتْ كلامها قائلةً:

- تمرُّ أيامٌ على الزوجين يكثر فيها الشجار والخلاف، أنا مثلاً، حين يقسو عليَّ سليم، أتذكَّر أنّه لم يكن كذلك من قبل، بل كان حنوناً ومحبَّاً ولطيفاً، ولطالما أشعرني بذلك في سنوات الحبِّ الأولى، فأقول في نفسي: لعلَّها ضغوط الحياة جعلته متوتِّراً وسريع الغضب، فأهدأ ويطمئنُّ قلبي، ومع هذا وذاك، لا وقت محدَّداً لهذا الرصيد، وهناك من يملؤه بموقفٍ أو اثنين.
- صدقتِ.
- هل ملأ أُسَيد شيئاً من رصيده؟
- لا أعتقد ذلك.
- هل قال لك كلماتٍ لطيفة؟ غزل؟ حب؟ هل عبَّر عن اشتياقه إليك مثلاً؟
- لا، لم يقل أياً من تلك الكلمات، لكن يبدو أنَّه معجبٌ بي بالفعل.

- سيحبُّك أكثر وأكثر مع الأيام، فأنت فتاةٌ أنيسةٌ ولطيفةٌ.
- "أنيسة" تذكَّرت، لقد نعتني بهذا الوصف ذات مرَّة.
- وتقولين إنَّه لا يغازلك!
- وهل تُعتبر هذه الكلمة غزلاً؟

ضحكتْ منى هذه المرَّة بصوتٍ أعلى، ثمَّ قالت لي:

- تحتاجين إلى دروسٍ كثيرةٍ.
- حسناً يا آنسة منى هاتي ما عندك!
- ليس الآن، اتَّخذي قرارك ولنا لقاءٌ آخر حين تحسمين أمرك.
- لو أنَّه طلب يدي منذ أول أيام التعارف لوافقت على الارتباط به مباشرة، لكن خلال الأشهر الماضية اكتشفت أنَّه جافٌّ بعض الشيء، الأمر الذي يزيد تردُّدي.
- أتمنَّى أن يكتب الله لك كلَّ الخير دائماً وأبداً.

انتهينا من حديثنا وبعدما غادرت منى، تفكَّرت في كلامها مجدَّداً، يبدو أنَّها اكتسبت خبرةً لا بأس بها، فهي متزوِّجة منذ ثلاثة أعوام، وكلامها منطقي، تعجبني طريقة تفكيرها منذ أن كنَّا في المدرسة.

أمسكت هاتفي أبحث عن أي جديد، فمنذ يومين لم يحدِّثني أُسَيد ولم يرسل إلي أي رسالة، لعلَّه مستاءٌ من تأخُّر ردِّي. فتحت صفحته، فلم

أجد ما أبحث عنه، لا أعلم لماذا أنتظر قراءة منشورٍ أو كلامٍ يمتُّ لي بصلة حتى ولو بطريقةٍ غير مباشرة. عليَّ أن أكفَّ عن ملاحقة اهتمامه بي عبر منشوراته، فكما قالت خالتي، قد يكون أُسَيد من النوع الذي لا يظهر مشاعره أمام نفسه، فكيف سيظهرها على صفحته الشخصية لعامَّة الناس؟ يا لغبائي!

زينة يوليو 2014

- كيف لم تخبرني بذلك أُسَيد؟
- ماذا تقصدين؟

تنهَّدت وحاولت كتم غيظي، فلا يُعقل أن أصرخ وأغضب في مكالمتنا الأولى بعد قراءة الفاتحة، فسألني:

- ما الأمر زينة؟

تحدَّثتُ ببطءٍ وبنبرةٍ لطيفة قدر الإمكان، وأجبته:

- كيف ستتم خطوبتنا وكلّ منَّا في قارَّة؟ ألن تأتيَ بالفعل؟
- كما قالت لكِ والدتي، لن أستطيع، فالأمر ليس بيدي.
- لِمَ لَمْ تخبرني أنتَ بذلك؟
- لا تنسي بأنَّك أيضاً لم تخبريني "بموافقتك"، كنت أنتظر منك اتصالاً، أو رسالةً، أو حتَّى جملةً قصيرة، تعلمينني بها برأيك بي، لكنَّك لم تفعلي!
- وما الفارق؟
- الفارق كبير جدَّاً، أحببت أن أسمعها منكِ مباشرة.

اضطَّربت دقَّات قلبي، فقلت له:

- لقد كان الأمر محرجاً، أن أرسل إليك وأخبرك بموافقتي، فطلبت من والدتي تولِّي الأمر.
- أعلم ذلك.
- لِمَ تحاسبني إذن؟
- لا أحاسبك، أودُّ سماع رأيك بي، لم تخبريني برأيك ولا مرَّة، والآن قد بدأنا بالخطوة الأولى لارتباطنا، فهلَّا أجبتني عن سؤالي؟!

لم أكن مستعدَّةً لسؤالٍ كهذا، لا أعلم كيف استطاع تحويل مسار النقاش لصالحه بهذه البراعة، وجعل قلبي يخفق، فأنساني غضبي وامتصَّه بإجحاف، فأنا أودُّ مناقشته حول عدم حضوره حفلة الخطبة، لكن تحوَّل سياق الحديث ولم أعد أستطيع العودة إلى الجدال بينما ينتظر سماع كلامٍ لطيف منِّي. فكّرت قليلاً، وحين أطلت صمتي، قال:

- هل سؤالي صعبٌ إلى هذه الدرجة؟ لا عليك، نستطيع تأجيله إلى يومٍ آخر.

صمتَ بضع ثوانٍ ثمّ أكمل كلامه بنبرةٍ هادئةٍ ولطيفةٍ:

- مباركٌ لنا يا زينة، أسأل الله أن يكتب لنا السعادة ويسدِّد لنا خطواتنا، سعيدٌ أنا بكِ جدَّاً.

زينة أغسطس 2014

إنَّه شهر أغسطس، ازداد الحرُّ بشكلٍ لا يطاق، وأصبح دوامي ليلياً، إذ أنَّ الممرضات اللواتي لديهن عائلات تفضلن الدوام الصباحي، أمَّا أنا فأستلم معظم المناوبات الليلية، وبذلك أرتاح من الخروج في وقت الظهيرة. أذهب إلى المستشفى الساعة التاسعة ليلاً وأعود إلى المنزل في السادسة صباحاً. ناقشني أُسَيد حول خطورة الخروج في تلك الأوقات وحدي، فأخبرته أنَّ والدي يصطحبني في الليل، لم يجادلني أكثر لكنِّي بتُّ أفهم تحفُّظه حول تلك الأمور.

مضى شهرٌ على خطبتنا، أرسلت إليه خاتمه مع هدية الخطبة إلى لندن، وأقمنا حفلاً بسيطاً للنساء فقط، ومضى الأمر. خاب أملي بعض الشيء لا من أجل الحفلة، بل لأنِّي لم أره، فأنا أعلم أنَّه في كلِّ الأحوال لن يكون في حفلة النساء، وهذا ما تقصَّد توضيحه لي، كي أدرك الشكل التي ستكون عليه حفلة الزفاف لاحقاً.

رغم أنَّنا لا نعرف بعضنا البعض، لكنِّي أفهمه ويفهمني، هو شخصٌ ذكيٌّ يعرف كيف يمرِّر المعلومة بطريقةٍ آمنةٍ، ويدرك أنِّي لا أقلُّ ذكاءً عنه، إذ أنِّي أستقبل رسائله الخفيَّة بسهولةٍ ويسرٍ، لكن إلى الآن لا أعلم

كيف أعبِّر له عن مشاعري رغم تكراره لأسئلةٍ مثل: ما رأيك بي؟ ما شعورك نحوي؟ وما إلى ذلك... وفي كلِّ مرَّةٍ وحين أهمُّ بصياغة الإجابة، أجد نفسي أمام ورطة، فأُسَيد شخصٌ ملتزم وقد لا يفضِّل سماع الأشواق وعبارات التودُّد، فأقف عاجزةً عن الكلام حياءً وحرجاً ومخافة أن أتجاوز الحدَّ، حتى بتُّ أفكِّر في كلِّ شيء قبل الحديث معه، فحين اقترب يوم ميلاده والذي يصادف منتصف شهر آب، أحببت مفاجأته بهديةٍ، وإرسال كعكةٍ مزينةٍ إلى مكتبه ليحتفل مع زملائه في العمل، فيحتفل مع زملائه في العمل، إلا أنِّي تروَّيت وفضَّلت أن أتحدَّث إليه قبل أن أقدم على تلك الخطوة، وبالفعل وأثناء إحدى مكالماتنا، سألته من غير لفٍّ أو دوران:

- هل تحتفل بعيد ميلادك؟
- لا بالطبع!
- بالطبع! لم أنت جازمٌ إلى هذا الحد؟
- وهل أنا طفل؟
- وهل أعياد الميلاد للأطفال فقط؟
- لم أقصد ذلك، حين يأتي يوم ميلادي أتلقَّى المعايدات والأمنيات من أصدقائي وعائلتي وأسعد بها بالفعل، وحين كنت صغيراً كانت والدتي تصنع لي كعكة، وحين كبرت أختاي

باتتا تقيمان بعض الاحتفالات بسببٍ وبلا سببٍ، وكانت أعياد الميلاد بعضاً من تلك الاحتفالات المليئة بالحلوى والمعجنات، والزينة، وبمشاركة لخالاتي وعمَّاتي وبناتهن فيحتفلن جميعاً، بغضِّ النظر عن صاحب عيد الميلاد، وفيما إن كان موجوداً في حفلته أم لا!

- وهل كنت تحصل على هدايا من أختيك؟
- نعم، هدايا مثل: قلم، ساعة، كتاب، شيءٌ من هذا القبيل.
- جميل!
- لولا وجود الأخوات، لأصبحت البيوت كئيبةً وموحشةً، بل مرعبة!

ضحك ثمَّ أكمل:

- أحمد الله أنَّه رزق أمِّي بأختيّ، وأدعو الله أن يرزقنا بالبنات مع البنين.
- آمين، والآن لديَّ سؤال: أودُّ أن أحتفل بيوم ميلادك، هل تعطيني الضوء الأخضر كما كنت تفعل مع أختيك؟
- لا بأس، لست ضد الاحتفال بأعياد الميلاد، لكنِّي أكره المبالغة فيه، هذا كلُّ ما في الأمر، قد يحتفل المرء عاماً مع عائلته حين تكون الظروف ملائمة، وقد يكتفي بمحاسبة نفسه في عامٍ آخر.

- ماذا تقصد بمحاسبة نفسه؟
- أحبُّ في يوم ميلادي أن أحاسب نفسي، فأفكِّر بما قد كُتب لي وما كُتب عليَّ في سجل أعمالي.
- وماذا سيُكتب عليك؟
- وهل تعتقدين أنِّي ملاكٌ لا أذنب؟ زينة، حينما ترين منِّي خيراً وعملاً صالحاً فاعلمي أنَّ شيئاً آخر يستدعي جهادي لنفسي، فقد جُبل كلٌّ منَّا على طباع مختلفة، وما يصعب على نفسي قد يراه الآخر هيِّناً، وما يسهل عليها قد يجده غيري عسيراً وصعباً.

أكلمنا حديثنا لبضع دقائق، ثمَّ ودَّعته، وأغلقنا المكالمة، بعدها فتحت صفحته فوجدته قد نشر زبدة كلامه عبر منشور:

لا يغرَّنَّك سلوك أحدهم أو كثرة عباداته، وسهولتها على قلبه، فأنت أفضل منه في أمرٍ آخر قد يراه هو صعباً، فلكلِّ إنسانٍ قاعه الخاص، ولكلٍّ مَنّا ذنوبه التي هو أدرى بها.
Osaid

قرأت منشوره وأنا سعيدة، فأنا أعايشها معه، وأفهم ماذا ينشر ومتى ولماذا، لكن إلى الآن لم أضفه إلى قائمة أصدقائي، فأنا أنتظر أن يلاحظ هو اسمي فيرسل طلب الصداقة، لكنَّه للأسف لم يلحظ كلَّ تلك

الإعجابات التي أضعها على منشوراته منذ ارتباطنا، لذا قرَّرت أن أردَّ عليه بتعليقٍ مختصرٍ هذه المرَّة، فكتبت: "صدقت".

وانتظرت ساعتين وحين لم يلحظني، أرسلت إليه عبر تطبيق الواتساب:

- أُسَيد ألا تقرأ التعليقات على منشوراتك؟

لم يجبني، وبعد أربع دقائق، وصلني طلب صداقة منه، فسألته مجدَّداً:

- ألم ترَ اسمي فعلاً؟ ألستُ مرئيةً إلى هذا الحد؟

فكتب دون أن يفتح جبهة العتاب والجدال:

- لا أراكِ افتراضيّاً، أراكِ واقعاً جميلاً.

أرسلت إليه صورة قلبٍ نابضٍ بالحبِّ، بكلِّ الحبِّ.

زينة أغسطس 2014

في اتِّصالنا الأخير طالت مكالمتي مع أُسَيد قرابة الساعتين، كانت الأحاديث متنوِّعةً وشائقةً، حكى لي عن كتبه ومكتبته، وكيف أنَّه نقل معظمها إلى لندن، خلال الحديث اكتشفت أنَّه قرأ كثيراً من الروايات العربية والعالمية، وأنَّه يطَّلع بين الحين والآخر على المستجدَّات في عالم الأدب الروائي والقصصي، أسعدني الأمر جدًّا، ورحت أناقشه في رواياتٍ قرأها كلٌّ منَّا. أثار الحديث شوقي إلى القراءة، فقلت له إنِّي سأزور المكتبة وأشتري كتباً جديدةً، حينها اقترح عليَّ أن أمرَّ أوَّلاً على مكتبته في البيت، فأختار منها ما أشاء، وأنَّ الأمر سيسعده كثيراً. لم تمر يومها ساعة حتَّى اتَّصلت حماتي، لتخبرني أنَّها في البيت غداً وأنِّي أستطيع المرور متى شئت لأزورها وألقي نظرةً على مكتبة أُسَيد.

وبالفعل، انطلقت في اليوم التالي وكلِّي حماسة للأمر، لم تستطع والدتي مرافقتي بسبب موعدٍ عند طبيبة الأسنان.

عندما وقفت أمام باب منزل أهل أُسَيد، تذكَّرت الأيام التي كنت آتي فيها بصفتي ممرِّضةً لإعطاء حماتي الحقن اللازمة، أحياناً أنسى بأنَّه المنزل ذاته، والجدران ذاتها، سبحان الله!

استقبلتني حماتي بحفاوةٍ، وبعد أن قدَّمت لي القهوة وتحدَّثنا قليلاً، دلَّتني على غرفة أُسَيد، هناك حيث مكتبته العزيزة، كنت محرجةً من دخول الغرفة، فضحكت وطلبت منِّي أن أتصرَّف بأريحيةٍ كما لو كنت في منزلي. دخلت إلى الغرفة ورحت أتأمَّل تفاصيلها. غرفة هادئة خالية من التفاصيل تقريباً، فيها سريران، لا بدَّ أنَّ أحدهما لأُسَيد والآخر لحذيفة، تغطِّي المكتبة التي حدَّثني عنها أحد جدرانها، فيها رفوفٌ كثيرة تتَّسع لكل تلك الكتب، بالإضافة إلى خزائن لها أبواب زجاجية، تتوضَّع فيها شهاداتهما وإنجازاتهما. وقفت أمام هذا الصرح الكبير، ورحت أتأمَّله لأفهم أبعاده، ومن ثمَّ بدأت بالبحث عن كتبٍ تعجبني أو تلفت انتباهي، وبعد بحثٍ طويلٍ، وجدت القسم الذي يضع فيه الروايات، شعرت أنِّي سأحصل على النصيب الأوفر من هذا القسم.

اخترت ثلاث رواياتٍ وقلت في نفسي: عليّ أن أختار كتباً من فئاتٍ أخرى، فعدت مجدَّداً إلى قسم الكتب الفكرية، واخترت كتابين لطالما أردت قراءتهما، واكتفيت بهذا القدر، ومن ثمَّ جلست مع حماتي قليلاً وعدت إلى المنزل.

لم أتَّصل ذلك اليوم بأُسَيد، أردت أن أبدأ بالقراءة حالاً، كنت متحمِّسةً للغاية، فبدأت برواية "اسم الوردة" لـ "أومبيرتو إكو"، فقد لفتت انتباهي وتبدو عاطفيَّةً ورومانسيةً.

أُسَيد أغسطس 2014

- هذا يكفي أُسَيد، لا تضحك أرجوك.
- أنا آسف، اعذريني.
- هل تسخر منِّي؟
- إطلاقاً، إنَّك ظريفة جدَّاً.
- وما الظريف في الأمر؟ الاسم مضلِّل حقَّاً.

توقَّفت عن الضحك ومن ثمّ أجبتها بجدّيّة:

- نعم هذا صحيح، تعمَّد الكاتب أن يختار لروايته اسماً حيادياً، والرواية -كما رأيتِ- تجمع أدب الجريمة مع ما يحمله من إثارة وغموض، إضافة إلى الخيال التاريخي والمستمد من الواقع. أين وصلتِ في قراءتها؟
- لن أكملها أُسَيد، لا أحبُّ هذا النوع من الروايات، أصابني الملل، وشعرت بالصداع، هناك تفاصيل كثيرة.
- ألم يعجبك أي شيء بها؟ وصف الدير، تصميم المكتبة، طريقة سرد الأيام والشخصيات؟
- لا، ولعلَّ ما أعجبني في الرواية كلها هو التعليق الذي كتبتَه في نهايتها.

- هل كتبتُ تعليقاً على هذه الرواية بالفعل؟
- نعم، لاحظت بأنَّك تفعل ذلك في كلِّ كتبك، تكتب تاريخ اقتنائك له، بالإضافة إلى ملاحظاتك وتعليقك عليه.
- نعم بالطبع، كي أحدِّد الأفكار الأساسية للكتاب، وما يمكن أن يبنى عليها.
- على أي حال، لن أكمل قراءتها، وسأبدأ في التالية
- وما هي؟
- "قواعد العشق الأربعون"، هل تعتقد بأنَّها ستعجبني؟
- أظن ذلك، فأنت تبحثين عن جانبٍ معيَّنٍ، وستجدينه فيها، لكن تحلِّي بالصبر، ولا تظنِّي بأنَّ الرواية تتحدَّث عن العشق بمعناه الضيِّق فقط، ناهيك عن وجود بعض التحفُّظات العقائدية حولها، كوني حذرةً.
- ما الذي تقصده؟
- اقرأيها أوَّلاً وستفهمين ما أقصد، كوني صبورةً!
- حاضر، آمل ألا تكون كالسابقة.

ضحكت وأنا أجيبها:

- لا تقلقي.

أتممنا المحادثة ومن ثمَّ ودَّعتها ورحت أكمل عملي وأنا مبتهج، فلقد انتابتني مشاعر جميلة وقويَّة نحو زينة في تلك اللحظة، فأنا أحبُّ صراحتها وصدقها وثقتها، وأقدِّر ذلك بشدَّة. جميلة هي لا تتظاهر بما لا تشعر به، ولا تواري حقيقة أحاسيسها.

زينة سبتمبر 2014

لقد كان الأمر أشبه بالورطة، قرأت "الجريمة" ولم أكن قادرة على استكمال قراءة "العقاب"، ومجدَّداً راح أُسَيد يضحك حين سمع رأيي حول تلك الروايات، لا بدّ وأنَّه استوعب الفارق الكبير بيننا في هذه الجزئية، في المقابل لم يشعرني بأنَّه متفاجئ أو ممتعض، لا بالعكس، أخبرني أنَّ هناك وسائل أخرى لتحصيل المعرفة والثقافة، لكن في كلِّ الأحوال تبقى القراءة هي المرتكز الأساسي للعلم والمعرفة.

مرَّ بعدها أسبوعان، رميت الروايات جانباً وتصفَّحت بقية الكتب الفكرية، بعدما حاولت استجماع كل نقطة شغف ورغبة في القراءة لدي، فوجدت كتاب "جدد حياتك" سهلاً وهيناً وسلسلاً، ومليئاً بتعليقات أُسَيد المفيدة والممتعة، على عكس الكتاب الآخر: "نزهة المشتاقين وروضة المحبِّين"، كان صعباً يحتاج إلى كثيرٍ من التركيز والانتباه، وانطوى على بضع تعليقاتٍ لأُسَيد، مع إشاراتٍ كثيرةٍ، صح، خطأ، وعلامات استفهامٍ وتعجُّب، وحروف، وألغاز...

أُسَيد سبتمبر 2014

توفيت اليوم المهندسة الشابَّة سارة زوجة الدكتور قيصر، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، أسأل الله أن يجعله من الصابرين. رحمكِ الله يا آنسة سارة، كنتِ نعم المعلِّمة ونعم الأخت.

لم أتمالك نفسي، ولم أستطع كتم دموعي، الآنسة سارة بمكانة أختي الكبيرة، كانت نِعم العون لي أيام الكلية، تشجِّعني وتدعمني، كيف لي أن أنسى الأيام الطوال التي قضيتها في مكتب الدكتور قيصر؟ كانت تساعدني في كلِّ ما يواجهني من مصاعب، فتاة متفوقة وذكية ومثابرة، صبورة ومتقنة لعملها، أحبَّها الجميع للطفها وعطائها. أمَّا قيصر، فكان الله في عونه على هذا الابتلاء، لا أعلم كم مضى على زواجهما، ربَّما أربعة أعوام أو أقل، واليوم قد توفيت بعد صراعٍ طويلٍ مع المرض.

كنت جالساً أدعو الله أن يغفر لها ويرحمها، فنويت أن أقرأ لها ختمة قرآن، وبدأت بها في الحال، وبعد دقائق، رنّ هاتفي فتجاهلته كي لا أقطع تلاوتي، رنَّ ثانياً وثالثاً، فتوقَّفت عن القراءة، وأجبتها:

- أهلاً زينة؟
- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، أهيَ قريبتك؟

- لا بل إحدى المهندسات في الكلية، كانت المشرفة على مشروع التخرج.
- آه فهمت، رحمها الله.
- آمين.

صمتُّ قليلاً، فقالت لي:

- تبدو متأثِّراً بشدَّة.
- طبعاً، قيصر وسارة من أعزِّ الناس على قلبي.
- قيصر هو أستاذك، أليس كذلك؟
- نعم، حدَّثتك عنه مسبقاً.
- أسأل الله له الصبر والسلوان.
- آمين.
- أُسَيد، هل أذهب إلى العزاء؟
- لِمَ لا، سأرسل إليكِ العنوان، وسأسأل والدتي أن ترافقك أيضاً.
- حسناً.
- رضي الله عنكِ يا زينة، شكراً لك!
- علام تشكرني؟ هذا واجبي.

امتلأ قلبي بالسكينة في تلك اللحظة، أطلت حديثي معها، فراحت تخفِّف عنِّي شعور الحزن الذي تملَّكني، وخلال كلامنا، حكيت لها عن الدكتور قيصر وفضله علي، وكيف علَّمني ودفعني للأمام.

- أتعلمين زينة؟ الدكتور قيصر هو أوَّل من شجَّعني على كتابة ورقةٍ بحثيةٍ خلال السنة الرابعة من دراستي.
- ما شاء الله، أين درس؟
- درس في فرنسا، ثمَّ عاد ليعلِّم في الوطن رغم العروض التي كانت تنهال عليه من جامعاتٍ عريقة حول العالم، وفي سنتنا الخامسة قُبلت ورقة البحث التي عملنا عليها معاً أنا والدكتور قيصر، فأصرَّ على مرافقتي له لحضور المؤتمر الذي ستعرض فيه تلك الورقة في سويسرا، ولم يقبل رفضي إطلاقاً، وبالفعل سافرت إلى سويسرا وأنا لا أزال طالباً.

وهناك توقَّفت مجدَّداً عن الكلام، وبدأت دموعي بالانهمار، لكنِّي حاولت كتمها، فقالت لي زينة:

- أسأل الله أن يغفر لها، ويرحمها، ويجعل مثواها جنان النعيم.
- آمين...

زينة نوفمبر 2014

"من أين لها بهذا العريس؟"

"كيف خطبها وهي مجرَّد ممرضة؟"

"كيف ستتفاهم مع شخصٍ على هذا المستوى الرفيع من العلم؟"

"حظُّها يفلق الصخر!"

"من يصدِّق أن تتزوَّج زينة زيجةً كهذه!"

لا أذكر يوماً أنِّي قلَّلت من شأن أحدٍ، أو قارنت زوجاً بزوجته، أو قيَّمت إنساناً وفضَّلته عن شريكه، فما بالهنَّ يتهامسن بتلك الكلمات ضدي؟ ماذا فعلت لهنَّ؟

منذ ارتبطت بأُسَيد وأنا أسمع تعليقاتٍ بشكلٍ غير مباشر من أقرب الناس إليَّ.

ماذا فعلتُ لابنة عمتي لتستكثر عليَّ أُسَيد؟

بماذا أخطأتُ بحقِّ خالات والدتي كي يتحدَّثن عنِّي كما لو أنّي خدعت والدة أُسَيد وجعلتها تطلبني لابنها؟

ماذا رأت جاراتنا منِّي كي يتهامزن حول وسامة أُسَيد ودينه والفارق الكبير الذي بيننا! عن أي فارقٍ يتحدَّثن؟ أنا لا أقل جمالاً عنه، أمَّا عن الدين، فلكلٍّ منَّا مزاياه، ولن ندخل الجنة بالحسنات ذاتها!

كنت أردِّد دائماً تلك العبارات في رأسي كي لا أفقد ثقتي، لكنَّهنَّ انتصرن عليَّ في نهاية المطاف وبدأت أكرِّر أسئلتهنَّ ذاتها: بالفعل، كيف خطبني أُسَيد وهو يحمل شهادة الدكتوراة في الهندسة؟! وغيرها من الأسئلة التي نغصَّت عليَّ سعادتي بأُسَيد وبارتباطي به.

لم أكن بأفضل حالاتي حين زفَّ أُسَيد إلي خبره "المميَّز" بأنّه لن يحضر عقد القران، وسيتمُّ الأمر عن طريق توكيل والده. أجبته بغضبٍ شديدٍ:

- أُسَيد هل تمزح؟ لا أصدِّق أنَّك لن تكون معي في عقد القران!
- لا أمزح، لا أزال غير قادرٍ على السفر في الوقت الراهن.
- فلننتظر ونعقد القران حالما تستلم أوراقك ويتسنَّى لك السفر مجدَّداً.
- الانتظار ليس من صالحنا يا زينة، هناك خطوات كثيرة متوقِّفة على عقد القران وستأخذ وقتاً طويلاً، من ترجمة عقد القران، وتصديقه وإرسال الأوراق إليَّ ومن ثمَّ البدء بإجراءات لمِّ الشمل كي نحدِّد موعد الزفاف.

- أُسَيد ألا تشعر بأنَّ علاقتنا المتمثِّلة "بمحادثات الهاتف" باتت غير شيِّقة إطلاقاً؟ لو كتب قاصٌّ أو راوٍ قصتنا، لملَّ القرَّاء من خلوِّها من الأحداث، لا شيء سوى محادثات ورسائل وإعجابات وتعليقات على منشورات عبر وسائل التواصل الاجتماعي. أريد أن أراكَ أُسَيد، هل تفهمني؟ أراك وجهاً لوجه، أمشي معك، أجلس بقربك، أحدّثك وأنت أمامي، أحتسي فنجان قهوة معك، لماذا تحرمنا من تلك اللحظات في أحلى مراحل علاقتنا؟
- أحزنني كلامك يا زينة، أحزنني جدّاً، هل تصفين علاقتنا بالمملَّة؟ هل مللتِ منِّي؟
- أُسَيد لا تقوِّلني كلاماً لم أتفوَّه به!
- على أي حال أشعر أنَّك غاضبة من شيءٍ آخر، أخبريني ما بكِ؟
- لست غاضبة إلا منك.
- حسناً كما تشائين.

وصمتُّ، فأنَّبني ضميري، وشعرت أنِّي قسوت عليه، فقلت له:

- هل أزعجتك؟

- أتفهَّم شعورك، لكن ليس بيدي حيلة، أنا أيضاً مشتاقٌ لرؤيتك، لذا فأنا أستعجل عقد القران، ولا أودُّ انتظار أوراقي. لا أعلم لِمِ فهمت اقتراحي كما لو أنِّي لا أكترث؟!

تنهَّدت ثمَّ قلت له:

- حسناً دعني أفكِّر.

الفصل الثاني

زينة   يونيو 2015

كنت ألحق بوالدتي محاولةً امتصاص غضبها، لا أدري كيف تحوَّلتُ إلى محامي دفاعٍ عن أُسَيد ووالدته خلال الأشهر الماضية. كل ما أعلمه أنَّ والدتي هي من كانت متحمِّسة لفكرة ارتباطي بأُسَيد، أمَّا الآن فباتت تتصيَّد عيوبه وأخطاء أهله. أدرك أنَّ حماتي ليست بالمرأة البسيطة، فهي ترمي بالكلمات حين تتاح لها الفرصة، لكنَّني بالفعل لا أستاء منها كما تفعل والدتي.

- ماذا تقصد هل ابنتي من جلبت الشؤم لولدها؟

قالت ذلك بينما كانت تمسك بهاتفها وترتجف من الغضب، فأجبتها:

- أنا متأكِّدة أنَّها لم تقصد أيَّاً من ذلك يا أمي، صدِّقيني.
- اصمتي، هذا الكلام مقصود ومحسوب، لا تكوني ساذجةً!
- لست كذلك، لكن ما فائدة هذا النقاش وأُسَيد سيصل غداً، والزفاف قائمٌ بعد أسبوع؟

نظرت إليَّ نظرةً حادَّةً، ومن ثمَّ قالت:

- كما تشائين، أنت حرَّة.

- لا أفهم ماذا تعنين بكلامك؟ هل أنفصل عن أُسَيد فقط لأنَّ والدته قالت "لا أعلم ماذا حصل مع ولدي"؟، برأيي أن من حق أي أمٍّ أن تقول ذلك حين تحاوط المشكلات ولدها في العمل.
- هي تقصد أنَّ قدومك شؤم عليه يا نبيهة!

أمسكت رأسي الذي كاد أن ينفجر وتوجَّهت نحو غرفتي وأنا أقول لها:

- حسناً، ألتقي به غدَّاً في المطار ونتوجَّه مباشرةً إلى المحكمة لنجري معاملة الطلاق.

تمدَّدت على سريري، وغرست رأسي في وسادتي ورحت أبكي. لِمَ يتنزعون الفرحة منِّي بهذه الطريقة؟

أعلم أنَّ عيوب أُسَيد أصبحت واضحة لي ولأهلي أكثر من ذي قبل، فهو لا يتعامل بالإحسان طيلة الوقت، ولكن هذا ليس خطأه، بل أهلي هم من رفعوا سقف توقعاتهم بشكلٍ مبالغٍ به حين علموا بدينه وعلمه والتزامه، اعتبروه مثالياً لا يخطئ، وأنا منذ اللحظة الأولى وضَّحت لوالدتي أنَّ صورة أُسَيد في مخيلتها لا تطابق الواقع كثيراً.

أُسَيد كأيِّ شخصٍ، يخطئ بأفعاله، يخطئ بأقواله، لا يصيب دوماً، وقد يكرِّر أخطاءه مرَّات عديدة ولا يتعلَّم منها مباشرة، ناهيك عن ترتيب

أولوِّياته المختلفة كليّاً عمّا اعتدناه في عائلتي، وأنا كفتاةٍ عاديَّة، لم يكن منِّي إلا أن أحاول التوافق معه، فهو أعلم منِّي بالفعل، وأكثر حكمة، لذا حين أرى اختلافاً في الرأي بيني وبينه، أحكِّم عقلي، وعندما أجد أنَّ أُسَيد على صواب، أنحاز إلى رأيه، لكنَّ والدتي لا تعجبها سياستي تلك، وباتت تعتبرني منسحبةً تماماً لطرفه، دون أن تدرك كم أجاهد نفسي، وأمتعض بعض الأحيان من تصرُّفاته، لكن ماذا عليَّ أن أفعل، أين أجد شخصاً كاملاً ومثالياً؟ لا وجود لذاك الشخص الكامل، وأُسَيد هو الأقرب إليه، هذا ما التمسته خلال السنة الماضية منذ ارتبطنا.

نعم يزعجني أن أعرف معظم أخباره من والدته، أو من صفحاته على وسائل التواصل الاجتماعي، ويزعجني تأخّره الدائم عن موعد اتِّصالنا، وتعليماته حول ما عليَّ فعله وما عليَّ تجنُّبه... تُزعجني كلّ تلك الأمور وقد تنغِّص عليَّ، لكن ليس لدرجة أن أتخلَّى عنه! لن أتخلَّى عن أُسَيد، لقد تعلَّقت به بالفعل، وأنا أنتظره بفارغ الصبر.

وبينما كنتُ حزينة، وصلتني منه رسالة كتب فيها:

- جميلتي هي من ألهمتني هذا المنشور، تصبحين على خيرٍ.

ومن ثمَّ أرسل رابطاً لمنشوره:

إن بحثتَ عن تعريفه تجد أنَّ الفلاسفة والمفكِّرين احتاروا بصياغة تعريفٍ موحَّدٍ له. هكذا هو الجمال لا تعريف له في الأساس، هو شعورٌ وانعكاس، وإدراكٌ وإحساس، قولٌ وفعلٌ وردّة فعل، كلمةٌ خارجةٌ عن المألوف، بل صمتٌ لا يقتل الحروف.

Osaid

لم أعلم هل أفرح أم أحزن، هو في وادٍ وأنا في وادٍ آخر، لو يعلم مدى غضب والدتي منه لما استطاع أن يستلهم حرفاً واحداً.

أُسَيد يونيو 2015

لم أتوقَّع أن يُحدث أوليفير كلَّ هذه المشكلات، بدأ الأمر بعدما أرسلت ورقة بحثيَّة أثناء فترة الدكتوراة بهدف نشرها في إحدى المجلَّات العلميّة، وتمَّت الموافقة عليها بعد تخرُّجي بأشهر، وحازت تلك الورقة على تقييم عالٍ جدَّاً. حينها ادَّعى أوليفير زميلي في المجموعة السابقة التي كنت أعمل فيها أثناء الدراسة أنَّه صاحب الفكرة وأنِّي قد استوليت عليها واستحوذت على المجد وحدي.

لا عجب، فقد أرسل أوليفير أوراقاً بحثيَّةً عديدة في الآونة الأخيرة ولم تُقبل أيٌّ منها، ورغم أنِّي حاولت مساعدته إلا أنَّه أبى. أعلم كيف يفكر أوليفير، فكيف لي أنا الشاب القادم من العالم الثالث أن أتفوَّق عليه بمراحل، بينما هو يفشل!

استخدم سلاحاً سخيفاً، وهو تقاطع بحثي مع المجال الذي يعمل هو به، واعتبر أنَّ تلك الورقة هي من بنات أفكاره، وأنَّنا تناقشنا فيها كثيراً، كوننا كنَّا نعمل في مكتبٍ واحدٍ في تلك الأيام.

لم أكترث به في بداية الأمر، ووضَّحت للبروفيسور أنِّي بريءٌ مما يتَّهمني به أوليفير وصدَّقني بالطبع، فهو الأدرى بتلك الأمور، لكن أصرَّ أوليفير على رفع دعوى ضدِّي.

أتت تلك الدعوى في توقيتٍ سيءٍ بالنسبة لي، فأنا أنتظر قرار التجنيس لأتمكَّن من السفر بسهولةٍ ومن غير أن تستدعيني المحكمة وأنا غائب خارج انجلترا، تعقَّدت الأمور على مدى أشهر، إلى أن علَّقت المحكمة القضية لعدم وجود أدلَّة كافية، وحصلت على الجنسية البريطانية أثناء ذلك، واستطعت نتيجة لما حصل تحديد موعد الزفاف والحصول على أسبوع إجازة للسفر إلى الوطن، إذ لم تكن زينة لتقبل بإقامة الزفاف من غير أن أكون موجوداً معها.

خلال أزمتي مع أوليفير، كانت زينة متوتِّرة للغاية، تسألني كل يوم عن المستجدَّات، في المقابل كنت أطلب منها ألا تفكِّر بهذه الأمور، أعتقد أنَّ مشكلات العمل هي من صلب العمل، ومن الجيِّد مجابهة تلك المشكلات بين الفينة والأخرى، ليتعلّم المرء ويكتسب خبرة مع الوقت.

بالطبع أزعجتني مشكلتي تلك، إذ أنَّها أوصلتني إلى المحاكم، لكن كان الموضوع شكليَّاً أكثر من أن يكون حقيقيَّاً بالفعل. يبدو أنَّ هذا الأمر يتكرَّر بشكلٍ دائمٍ في المجال الأكاديمي.

حاولت التفرُّغ خلال الأسابيع الأخيرة قبل سفري لتجهيز المنزل الذي استأجرته في الآونة الأخيرة، وجلب الأشياء الأساسية، لكنِّي اكتشفت أنَّ الأمر ليس بهذه السهولة، استعنت بصديقي يزن، فهو أكثر فطنة منِّي في هذه الأمور، وفي ليلة السفر، اتَّصلت بي زينة:

- أُسَيد، هل ما يزال موعد وصول طائرتك الساعة الثالثة بعد الظهر؟
- نعم، أعتقد ذلك.
- أخبرني بالموعد بدقَّةٍ، غداً سأودِّع صديقاتي في المستشفى، وبعد حفلة الوداع سأنطلق مباشرةً إلى المطار.

تنهَّدتُ وقبل أن أسألها، أجابتني وهي تضحك:

- لا تقلق، اتَّصلت بوالدك وهو من سيصطحبني معه، كما تعلم فوالدي سيكون في عمله وأخي عبد الرحمن في الجامعة.
- لا بأس، لكن لا داعي بالفعل لأن تأتيا، أستطيع المجيء وحدي.
- ألا تريد رؤيتي؟
- بلى، لكن لا أريد أن أكلِّفك عناء المجيء، هذا كلُّ ما في الأمر.

وودَّعتها بعد أن تمنَّت لي السلامة والأمان في سفري.

زينة يونيو 2015

لم أتوقَّع أن تتأجَّج مشاعري لهذه الدرجة، شعور الشخص المغادر يكون مزيجاً من حالات عديدة، ففي حالتي، أنا سعيدة بأنِّي سأسافر مع أُسَيد وأبدأ حياتي معه بدورٍ جديد ومكانٍ جديدٍ، وبواجباتٍ والتزاماتٍ مختلفة، وسعيدة بأنِّي من اليوم فصاعداً لم أعد أفكِّر بالمناوبات وتوقيتها، ولا بالتأنيب الدائم من المدير، ولا النظرة المزعجة التي يرمقها بعض أهالي المرضى لنا، فهم إمَّا يتَّهموننا بالتقصير، أو بعدم الاهتمام، وينتظرون منَّا أن نتعاطف معهم لأبعد حدٍّ، ولا يدركون أنَّ هذا هو عملنا اليومي، نحن محاطون بالمرض والهموم والأحزان دوماً، فلا بدَّ أن نقوي عزيمتنا لنتمَّ عملنا على أكمل وجه، وكي نستطيع دعم المريض نفسياً ونرفع من معنوياته. واجهتني فعلاً كثير من المواقف السيئة خلال عملي في مجال التمريض، ولعلَّ ما كان يساعدني على الاستمرار هو إصراري على إنجاز شيء نافعٍ ومهمٍّ.

أمَّا اليوم وأنا أودِّع الطاقم الطبِّي، وفريق العمل، وأروقة المستشفى، وغرف الإنعاش، وفي المقام الأوَّل، المرضى، انتابتني مشاعر حزن شديد، سأغادر وأتركهم. سيكملون أيامهم كالمعتاد، ولن يبقى مكاني

فارغاً لمدَّة طويلة. هو أسبوعٌ واحدٌ وسيعتاد الجميع غيابي، وسأصبح ذكرى، وآمل أن أكون ذكرى سعيدة لهم جميعاً.

أخبرتهنَّ بما أشعر وأنا أذرف الدموع، فاحتضنتني زميلاتي حضناً دافئاً لن أنساه أبداً، وبعد أن عدن جميعهنّ إلى أعمالهنّ مجدَّداً، ذهبت إلى الغرفة التي كنَّا نضع فيها حاجياتنا ونبدِّل ملابسنا، فليس لديَّ مكتب خاص أو مكان محدَّد، إنّما هي خزانة أضع فيها أغراضي وسترتي البيضاء وبعض الأوراق والكتب اللازمة. تأكَّدت أنِّي جمعت كلَّ ما يخصُّني، ونظرت إلى هيئتي في المرآة، فرأيت عيني منتفختين ووجهي أحمر بسبب الانفعال والبكاء، فحاولت أن أعدِّل هيئتي قبل وصول عمِّي، فموعدي معه عند الساعة الواحدة والنصف.

انتهيت من ترتيب أموري، وخرجت أنتظر عمِّي عند بوابة المستشفى، مرَّت عشر دقائق، قلت في نفسي لا بدَّ وأنَّها زحمة الطريق، لكن بعد مرور أكثر من نصف ساعة على الموعد وأنا أقف تحت شمس يونيو الحارقة، اتَّصلت به، وهنا كانت الصدمة، لقد نسي عمِّي أن يمرَّ عليَّ ليقلني معه إلى المطار.

حاولت كتم غيظي، إذ لا طائل من الكلام، فقد كان في منتصف الطريق وبالتأكيد لن يعود ليأخذني معه. أخذت سيارة أجرة وعدت إلى المنزل وأنا غاضبة، حينما دخلت إلى المنزل ورأتني والدتي، اندهشت كثيراً وسألتني:

- أليس من المفترض أنَّك في المطار الآن، هل حدث أي مكروه؟ هل يوجد تأخير في موعد الطائرة؟
- لا شيء من هذا القبيل.

ودخلت إلى غرفتي ورحت أبكي، لحقت بي والدتي وهي تنظر إلى وجهي الذي أحرقته الشمس، وعادت إلى أسئلتها مجدَّداً، حينها لم

أستطع كتم غيظي أكثر وأخبرتها بما حدث وبالقهر الذي أشعر به. لم تعقِّب، لكنَّها رمقتني بنظرةٍ فهمت مغزاها، وقالت لي:

- خذي حماماً كي ترتاحي وبعدها سنتحدَّث.

أُسَيد يونيو 2015

اتَّصلت بها أكثر من عشر مرَّات ولم ترد، فاتَّصلت بعدها على الهاتف الأرضي، فردَّت حماتي:

- وعليكم السلام، أهلاً يا بنيَّ، الحمد لله على سلامتك.
- كيف حالك يا خالة؟ وكيف حال الجميع؟
- نحن بخير الحمد لله. كيف كانت رحلتك؟
- ميسرة بحمد لله، أتَّصل بزينة لكنَّها لا ترد، هل من خطب؟ أين هي الآن؟
- زينة متعبة جدَّاً، أعتقد أنَّها أُصيبت بضربة شمس، كما تعلم انتظرت والدك قرابة الساعة تحت أشعة الشمس في منتصف الظهيرة.
- حقَّاً؟! لم أكن أعلم بذلك، حسبي الله ونعم الوكيل، وكيف هي الآن؟ أهي نائمة؟
- لا أعلم، هي في غرفتها منذ أتت، لقد انكسر خاطر الفتاة أيضاً.
- لم أفهمك يا خالة؟

- لقد حزنت جدًّاً، كيف ينساها والدك؟ لقد كانت متحمِّسةً جدَّاً لاستقبالك.
- كلُّه خير، على أي حال، هل نأخذها إلى المستشفى؟ أو نتَّصل بطبيبةٍ كي تفحصها ونطمئنَّ عليها؟
- لا داعي، أنا أعتني بها.
- حسناً، سأتَّصل بها لاحقاً لأطمئنَّ عليها، بلغيها سلامي حين تستيقظ.
- إن شاء الله.

مرَّت بعدها ساعات، توقَّعت أن يردني اتِّصال منها، لكنَّها لم تتَّصل، وقبل أن أخلد للنوم عاودت الاتِّصال بها، فأجابت في هذه المرَّة:

- زينة، أين أنت؟ ألف سلامة عليكِ.
- من الجيِّد أنَّك ما تزال تتذكر اسمي!
- زينة، هوني عليك، أعتذر جدَّاً عما حدث، صدقيني لم يقصد والدي ذلك.
- أعلم أنَّه لم يقصد، لكن ماذا عنك أنت؟ أهذا كلُّ ما تستطيع فعله؟ أن تتَّصل فقط؟
- لم أشأ أن أزعجك!
- حسناً كما تشاء، ماذا تريد الآن؟

- ألن تقولي لي حمداً لله على السلامة؟
- حمداً لله على سلامتك، ماذا تريد الآن؟
- إن كنت متضايقة إلى هذا الحد تستطيعين إنهاء المكالمة.
- ليس الأمر كذلك، لا تغيِّر مجرى الكلام. لم أتوقَّع أن يفشل لقاؤنا الأوَّل، عليك أن تتذكَّر أننا لم نلتقِ بعد ارتباطنا!

نظرت إلى الساعة، فكانت العاشرة مساءً، سألتها:

- هل تستقبلينني إن أتيتكم الآن؟

أجابتني بصوتٍ مختلفٍ ويبدو عليه البهجة المفاجئة:

- نعم، بالتأكيد!
- إذن، فأنا قادم لأراكِ.

نهضت من مكاني، ورحت أجهِّز نفسي، حينها سألتني والدتي وهي تمرُّ من أمام غرفتي:

- إلى أين أنت ذاهبٌ يا بنيَّ؟
- سأزور زينة، كما أخبرتك لقد أصيبت بضربة شمس، وقد اتَّصلت بها منذ قليل وما تزال مستيقظة.
- وهل استأذنت الجماعة؟

- لم أفعل، لقد سألتها وأخبرتني ألّا مانع لقدومي.
- لا يا بنيَّ، ليس من اللائق ذهابك الآن، لا بدَّ أنَّك أحرجت الفتاة.
- لكنَّني وعدتها بالقدوم، لا أستطيع تغيير كلامي.
- إذن اذهب وخفِّف ولا تتأخَّر.
- حسناً سأفعل ذلك.

مررت على أحد محلات الزهور، من حسن الحظ أنَّ الدكاكين والمتاجر لا تغلق باكراً في الصيف، اشتريت باقة ورد وهدية ملائمة وانطلقت لزيارة زينة.

زينة يونيو 2015

ما إن أنهيت مكالمتي مع أُسَيد، حتَّى انتفضت من مكاني لأُعلم والدتي بقدومه، لم تمانع فهي تعلم مدى انزعاجي وغضبي ممَّا حدث اليوم، أخبرتْ والدي بالأمر ومن ثمَّ راحتْ تحضِّر طعام العشاء، بينما انطلقت مباشرةً لأرتِّب شعري وأختار ملابسي، وبعد مرور أقل من نصف ساعة كنت جاهزةً تماماً أنتظره، وبينما كنت أتأكَّد من مظهري، سمعت نقراً خفيفاً على الباب، فناديت والدتي:

- وصل أُسَيد، افتحي له الباب أرجوك، فأنا مرتبكة جدَّاً.
- حسناً!

وبالفعل استقبله والداي، وبعد أن ضبطت أعصابي ونبضات قلبي بعض الشيء، دخلت لأسلِّم عليه، وتماماً كأوّل زيارةٍ له، وقف وهو يبتسم، لم أستطع أن أطيل النظر إليه فقد كنت محرجةً للغاية، لكنِّي لاحظت أنَّه يبدو أكثر رشاقةً من ذي قبل.

تبادلنا السلام وناولني باقة وردٍ وهو يقول لي:

- ألف سلامة عليكِ. كيف تشعرين الآن؟

- شكراً لك، الحمد لله تحسَّنت حالتي، أشعر بحالٍ أفضل.

جلسنا لدقائق، ومن ثمَّ دعته والدتي ليشاركنا طعام العشاء. مرَّ الوقت بسرعةٍ كبيرةٍ، كنت سعيدةً جدَّاً برؤيته أخيراً، لم أكن أرغب بأن يعود إلى منزله، وددت لو يطول الليل لأسبوعٍ أو لشهر، لا يشبه حديثنا مع بعضنا ونحن معاً في مكانٍ واحدٍ حديثنا عبر وسائل التواصل إطلاقاً. تفاءلت جدَّاً، وزالت مخاوفي، شعرت أنَّه نصفي الثاني بالفعل، وكانت سعادتي به لا توصف، أمَّا هو فبدا لطيفاً أكثر من المعتاد، ووسيماً جدَّاً، أخبرني أنَّه اهتمَّ بلياقته البدنية في الآونة الأخيرة، وكانت نظرته لي مليئة بالحبِّ، رمى لي كثيراً من كلمات الغزل بين الكلام. وعبَّر لي عن مشاعر لم يبح بها من قبل، ولا سيَّما حول إعجابه الشديد بجمالي، لم أعتقد أنَّه سيمنحني كلَّ هذا الاهتمام دفعةً واحدةً، وبعد أن غادر، لم أستطع تلك الليلة أن أغفو، كنت منفعلةً بشكلٍ كبيرٍ، وانعكست سعادتي تلك على والدتي التي سعدت جدَّاً برؤية البهجة على وجهي، وقالت لي قبل أن تمضي إلى فراشها:

- من الخير أنّ عمَّك نسيك، وإلا كنت ستذهبين معه بعد المطار إلى منزله، وستجلس والدته بينكما! انقلب الأمر عليها.
- ماذا تقصدين؟ لم أفهمك!

- كان باستطاعتها تذكير زوجها بأنَّك تنتظرينه ليصطحبك معه، ألم تتحدَّثي معها مئات المرَّات لتأكيد الموعد؟
- لا تظلميها يا أمِّي، إنَّ بعض الظنِّ إثم.
- على أي حال، اطمئنَّ قلبي اليوم حين رأيته وهو يتعامل معك بلطفٍ وذوقٍ ورقيٍّ، آمل ألَّا يتغير كثيراً، تصبحين على خير يا بنيتي، أتمنى لكِ حياةً سعيدةً.

وطبعت قبلةً على جبهتي ثمَّ مضت إلى غرفتها، حينها تنبَّهتُ لما قالت، بالفعل، كان من الخير أن نسيني عمِّي، فلم أكن لأحظى بتلك السهرة مع أُسَيد حينها.

أُسَيد يونيو 2015

أعلم كم تعني ليلة الزفاف للفتيات، وكم يحلمن بتلك اللحظة حين تدخل العروس برفقة عريسها على أنغام ملكية فيشعران كما لو أنَّهما يتوجَّان لحكم مملكةٍ جديدةٍ، مملكةٍ تضمُّهما وحدهما، وأعلم كم تعني تلك التفاصيل الصغيرة لهن؛ المراقصة، تقطيع قالب الحلوى، وتبديل أماكن خواتم الخطبة، وكثير من الصور العفوية وغير العفوية، لكن كلّ ذلك كان مستحيلاً بالنسبة لي، فأنا لن أراقص زينة أمام الجموع، ولن أدخل الصالة بتاتاً، حيث النساء بزينتهن وحليهن وملابسهن وعطورهن، ما لي وماﻟِهذا المكان؟!

احترمت زينة رأيي ولم تطل الجدال، مع أنَّني لم أتوقَّع ذلك، فقد هيَّأت نفسي لِكيف وماذا سأرد وبماذا سأستدلَّ حينما تبدي اعتراضها على قراري بأنِّي لن أرافقها أثناء دخولها لصالة الزفاف الخاصَّة بالنساء.

أراحتني حقَّاً من عناء الجدال، لكنَّها وضعت شرطاً واحداً وهو أن نطيل زفَّة العروس من منزل أهلها إلى الصالة فنمكث وقتاً أطول في السيارة برفقة بعضنا البعض قبل أن أوصلها إلى صالة الزفاف. وافقتها ومن ثمَّ بدأتُ بطرح بعض الأسئلة والاستفسارات:

"ما نوع الحجاب الذي سترتدينه؟"

"هل سيبدأ برنامج الحفل قبل صلاة العشاء أم بعدها؟"

"هل ستطلب مني مراقصتها في منزل أهلها؟ وما نوع الموسيقى التي ستوضع في الحفلة؟"

وما إلى ذلك... طرحت تلك الأسئلة على زينة وكانت تجيب بشكل واضحٍ ومرضٍ للغاية، وما إن أنهينا حديثنا حول تفاصيل الزفاف، حتَّى وصلني بريد إلكتروني من شركة النقل يعلمونني بأنَّهم على استعداد لتوصيل وتركيب غرفة المعيشة، اتَّصلت بيزن الذي تطوَّع أن يفتح لهم باب الشقة والبقاء معهم إلى أن ينتهوا من العمل، وحين أنهيت مكالمتي مع يزن، سألتني زينة:

- بالمناسبة لم ترني اللون الذي اخترته للغرفة.
- حقًّاً! ظننتُ أنِّي أرسلت إليك صورة.
- لم تفعل، الصورة الأخيرة كانت للغرفة ذات اللون الداكن الذي لم يعجبني.

ابتسمتُ ولم أجبها مباشرةً فقالت لي:

- لا تقل لي بأنَّه اللون الذي وقع اختيارك عليه بالفعل؟

- نعم، اللون مريح ومناسب لغرفة المعيشة.
- لكنِّي أخبرتك أنِّي لا أحبُّ هذا اللون أبداً.
- كيف لا تحبِّين هذا اللون، وهو ذاته الذي كنت ترتدينه يوم حفلة القران، ألم ترينا الصور قبل قليل، اللون هو ذاته!
- هل تمزح أُسَيد، هل تشبِّه اللون العسلي اللطيف باللون البنيِّ ذي الدرجة الكئيبة!
- أنا لا أشبِّه هذا بذاك، إنَّهما لون واحد، ناوليني ألبوم الصور، ها هو ذا ما يزال بقربك.

زينة يونيو 2015

فتح ألبوم الصور وراح يقارن اللونين، وهو متأكِّد أنَّهما من نفس الدرجة، رأيته وهو جادٌّ بالفعل، وأيقنت أنَّه حقَّاً لا يلاحظ الفرق بينهما، قلت في نفسي هل يعاني من عمى الألوان؟ أم أنَّه كأغلب الرجال، يكتفون بعشرة ألوان ليصفوا كلَّ ما حولهم!

لم أعقِّب كثيراً، فقد أصابني الذهول، فهو لم يأخذ كلامي بعين الاعتبار، وفوق ذلك يجادلني ويحاول أن يلتقط الحجج من هنا وهناك. حاولت تناسي الموضوع، فلا طاقة لي لجدال لا طائل منه، ولا أودُّ أن تتنبه أمهاتنا لجدالنا، فهما في زاوية الغرفة التي نجلس فيها، وإن عرفت أمِّي هذا الموضوع فستبدأ مباشرةً بلوم والدة أُسَيد كما لو أنَّها السبب وراء كل أخطاء أُسَيد!

تركته لبرهة بينما كان منشغلاً في إرسال بعض التفاصيل إلى شركة النقل، وانضممت إلى مجلس الحموات ذلك، ويا ليتي لم أفعل، شعرت كما لو أنَّني في حلبة صراع.

- أرأيتِ يا أم حذيفة، قلت لكِ، وجود العريس أمر مهم جدًّاً، ألا تريهما كيف ينسِّقان ويرتبان أمورهما المستقبلية، ويتهيآن لزفافهما.
- لا أنكر ذلك، لكن في المقابل، لم يكن أُسَيد بأفضل حال حين بدأت زينة بالإصرار على مجيئه.

ثمَّ وجَّهت نظرها نحو أُسَيد وهي تقول له:

- ألا ننطلق إلى المنزل يا بنيَّ؟

رفع نظره إليها وأجابها:

- ما يزال لدينا تنسيق أوراق زينة ووثائقها الرسميَّة، يجب أن نرتِّبهم اليوم، فالزفاف بعد يومين ومن ثمَّ سنسافر مباشرة، لم يعد هنالك متَّسعٌ من الوقت.

هنا رفعت حماتي حاجبيها موجهةً الكلام لي:

- ألم تنسِّقي أوراقك بعد يا ابنتي؟

أجبتها:

- لا يا خالة، أنهيت منهم ما أستطيع بمفردي، وبقيت بعض الوثائق التي أحتاج فيها إلى مساعدة أُسَيد.

ابتسمت وقالت:

- حفظ الله أُسَيد، فهو مرتَّب في كلِّ شيء، ساعد خطيبتك يا بنيَّ.

لم أفهم ماذا تقصد بالضبط، لكن لم تكن والدتي لتجعل الأمر يمر في هذه السهولة، أجابتها مباشرة:

- تلك الوثائق لا علاقة لزينة بها، كما أنَّ هناك معاملات يجب إنهاؤها هنا كما تعلمين.

أكملتا القيل والقال بينما كان أُسَيد مشغولاً بالكامل، ولم يسمع حرفاً من هذا النقاش الذي أزعجني بالفعل، لكن ليس للحدِّ الذي ينتزع فرحتي بزفافي القريب.

أُسَيد يونيو 2015

أتى يوم الزفاف، ونُفِّذت الخطة بحذافيرها. مررت على منزلها الساعة الثامنة مساءً، حين دخلت وجدتها تقف تنتظرني بفستانها الأبيض، وتبتسم إليَّ، لا أعلم لِمَ ظننت أنَّها ستغطِّي وجهها، وعليَّ أنا أن أرفع الغطاء لأراها، لكن يبدو أنَّ هذه اللقطة التي في مخيلتي هي عادةٌ قديمةٌ لم تعد تتداول بين بنات الجيل الحالي.

ناولتها باقة الورد، وطبعت قبلةً على جبينها، فزغردت كلُّ النساء اللواتي كنَّ معها في المنزل. كان صوتهنَّ عالٍ جدّاً وصاخباً، إلا أنَّ الأمر مفرح ومبهج. التقطنا بعض الصور للذكرى، ومن ثمَّ قدَّمت لها هديتي، وبدَّلنا أماكن الخواتم لتصبح في اليد اليسرى، ومن ثمَّ ركبنا سيارة الزفَّة معاً.

أمسكت يد زينة فأمالت رأسها على كتفي، شعرتُ أنَّها تحيا أجمل لحظات حياتها، وتندمج مع كلمات الأغاني التي انتقتها بكلِّ ما أوتيت من عاطفة. أسعدني ابتهاجها لحدٍّ لا يمكن وصفه، ورغم أنَّ مساحيق التجميل كانت كثيرة على وجهها، إلا أنَّها لم تفقدها ملامحها الحقيقة، بل أنارتها وأضاءتها كالشمس أمامي.

بعد أن أوصلتها إلى صالة النساء، انطلقت مع أصدقائي وشباب العائلة وكبارها إلى صالة صغيرة، هناك حيث أقيمت حفلة صغيرة، كنت مبتهجاً برؤية أصدقائي وأهلي حولي يشاركونني فرحتي، لطالما اعتقدت أنَّ هذه الأمور شكليَّة ومكمِّلة وليس لها الأولوية، لكنَّني اكتشفت أنَّها ليست كذلك، فبالفعل تكون الفرحة منقوصة حين يكون الزفاف مختصراً وغير مخططٍ له بشكلٍ لائقٍ.

لن أنسى كيف حملني أصدقائي وهم يهتفون باسمي ويصفقون ويغنون لي. كان آدم هو من يقودهم جميعاً، كالعادة هو أكثرهم نشاطاً، وأظرفهم كلاماً. مضت ساعات ومن ثمَّ عدت إلى صالة النساء التي كانت شبه فارغة، فدخلت، سلَّمت عليَّ خالاتي وعمَّاتي وقريباتنا، والتقطت الصور مع والدتي وأختَي اللتان كانت فرحتهما بي لا توصف، ذرفت والدتي

كثيراً من دموع الفرح وهي تضمُّنا أنا وزينة، فأنا أعلم أنَّها تحبُّ زينة كثيراً رغم كل التعليقات التي تحاول رميها بين الفينة والأخرى لتظهر ولدها -والذي هو أنا- بأنَّه رائع ومثالي، حتَّى أنَّها كانت تلمِّح أنِّي سأتفوَّق على زينة بالوسامة ليلة الزفاف، لا بدَّ وأنَّها اكتشفت الفارق الكبير بيننا، فقد كان جمال ورقَّة زينة طاغيان على الحفل بأسره. ناهيك عن جمال روحها ولينها وطيبتها التي جعلتني أتعلَّق بها وأراها الأجمل والألطف والأقرب إلى قلبي. حافظت طيلة حياتي على مشاعري كي لا تتبدَّد هنا وهناك على علاقاتٍ وإعجاباتٍ ومشاعر مؤقَّتة، كنت أحتفظ بكلِّ ذرَّة حبٍّ لزوجتي، واليوم أنت قد احتللت هذا المنصب يا زينة، فهنيئاً لكِ بمشاعري وحبِّي كاملاً غير ناقص، وهنيئاً لي بأن أحظى بكِ.

زينة يونيو 2015

كانت لحظة الوداع مؤلمةً للغاية، أن أحزم حقائبي وأمضي بعيداً عن والديّ وأخوتي، لم أتمالك نفسي حين ضممت أولاد زهراء، فانهمرت دموعي. لؤي ولانا ولميس، الثلاثي المرح، الذي ملأ لنا البيت، سأسافر ولن أراهم كما اعتدت، ولن ألاعبهم، ولن أسأم من طلباتهم ومشاغباتهم حين تتركهم والدتهم عندي لتقضي بعض المواعيد المهمة.

سألني لؤي:

- متى ستعودين؟
- سآتي كل سنة في إجازة فنلعب ونستمتع بوقتنا، وسأحادثك عبر الهاتف، سترسل إلي صوراً لسياراتك الجديدة، وألعابك المميزة، لن يختلف أي شيء، صدِّقني.

نظرت إلى لانا ولميس وقلت لهما:

- أرسلا إلي صوراً للدمى ولرسوماتكما الجميلة، سأنتظر سماع أخباركما دوماً.

وحين جاء دور وداع أختي زهراء، شعرت بأنَّ قلبي يخرج من مكانه، فبالرغم من أنَّ زهراء تزوَّجت منذ عشر سنوات، وبالرغم من انشغالها الدائم ببيتها وزوجها وأطفالها، إلا أنَّها قطعة من قلبي، بكيت بحرقة وأنا أبتعد عن حضن أختي، وتوجَّهت نحو عبد الرحمن، كان بودِّي لو أبقى بجانبه في سنته الأخيرة قبل التخرُّج، لطالما سهرت معه في ليالي الامتحان، كي لا يغفو أو يشعر بالملل، ورغم أنَّه هادئ وخجول وقليل الكلام، إلا أنَّنا كنَّا نتحدَّث في أمورٍ كثيرةٍ، فاكتشفت شخصيته عن كثبٍ خلال تلك الليالي، وأصبحنا قريبين من بعضنا، وبات بيننا كثيرٌ من الأسرار. ضممته وأنا أقول له:

- اعتنِ بوالديك جيِّداً، أرجوك. واعتنِ بدراستك، سآتي لحضور حفل تخرُّجك السنة القادمة إن شاء الله، وحين تشعر بالملل، اتَّصل بي، وسنسهر أون لاين، ما رأيك؟

ابتسم، والدمعة في عينه، فأخفاها وأومأ برأسه، فلم أشأ أن أحرجه أكثر.

نظرت إلى والدي، الذي بدا عليه الحزن بشكلٍ كبير، إلا أنَّه كان مطمئنّاً، ويحاول نقل شعور السكينة إلى قلبي كي لا أنفعل كثيراً، فأوصاني بنفسي وبأُسَيد. ضممته وقبلت يديه وكتفه، وغرست وجهي

في صدره، سأشتاق إلى ضمَّته كثيراً. ذرفت دموعي مجدَّداً، رفعت رأسي كي أودِّع والدتي، إذ بات الوقت ضيقاً وكان أُسَيد ينتظرني أمام المنزل بعد أن ودَّع أهلي وحمل حقائبي ليضعها في السيارة.

نظرت إليَّ والدتي وقالت لي بصوتٍ مرتجفٍ:

- أسأل الله أن يسعدك يا حبيبتي، ويكتب لك التوفيق والخير، لا تتأخَّري علينا، تعالي في كلِّ إجازة، ومع كلِّ فرصة، سأشتاق إليك يا مهجة قلبي.

ضممتها وقلبي يبكي من ألم الفراق.

زينة يوليو 2015

لم أرفع سقف توقُّعاتي كثيراً، ومنذ البداية علمت أنَّ ذهابي إلى أوروبا لا يعني الذهاب إلى الجنَّة، إذ باتت هذه الحقيقة رائجةً ومعروفةً أكثر من ذي قبل، الأمر الذي يجعل بعض الفتيات يتخوَّفن أساساً من فكرة الزواج والسفر إلى بلدٍ غربيٍّ. على كلِّ حال كان الأمر ممتعاً حين وصلت إلى لندن، فكل شيءٍ جديد ومختلف؛ الوجوه، الأماكن، الملابس، الطعام، الخبز، والطقس... كانت الأيام الأولى من أجمل أيام حياتي، فقد مدَّد أُسَيد إجازته نزولاً عند رغبتي، فلا يعقل أن يذهب إلى العمل بعد يومين من وصولنا، حينها سأشعر بالوحدة والوحشة بشكلٍ كبيرٍ.

رغم أنَّنا تعرفنا إلى بعضنا عن طريق المحادثات والرسائل، إلا أنَّ أُسَيد بقي كما عرفته، لم أشعر بأنِّي أرى وجهاً آخر له، أو أسمع كلاماً أو منطقاً جديداً أو غريباً، كلّ شيء كما هو، الأمر الذي طمأنني جدَّاً، أمَّا الأمور التي كانت تقلقني حول التعامل معه فباتت عاديَّة، ولم أعد بحاجةٍ إلى تخمينها، فأنا أعلم من نبرة صوته متى يكون راضياً أو متحفِّظاً، وأعلم من نظرته متى تعجبه ملابسي ومتى تزعجه، وأصبحت تلك المواقف بديهيةً وسهلة التعامل، فجعلت من "عدم الجدال" الطريقة الذي أواجه

بها تعليقاته وتعليماته، ومن ثمَّ تنفيذها بالقدر الذي لا يزعجني ويرضيه، وأيقنت أنِّي لستُ صعبة المراس أو عنيدة، ولعلَّ هذا ما اكتشفته حماتي وعلى هذا الأساس اختارتني، فهي تعلم من كلِّ بدٍّ أنَّ هذه الخصلة هي الأهم في كنَّتها.

في الأسبوع الثاني من وصولنا إلى لندن، أخبرني أُسَيد بأنّ صديقه يزن يودُّ زيارتنا ليبارك لنا، حضَّرت ما أستطيع تحضيره من الأطعمة والحلويات، ففي نهاية المطاف أنا لست ماهرةً بما فيه الكفاية، ومن حسن الحظِّ أنَّ أُسَيد لا يتدخَّل كثيراً بهذه التفاصيل، وحين رآني مرتبكةً ومتوترةً، أخبرني أن آخذ الأمور ببساطةٍ، فهو صديقه ولا رسميَّات كثيرة بينهما، وبحمد لله كان الطعام جيِّداً ومقبولاً، لم أجلس معهما كثيراً، فلا داعي لذلك، لكنِّي كنت أدخل بين الفينة والفينة إلى الغرفة، أقدِّم لهما الشاي أو القهوة وأتحدَّث ببضع كلمات ثمَّ أعود إلى المطبخ، الذي أصبح كتلةً من الفوضى، فأنا لست معتادة على صنع العديد من الأطباق في يومٍ واحدٍ.

لاحظت من طريقة كلام يزن وأُسَيد أنَّهما مقربان من بعضهما بالفعل، وحين أردت شكره على هديته وقلت له:

- لقد كانت مفاجأةً جميلةً جدّاً، حين دخلنا إلى غرفة الجلوس ورأينا التلفاز وهو مزينٌ بتلك الطريقة اللطيفة، علم أُسَيد مباشرة أنَّك أنت من وضعته في غيابنا، شكراً لك!

ابتسم وأجابني:

- لا داعي للشكر، أتمنَّى لكما حياةً جميلةً وهانئةً ومليئةً بالسعادة.

ثمّ نظر إلى أُسَيد وقال له ممازحاً:

- لديّ طلب يا أُسَيد.
- وما هو يا أستاذ؟
- أرجو ألا تستخدم التلفاز إلا بالبرامج النافعة والمفيدة، لا أودُّ أن أتحمَّل ذنوبك.

خرجت من الغرفة، وأنا أسمع أُسَيد وهي يجيبه:

- حاضر يا مفتي لندن، طلباتك أوامر، أعدك أنِّي لن أحمِّلك أي ذنب.

وضحكا معاً، يبدو أنَّهما على علاقةٍ ممتازةٍ، بالفعل لا أجمل من الصديق، تمنَّيت لو أنَّ يزن مرتبطٌ ولديه زوجة لتصبح صديقتي في هذه الغربة.

أُسَيد سبتمبر 2015

عدت إلى المنزل بعد يومٍ شاقٍّ، فقد بدأ الفصل الدراسي للتوِّ، والطلاب يكثرون من الأسئلة والاستفسارات في بداية الفصل. بعدما تناولت طعام العشاء مع زينة، جلسنا معاً نحتسي الشاي، فبدت وكأنَّها تودُّ الحديث حول أمر مهمٍّ، فسألتها:

- ما بكِ زينة؟ أراك مرتبكةً، هل هناك خطبٌ ما؟
- لا شيء محدَّد، لكنَّك لا تتحدَّث كثيراً بعد الدوام، أشتاق إلى الحديث معك أُسَيد.

عدَّلت جلستي وقلت لها مبتسماً:

- ليس لديَّ أي شيء لقوله في هذه اللحظة، اسأليني ما شئت، أو تحدَّثي بما تحبِّين.
- حسناً لديَّ سؤال، ماذا حدث بأمر القضية هل حُلَّت؟
- ستقام جلسة المحكمة النهائية الأسبوع المقبل، لا تشغلي بالك بهذه الأمور.
- ألا تشعر بالقلق؟
- لا إطلاقاً، فأنا لست سارقاً كما تعلمين.

- أعلم بالطبع، لكن ماذا لو...؟

لم أدعها تكمل كلامها، بل قاطعتها:

- لو! لا تستخدمي هذه الكلمة، إن حدث شيء سيء حينها سنفكِّر في الحلِّ.
- معك حق، نسيت أن أخبرك، لقد اتصل بي موظف المعهد، لكي ألتحق بدورة اللغة الإنكليزية بعد أسبوعين.
- هذا ممتاز! ركِّزي الآن على دورة اللغة تلك.
- ماذا عن الموضوع الذي تحدَّثنا به البارحة؟

نظرت إليها وأنا أحاول أن أتذكَّر، ثمَّ قلت لها:

- تقصدين الأطفال؟
- نعم!
- الآن بما أنَّنا تأكَّدنا من موعد دورة اللغة الإنكليزية، فمن الأفضل تأجيل الأطفال إلى أن تحصلي على شهادة اللغة الانكليزية بالدرجة المطلوبة.

صمتت قليلاً ثمَّ أجابتني:

- أوافقك الرأي أُسَيد.

شعرت أنَّ القرار لم يعجبها، فسألتها:

- هل يزعجك الأمر زينة؟ كل ما في الأمر أنِّي لا أودُّ أن تكثر عليك المهمات في الآن ذاته، وأجدك تجدين صعوبةً في التحدُّث مع الناس، لكن لا تقلقي إنَّها الفترة الأولى فقط، وستعتادين لهجتهم وسينطلق لسانك في لحظةٍ ما، ووجودك في معهد اللغات سيعينك على هذا.
- لا مشكلة في ذلك، لكن ماذا عن العمل أُسَيد؟ هل أمارس مهنة التمريض بعد دورة اللغة؟

تنهَّدتُ قليلاً، ثمَّ سألتها:

- هل ترغبين في العمل؟
- نعم أُسَيد!
- دعينا نبدأ بالخطوات الأولى وحين نصل إلى هذه النقطة سنتناقش.
- لا بل دعني أفهم ما يدور في خلدك، تبدو غير مرتاحٍ لهذه الفكرة!
- شيءٌ من هذا القبيل.
- وما الأسباب؟

- نحن اتَّفقنا بالفعل على تأجيل موضوع الأطفال لبضعة أشهر وإلى أن تنتهي من امتحان اللغة، لكنَّنا لن نؤجِّله أكثر، وحينها لا أعتقد أنَّه من الضروري أن تشغلي بالك بالعمل، ولا سيَّما أنَّ المردود المادي لعملي مقبول، أعلم أنَّه ليس كبقية المهندسين الذين يعملون في الشركات، لكن هذه هي ضريبة العمل الأكاديمي.
- أُسَيد أنت تعلم أنَّ المردود المادي ليس السبب الرئيس لفكرة العمل.
- أعلم، أقسم إنِّي أعلم، لكنِّي أسرد الأفكار، والدوافع الأساسية لها، وبرأيي ركِّزي الآن على إتقان اللغة الإنكليزية، وبعدها لكلِّ حادثٍ حديث.
- حسناً، والآن أخبرني هل نخرج؟ أشعر بالملل الشديد.
- أنا مرهقٌ جدَّاً يا زينة، أعدكِ أن نخرج في عطلة نهاية الأسبوع.

ابتسمتْ ولم تناقشني أكثر، بل قالت:

- أعلم فأنتَ تخرج يومياً من السادسة صباحاً ولا تعود إلا بعد السابعة مساءً. أسأل الله أن يمدَّك بالقوة والعافية.

أسندت رأسي على كتفها، فضمَّتني إليها، ولعلَّني حينها غفوت.

زينة سبتمبر 2015

كنت مرتبكةً طيلة النهار، بسبب جلسة المحكمة التي ستُعقد في اليوم التالي، وحين وصل أُسَيد وضعت له الطعام وأنا مدركة أنَّه غير صالحٍ للأكل، فكمية البهارات كانت خاطئة، لذا أصبح طعم الدجاج غريباً وكان لون الخضروات غير شهيٍّ بالمرَّة، لكن لم أستطع أن أصحِّح الخطأ وحين وصل أُسَيد بدا جائعاً ومتحمِّساً للطعام، فكتمت معرفتي بفشل الوجبة.

راقبت ملامحه، إذ كنت خائفةً من ردَّة فعله، لطالما سمعت عن غضب بعض الأزواج بسبب ملوحةٍ زائدةٍ في الطعام، وما شابه ذلك، وهذه المرَّة الأولى التي أضع فيها نفسي بموقفٍ كهذا وفي يومٍ حسَّاسٍ. أكل بضع لقيمات ومن ثمَّ أتمَّ السلطة والرز، وقال:

- الحمد لله، شكراً لكِ زينة، سلمت يداكِ، هل نصلِّي المغرب؟
- حسناً سأتوضأ وألحق بك.

رآني وقد عاد لي إشراقي، فابتسم، وحين انتهينا من الصلاة لم أستطع كتمان الموضوع أكثر، فسألته:

- لِمَ لم تعطني ملاحظات حول الطعام؟

- لأنّكِ واليوم بالذات لستِ بحاجةٍ إلى ملاحظاتي، ثمّ ما الضير أن يخطئ المرء، هل أنا في مطعمٍ لأوجِّه انتقاد!

ابتسمت له وأكملت صلاتي، أحبُّ الشخص الهادئ الذي لا يغضب، وأُسَيد رغم صرامته بالتعاليم والحدود، إلا أنّه وبتأسِّيه بالسنَّة يهبني ميِّزاتٍ لا حصر لها، فلا يغضب ولا يشتم، ولا يتقلَّب مزاجه ولا يفاجئني بردود أفعالٍ غير متوقَّعة، ولا يعيب طعاماً. بعدما فرغنا من الصلاة، جلس يدعو فتركته يكمل أذكاره، ورحت إلى غرفة المكتب لأدرس قليلاً، أمسكت الكتاب وبدأت بكتابة بعض الجمل والتعابير وترجمتها، حين فاجأني بقدومه إلى الغرفة، وسألني:

- هل سجَّلت اسمك للامتحان؟
- نعم، وتحدَّد الموعد آخر الشهر المقبل.
- على بركة الله، أتمنَّى لك التوفيق.
- قد أحتاج إلى مساعدتك للتدرب على الامتحان الشفهي.
- حسناً دعيني أضع جدولاً لذلك.

وجلس بجانبي ووضع لي جدولاً مكثَّفاً، نظرت إليه باستغرابٍ وقلت له:

- أتساءل كيف تتعامل مع طلابك؟

- لم أفهم سؤالك!
- أعني، هل أنت صارمٌ معهم؟ وهل تمتحنهم بأسئلة صعبة؟

ضحك وقال لي:

- نعم بالتأكيد أنا كذلك، هل ترغبين في الانسحاب من تمارين اللغة الشفهيَّة؟
- لا، أريد أن أرى كيف ستناقشني باللغة الإنكليزية، آمل ألا أخفق!
- سيكون كلُّ شيء على ما يرام، لا تقلقي، أنتِ ذكية ونبيهة، وستنجحين إن شاء الله.

ابتسمت وتفاءلت بكلامه، وعزمت أن أبذل قصارى جهدي.

أُسَيد سبتمبر 2015

ما إن انتهت جلسة المحكمة وأغلقوا الملف أخيراً، حتَّى أسرعت للتسجيل في المؤتمر المنعقد الأسبوع المقبل في واشنطن. لم يكن لدي متَّسعٌ من الوقت كي أتقدَّم لزينة بطلب الفيزا، وبذلك لن تستطيع السفر معي ولا سيَّما أنَّ امتحانها على الأبواب وعليها أن تحضِّر له، وعندما عدت إلى المنزل، كان عليَّ إخبارها بهذا الأمر الذي لا تعلم عنه شيئاً، رحَّبت بي ثمَّ حضنتني وهي تقول:

- مبارك البراءة، وانتهاء القضية، كان الأمر مزعجاً.
- الحمد لله أنَّ الأمر انتهى على خير. بالمناسبة زينة، علينا أن ننهي التمرينات الشفهية خلال الأيام المقبلة، فلدي مؤتمر الأسبوع القادم.
- هل ستسافر؟
- نعم، إلى أمريكا.
- هل تمزح؟ ستسافر إلى هناك وتتركني!
- تعلمين أنَّ الفيزا تحتاج إلى وقت، من الأفضل أن أذهب بنفسي، فلدي العديد من الأوراق البحثيَّة، وستُعقد محاضرات مهمَّة

أودُّ حضورها شخصيّاً وإنّها فرصة للحديث مع بعض الأساتذة الذين سيتواجدون هناك.

- حسناً، في أمان الله.

أكملت جملتها ودخلت مباشرة إلى الغرفة، فعلمت أنَّ أمر السفر أحزنها، لحقت بها، فوجدتها تبكي.

- زينة! هو أسبوعٌ واحد فقط، وأنتِ بالأساس منشغلة في الدراسة والتحضير لامتحانك، أخبريني، هل تخافين من فكرة المبيت وحدك؟ إن كان الأمر كذلك نجد حلّاً لا تقلقي!
- لا أخشى أن أبيت وحدي، لكنِّي لا أشعر بالارتياح، لا تنسَ أنَّ هذا المكان ما يزال غريباً بالنسبة إلي، وأنت الذي تجعله مألوفاً، لا أعلم كم سيكون البيت موحشاً حين لن تكون فيه!

أثَّرت كلماتها بي بشكلٍ كبيرٍ، فأنا بالفعل لم أنتبه إلى هذا الأمر، لا أعلم لِمَ أتعامل معها كما لو أنَّها معتادة على لندن، ومعتادة على الناس؟ وعلى كلِّ التفاصيل هنا، ونسيت أنِّي في سنتي الأولى هنا، كنت مرتبكاً، منقبض القلب في بعض الأحيان، ومشوش التفكير حول ما يعجبني وما لا يعجبني هنا، وحول ما أريده وما أرفضه. نظرت إليها بحنانٍ، ولم أستطع إجابتها، فكَّرت قليلاً ثمَّ قلت لها:

- حسناً، سألغي السفر، لا عليكِ، أستطيع أن أجد بديلاً لي.

مسحت دموعها وهي تحاول أن تكابر وقالت:

- لا أُسَيد، اذهب أرجوك، هذا عملك وكما قلت هو أسبوعٌ واحدٌ، ثمَّ أعتقد أنَّه عاجلاً أم آجلاً عليَّ أن أمرَّ بهذه التجربة، والمرَّة الأولى هي دوماً الأصعب، فدعني أتجاوزها ولا داعي لتأجيلها.
- هل تعنين فعلاً ما قلتِه للتوِّ؟

ابتسمت نصف ابتسامة، وقالت لي وهي تتصنَّع البهجة:

- نعم!
- حسناً، سنقرِّر غداً، دعينا الآن نخرج إلى مكانٍ ما، أودُّ أن أتنزَّه معك، منذ مدَّة لم نمشِ معاً.

- هل تمزحين زينة؟
- لا أمزح، أرجوك أُسَيد لا تستخفَّ بمشاعري!
- لا أستخفُّ بمشاعرك، لكنِّي متفاجئ!
- ولِمَ المفاجأة؟ هل من الغريب أن تغار الزوجة على زوجها؟
- لا، لكن هل من الطبيعي أن تغار من جميع نساء الأرض؟
- نعم، جميعهنَّ بلا استثناء!

ضحكتُ ثمَّ نظرتُ إليها عبر الشاشة فلاحظت أنَّ دموعها على وشك الانهار:

- لا أرجوكِ، لا تبكي!

نظرت حولي فوجدت حلّاً مؤقّتاً، سحبت المطاطة التي تربط الملصق البحثيَّ والذي عرضته صباحاً في المؤتمر، لففتها حول أصبعي كما لو أنَّه خاتم الزواج، وسألتها:

- والآن ما رأيك؟

لم تنظر إلى الشاشة ولم ترد، فقلت لها مجدَّداً:

- زينة، هلَّا نظرتِ إلى الشاشة.
- ما هذا؟ وهل تظنَّ أنَّ الأمر قد حُلَّ بالفعل؟
- هل آتي من واشنطن إلى لندن الآن؟
- لا تهزأ بي أرجوك، لستُ في مزاجٍ جيِّدٍ.
- إن كان الأمر سيرضيك سآتي بالفعل.
- تقول هذا الكلام لمسايرتي.
- وهل في ذلك خطأ؟
- أي أنَّك لا تعنيه.
- بلى أعنيه، متى كذبت عليك؟

صمتت، بعدها بدأت ملامحها بالانفراج مجدَّداً ثمَّ قالت لي:

- اشتقت إليكِ أُسَيد.
- وأنا أيضاً، لن أتأخَّر، خمسة أيامٍ وسأعود إن شاء الله.
- أشعر بوحشةٍ شديدةٍ.
- أعلم، أعدك في المرَّة القادمة سأصطحبك معي إن شاء الله.
- بأيِّ صفةٍ ستصطحبني؟ بصفتي بروفيسورة أم باحثة!
- بصفتك زوجتي!
- أُسَيد، أودُّ أن أسألك سؤالاً.
- تفضَّلي!

- هل أنتَ فخور بي؟
- تطرحين سؤالاً مفاجئاً بينما تفصلنا محيطاتٌ وبحور!
- لا تبالغ، هو محيطٌ واحد فقط، ثمَّ هل السؤال صعبٌ إلى هذه الدرجة؟
- لا ليس صعباً، أنا فخورٌ بك من كلِّ بدٍّ، أنتِ زوجتي ونصفي الثاني الذي يكمِّلني، وحبيبتي، كيف لي ألا أكون فخوراً وممتنَّاً وسعيداً بكِ؟! ثمَّ ألا تعلمين بأنَّك حبُّ أُسَيد الأوَّل والأخير؟!
- هل أنا حبُّك الأوَّل بالفعل؟
- نعم يا عزيزتي، لِمَ أنتِ متفاجئة؟
- هل أنت متأكِّد؟
- نعم بالطبع.
- كيف لشابٍّ يبلغ الثلاثين من عمره لم يقع في حبِّ فتاةٍ طيلة حياته؟
- من أخبرك أنَّ الجميع يقعون في الحبِّ في سنٍ مبكرة؟ هل تُسمَّى أي مشاعر خاصَّة نحو أي شخص من الجنس الآخر حبّاً؟
- ليس بالضرورة.
- بالضبط، فالإعجاب قد لا يرقى للحبِّ، وربَّما يكون هشَّاً أو مختزلاً ولا يهدف للارتباط!

- ممم، حسناً، وماذا عن الفتيات؟ أصدقني القول، ألم تشعر يوماً بإعجاب إحداهنَّ بك؟

ابتسمتُ ثمَّ قلت لها:

- لا يخلو الأمر.
- احكِ لي، لا أودُّ إنهاء المكالمة الآن أرجوك.
- وهل هذا هو الحديث الأنسب لنطيل كلامنا به؟
- نعم، أودُّ أن أعرف مغامراتك؟
- ليست مغامراتي، ما دخلي أنا؟

ضحكتْ فأجبتها:

- ليس الأمر كما تظنِّين، سأشرح لك، نعم، حدث قبل ارتباطي بكِ أن شعرت باهتمام بعض الفتيات، لكن لا يمكن وصف هذا الاهتمام بالمغامرة أو الحبِّ أو ما شابه ذلك، فجميعهنَّ أُعجِبن بشخصية أُسَيد التي رسمْنها في خيالهن، بينما كنت أبذل قصارى جهدي ألَّا أجعل أي فتاةٍ تتعلَّق بي، فبعض الفتيات حين يرين شابَّاً يغلب عليه طابع الاتِّزان والالتزام والعلم، يجعلنه فارساً لأحلامهنَّ، لكنهنَّ لا يعلمن أو لا يرغبن بأن

يدركن أنَّ هذا الفارس لديه من العيوب أضعاف مزاياه، ولا سيَّما أنَّهن لا يرين منِّي إلا جانباً واحداً.

- وما هي عيوبك أيها الفارس؟
- كثيرة.
- أعطني أمثلة.

فكّرت قليلاً ثمّ أجبتها:

- لست مرناً، وربما قليل الكلام، أقضي ساعات طويلة في العمل.
- إذن فأنت تعلم.
- بالطبع!
- ماذا عنّي، لم اعتقدت أنّ تلك العيوب لن تزعجني؟
- حينما ارتبطنا كنتِ على علمٍ بها، أليس كذلك؟
- وهل هذا يعني أن تبقي عليها؟
- ليس الأمر كذلك، هل تزعجك كثيراً؟
- لا أعلم، لكن أخبرني هل هذا السبب الذي جعلك لا تميل لإحداهنَّ؟
- ليس السبب الوحيد، فأنا لم أنوِ الارتباط في تلك الأيام، ولم أشأ أن أبعثر مشاعري هنا وهناك، حافظت عليها كلَّها لكِ، واليوم

أنتِ تحاسبينني على خاتمٍ نسيته فوق الخزانة! بالله عليكِ هل هذا عدل؟

ضحكت ومن ثمَّ غيّرت ملامحها بشكل مفاجئ كما لو أنّها محقق وسألتني:

- وماذا عن صاحبة الحرف جيم؟
- جيم؟
- نعم كما سمعت.
- من تقصدين؟
- أنا التي أسألك.

سألت نفسي سريعاً: أتقصد جود؟ شعرت زينة بارتباكي، ممَّا أكَّد لها ظنونها التي لا أعلم عنها شيئاً فتداركت الأمر، وأجبتها:

- من أين لكِ بهذه المعلومة؟
- أجبني أولاً، من هي صاحبة الحرف جيم؟

يا لها من ماكرة، استجمعت قواي وأجبتها:

- الفتاة متزوِّجة الآن، لا أريد الحديث عنها.
- وكيف عرفت بأنّها تزوجت؟ هل تتتبع أخبارها؟

- هل ترين بأنّي قد أتتبع أخبار النساء؟
- آسفة أُسَيد، لكن أخبرني أشعر بالضيق حقّاً وأودّ أن أعرف القصة.
- هي زوجة صديقي، لذا عرفت بأمر زواجهما، هل ارتحتِ الآن؟
- ليس بعد، أخبرني بالتفاصيل.
- لم يكن هناك أي تفاصيل، أعتقد أنَّها كانت تنظر لي نظرة خاصَّة أثناء السنوات الأولى للكلية، وحين أدركتُ مشاعرها نحوي، وبدأت أميل إلى مراقبتها، وأنتبه لحضورها وغيابها، شعرت حينها بالخطر، لذا تداركت الأمر.
- ولِمَ شعرت بالخطر؟ أهيَ غير مناسبة؟ أم ماذا؟
- كانت فتاةً مهذَّبةً وخلوقةً وملتزمةً، إلا أنَّها من المستحيل أن تتأقلم مع شخصيتي.
- ما الذي تعنيه بكلامك؟
- لها أفكارها وطريقتها الخاصَّة في التعبير عن ذاتها، وسأكون متحفِّظاً على كثيرٍ من تصرفاتها، فإن ارتبطت بها، سأبدأ بتغيير طباعها بما يتناسب مع عقليتي وتفكيري.
- وما المشكلة في ذلك؟ لم أفهم بعد!

- لم تكن مشاعري نحوها مشاعر حبٍّ لنبدأ بالتضحية والتغيير قبل ارتباطنا، لذا ليس من العدل أن أستغلَّ مشاعرها وإعجابها بي، كان علي أن أبتر الأمر منذ البداية.
- ما هو تعريف الحبّ بمنظورك؟ هلّا أخبرتني.
- هذا السؤال هو ذاته الذي سألته لنفسي في تلك الأيام، لذا جلبت كتاباً...

وتوقفت هنا عن الكلام، إذ أنّي أدركت مصدر معلومتها، فسألتها:

- أهو الكتاب الذي استعرتيه من مكتبتي؟

ابتسمت ابتسامة صفراء وأجابتني وقد فقدت حماستها تماماً:

- نعم "نزهة المشتاقين وروضة المحبِّين"، كانت تعليقاتك واضحة بأنَّك تبحث عن إجابةٍ ما، ومن بين تلك التعليقات، وجدت الحرف J وحوله إشارات استفهام.
- صحيح كنت أريد أن أفهم هل ترقى مشاعري لما يسمَّى حبّاً أم لا.
- وما كان الجواب؟
- ماذا كان برأيك؟
- لا أعلم، أتحفني به.

- كان "لا"، لم أكن لها أي مشاعر حبٍّ، هل ارتحتِ الآن؟
- ما اسمها أُسَيد؟
- لن أجيب، فلننهي الحديث عند هذا الحدّ.

صمتت ولم تجب، فقلت لها:

- زينة، لا تشغلي بالك بتلك الأمور، لم أعرف مشاعر الحب إلا معك أنتِ فقط.

لم ترد، ولم يعجبها الكلام، فسألتها:

- أتغارين حقّاً؟

أجابت بنبرةٍ حادَّةٍ:

- طبعاً أغار.
- لكنَّك تهدرين طاقتك في شيءٍ لا يستحق.
- بل يستحق.
- لم أرتبط حتَّى بالفتاة، ماذا كنتِ ستفعلين لو ارتبط بها؟
- سيجنُّ جنوني.
- أتمزحين؟
- لا إطلاقاً.

- لكنّك كنتِ مرتبطة وأنا لم أسألك حول الأمر، واثق أنا بك، ولا أشعر بالغيرة من ماضٍ صافٍ ونظيف.
- على فكرة، تُزعجني ردَّة فعلك تلك، حتى أنّك لم تسألني عن سبب انفصالنا، وهذا يدلُّ على عدم اهتمامك بي أو غيرتك علي.
- ليتني أعرف كيف تحلِّلين الأمور؟ أهذا جزائي؟

شعرت بالامتعاض من طريقتها، ابتسمتُ وأنهيت الحديث عند هذا القدر، لكنِّي كتبت لها بعد قليل:

- سألتيني عن الحبّ فدعيني أجيبك، الحبّ يا سيدتي، بسمة ترتسم على شفتيّ رغماً عنّي حين أراكِ، رعشة تعتري قلبي حين أسمع صوتك، وسكينة تغمر روحي حين أفكر بك. تفنن العرب في تعريفه وتفصيله، وله من الأسماء والمصطلحات والدرجات ما له، أمّا أنا فلا يهمّني أن أحيط بتعريفه النظريّ، ولا تعنيني درجاته، ولا يشغلني ما قيل وما كتب وما وصف، فأنا موقنٌ بأنّي أحبّك، أحبّك أنتِ فقط، وليكن تعريفي للحبّ: بأنه كلّ لحظة جميلة أعيشها معك، وكلّ إحساسٍ رقيق أشعره تجاهك، وكلّ عطاء نتبادله. والآن أخبريني، ما هو تعريفك للحبّ؟ فإن من فتح الأبواب يغلقها، وإن من أشعل النيران يطفيها.

رأيت أنّها قرأت الرسالة، فكتبتْ بعد دقائق:

- الحبّ يا سيدي، هو غيرتي عليك، وخوفي أن يصيبك مكروه، هو قلقي عليك حين تقع في مشكلة، وحزني حين تسافر، هو ألمي حين لا تكون بجانبي، وافتقادي لكلّ تفاصيلك وأنت بعيد عن عينيّ، ومجدداً هو غيرتي عليك، هل تفهمني أُسَيد؟ أنا أغار فوق الغيم أكتبها، وللعصافير والأشجار أحكيها.

أُسَيد فبراير 2016

كنت في المكتب أتمّ بعض أعمالي، فوصلتني رسالةٌ عبر البريد الإلكترونيِّ من معهد اللغة الإنكليزية. استغربت لِمَ يرسلون المعلومات إلي، من المفروض أنَّ زينة قد عدَّلت البيانات لديهم وأدرجت بريدها الخاص لتصل إليها الأخبار مباشرة، قرأته وإذ به نتيجة امتحان زينة. لم أكن أشك بنجاحها، فهي ذكيَّة وقد عملت بجدٍّ، لكنَّها كانت متخوِّفةً ولم تخبرني عن أي تفاصيل. أسعدني جدَّاً إنجازها ذاك، فاتَّصلت بها:

- مبارك، ما هذا النجاح الرائع؟
- أهو امتحان اللغة الإنكليزية؟
- نعم، ناجحة بتقدير جيد جداً.
- الحمد لله!
- ألا نحتفل؟
- بالتأكيد!
- سأنتظرك في الساعة السابعة في المكتب، تعالي إلى الكلية، وسننطلق معاً.

وبالفعل أنهيت أعمالي ومحاضراتي، وحين وصلت زينة، دخلت إلى المكتب مع خروج آخر طالبة، بعد يومٍ مليءٍ بالمناقشات الطويلة مع الطلاب.

- أهلاً بكِ زينة!

لم ترد، نظرت إليها وأنا أفكِّر لماذا هي غاضبة بهذا الشكل، ثمَّ سألتها:

- ما بكِ؟
- من هذه الفتاة التي كانت في مكتبك حتَّى هذه الساعة المتأخِّرة؟
- الساعة المتأخِّرة!
- نعم، الساعة متأخِّرة، أليس اسمها الساعة السابعة مساءً؟ نعم متأخِّرة.

لم يكن لدي طاقة لمجادلتها، فقطبت حاجبيَّ، وسألتها:

- ماذا تريدين الآن؟
- لا شيء، دعنا نعود إلى المنزل.
- زينة!
- أخبرتك مسبقاً، أنا أغار!

- لكنَّ غيرتك هذه غير مفهومة، أنتِ تعلمين أنِّي أتعامل مع الطلاب والطالبات بكثرةٍ.
- لم لا تضع لهنَّ حدوداً؟
- عن أي حدودٍ تتحدَّثين؟ لا أستطيع فهم هذا المنطق! لا تتصرَّفي بهذه الطريقة، أنتِ تزعجينني زينة.

أغلقتُ جهازي في تلك اللحظة، ونهضت من مكاني، ورحت ألتقط أشيائي ومفاتيحي، ومن ثمَّ أغلقت النور وكنت على وشك الخروج من المكتب، لكنَّ زينة لم تتحرَّك بل بقيت في مكانها في منتصف المكتب، فقلت لها:

- هل ستبيتين هنا؟

نظرت إليَّ بغضب، وخرجت من المكتب ومضت بسرعةٍ، أقفلت باب مكتبي ومضيت خلفها، وأنا مستغرب من هذه التصرُّفات!

عندما خرجتُ من بوابة الكلية لم أجدها في أي مكان، اتَّصلت بها، ومن حسن الحظّ أنَّها ردَّت، فسألتها:

- زينة! أين أنتِ؟

سألتها بنبرةٍ هادئةٍ كي لا أزيد توترها، لم تجبني، فقلت لها:

- زينة، أنتظرك أمام البوابة، تعالي أرجوكِ!

سمعت صوت نحيبها، لكنَّها لم تجبني، فقلت لها:

- سأنتظرك، هيَّا تعالي.

وكما هو متوقَّع، أتت بعد عشرة دقائق، أعلم أنَّ زينة لا تعاند، حتَّى ولو غضبت، فهي تلين حين ألين، وعندما وصلتْ لم أفزعها، بل ابتسمتُ لها، رغم عدم امتناني لما فعلت للتوِّ. أمسكتُ يدها وانطلقنا مشياً على الأقدام، فأنا لم أشترِ سيارة بعد، رغم حصولي على شهادة القيادة، إذ لم أجد لها ضرورة في الوقت الراهن.

مشينا قرابة الساعة دون أن نتحدَّث، ومن ثمَّ وصلنا إلى المطعم الذي يقدِّم وجبات عربية، وحين جلسنا، قال لي زينة:

- آسفة أُسَيد! لم أشأ أن أفسد المشوار.
- لا عليكِ، لكن أرجوك، لا تفكِّري بهذه الطريقة.
- ليتني أستطيع أُسَيد، يزعجني الأمر كثيراً.
- لا يراني الجميع بنفس العين التي ترينني أنتِ بها، تذكَّري هذا جيِّداً.

ابتسمتْ، فعلمتُ أنَّ غضبها وتوترها قد زالا بالفعل، أمسكتُ بقائمة الطعام وسألتها:

- هل نأكل "الكباب"؟
- نعم.
- بالمناسبة أفكِّر في شراء سيارة قريباً.
- لِمَ الآن بالذات؟
- ألا ترين أنَّه من الأسهل وجود السيارة مع الأطفال.

ضحكت وحاولت كتم ضحكتها قدر الإمكان ثمَّ قالت لي:

- كما لو أنَّهم يحومون حولنا.

خفق قلبي بشدَّةٍ وأنا أتخيَّلهم يحومون حولنا بالفعل، فقلت لها وأنا أبتسم:

- أحسنتِ زينة، اجتزتِ الامتحان، ولا داعي لتأجيل الأطفال أكثر من ذلك.

زينة يوليو 2016

- ألو، أهلاً منى، نعم وصلنا منذ يومين، أودُّ رؤيتك اشتقت إليك كثيراً، يوم الغد؟ لا أستطيع لديَّ موعد مع أقارب أُسَيد، وبعد الغد أيضاً، اليوم؟ نعم أستطيع، أين نلتقي؟ لا لستُ في منزل أهلي الآن، أنا مع أُسَيد في منزل أهله، نعم أبيت هنا بالطبع، دعينا الآن من هذا الحديث، حسناً انتظري قليلاً.

وانطلقت إلى غرفة الجلوس، وسألت أُسَيد:

- أودُّ أن أجتمع مع صديقتي منى في منزل أهلي، سأذهب بعد الظهر إلى هناك، هل توصلني إلى هناك؟
- إن شاء الله.

وبالفعل، اصطحبني أُسَيد إلى منزل أهلي، وحين وصلت فرحت والدتي بقدومي، واستقبلتني بحفاوةٍ:

- أهلاً يا حبيبتي، اشتقت إليكِ، هل ستبيتين عندنا اليوم؟
- لا أعتقد، كما أخبرتك ستأتي منى بعد قليل.
- أهلاً بك وبكلِّ أصدقائك يا مهجة قلبي، لكن أرجوك ابقي معنا اليوم، لم أركِ منذ أتيت إلا ساعات، سأحدِّث أُسَيد بالأمر.

- الأمر ليس متعلِّقاً بأُسَيد، أعدك أنِّي سأبيت عندكم.
- عندنا؟ هذا منزلك يا ابنتي.
- أعلم، حسناً سأعلم أُسَيد أنِّي سأبيت هنا، يا أحلى ماما.

وبينما كنَّا نتحدَّث رنَّ جرس الباب.

- إنَّها منى، سأفتح الباب.

كانت سعادتي بلقاء صديقتي منى لا توصف، لكن تلك السعادة لم تدم طويلاً! كانت لهجتها معي غريبة، فبعد تبادل أحاديث عامَّة، قالت لي مني فجأة:

- أودُّ أن أقول لكِ شيئاً يا زينة، وأرجو ألا تتضايقي منِّي، أنا صديقتك وما سأقوله لأجل مصلحتك أنت.

قلقت حيال كلامها ذاك، فأجابتها وأنا أهزُّ لها برأسي:

- تفضَّلي منى!
- لقد تغيَّرتِ يا زينة، أراكِ وقد انصهرت بشكلٍ كاملٍ بشخصية زوجك، لم تعودي كما كنتِ قبل الزواج!

ضحكت ممَّا تقوله، ثمَّ قلت لها:

- ما بكِ يا منى، لمَ تبالغين إلى هذه الدرجة؟ ليس الأمر كما تصورينه!
- بلى وأكثر، منذ الخطبة وأنت تتبعيه في كلِّ شيء، "وافق أُسَيد"، "لم يوافق أُسَيد"، "هكذا يريد أُسَيد"، "هكذا قرَّر أُسَيد"، ثمَّ لا أفهم هل تقضين أيَّامك في لندن حبيسةً في البيت؟
- لِمَ تقولين هذا؟ أنا لست حبيسةً في البيت طبعاً.
- مضت سنة على زواجك، توقَّعنا أن نسمعك تحكي لنا عن الحياة في إنجلترا، توقَّعنا أن تجمعي خبرةً لا بأس بها في مجالاتٍ عديدة، لكن كلَّما سألتك عن شيء، تقولين "لا أعلم"، و"لم أزر هذا المكان"، و"لا أدري"!
- منى أرجوك، كفِّي عن هذا الكلام، كلُّ ما في الأمر أنَّ الأمور هناك معقَّدة وتحتاج إلى وقتٍ وصبر، ثمَّ أنَّني قضيت السنة الماضية بين دراسة وامتحانات للغة الإنكليزية!
- أنهيتِ دورة اللغة الانكليزية منذ الشتاء، وحصلتِ على الشهادة في بداية السنة، والآن نحن في منتصف السنة، أين تذهب أيامك؟ أنتِ لستِ الفتاة التي تجلس في المنزل من غير حراك، لا تعجبيني وأنت على هذه الحال، ثمَّ لماذا لا تخرجين في نزهاتٍ كما

اعتدتِ؟ أخبريني ما مشكلة زوجك بالضبط؟ لا تجعليه يعتاد هذا الطبع!

- منى ماذا تقصدين؟ أُسَيد من أكثر الناس كرماً، كلُّ ما في الأمر أنَّه لا يحبُّ الجلوس في الأماكن العامَّة كثيراً.

- لماذا؟ لا أفهم! وما مشكلة الأماكن العامَّة؟

- الأمر ليس كما لو أنَّنا في بلدٍ إسلامي، أُسَيد لا يدخل مطعماً يقدم فيه المشروب على سبيل المثال، ولا يحبُّ الأماكن المزدحمة والتي يكون فيها الاختلاط مزعجاً إلى حدٍّ كبيرٍ، ولا سيَّما في الصيف حين تشتد الحرارة، ناهيك عن كونه منشغلاً بأبحاثه وعمله طيلة الوقت.

- بالمناسبة هذه ليست الطريقة المثلى للتعامل مع الزوج، هل تعلمين أنَّ الرجل يمل من هذا النوع من العلاقات؟!

- أعلم أنِّي أوافقه ولا أجادله، وأنفِّذ طلباته من غير نقاش، لكن حقيقةً أنا لا أرغب بأي خلافٍ بيني وبينه، لا أرغب بأن يعلو صوت أحدنا على الآخر، أكره اللوم والجدال، أرغب في العيش معه بسلامٍ ووفاقٍ تامَّين، ثمّ إنَّ أغلب أراء أُسَيد صائبة، لذا لِمَ الاختلاف معه إن كان الأمر كذلك! منى افهميني، أنا مرتاحة، لا أرغب بأن أكون الفتاة التي تعاند لتثبت أنَّ شخصيتها قويَّة

ومستقلَّة، جميعكم تلومونني لضياع معالم شخصيَّتي ولكنِّي أرى عكس ذلك، لربَّما كان أُسَيد من الأساس هو الشخص الذي أطمح أن أصبح مثله، فلِمَ لا أنصهر به؟ بالمناسبة لستُ الوحيدة التي أرى في أُسَيد مثلها الأعلى، فكثيرون غيري معجبون به وبعقليته الفذَّة وبأفكاره المتجدِّدة، أليس من الأولى بي -أنا زوجته- تبنِّي أراءه؟

- كلامك غريب ولا أفهم منطقك، لم أرَ في حياتي امرأةً تمدح زوجها طيلة الوقت، عليك أن تتذكَّري شيئاً مهماً، لا وجود للملائكة في عالم البشر!

واستمرَّ الحديث طويلاً، حديثٌ مزعجٌ أرهق روحي كما لو أنِّي في محكمةٍ أدافع فيها عن نفسي وعن أُسَيد، لا أعلم لِمَ يضعونني في قفص الاتهام كما لو أنِّي زوجة بائسة! من أخبرهم بذلك؟ ليتني أعلم!

توقَّعت أن تكون الإجازة متنفَّساً وفرصةً لشحن طاقتي في الوطن بين أهلي وأصدقائي، إلا أنَّ آمالي خابت. يعلِّق الجميع ويسأل عن تفاصيل لا تعنيهم، ناهيك عن السؤال الذي صمَّ آذاني: "متى سنرى على حجرك طفلاً؟"

ما أدراني أنا؟!

زينة يوليو 2016

- شِواء، لا يحبُّ أُسَيد هذا النوع من النزهات، دعينا نبحث عن اقتراح آخر أرجوكِ يا أمِّي!
- وما الضير؟ في كلِّ مرَّة كنَّا نخرج فيها خلال العام الفائت، كنت أذكركِ، وأشعر بغَّصةٍ لأنَّك لستِ معنا، لطالما كنتِ تحبِّين النزهات وحفلات الشواء، ستخرجين معنا، لن أقبل بغير ذلك زينة.
- أمِّي أرجوك، أنا أعلم تماماً أنَّ أُسَيد لن يستمتع في هذه النزهة.
- وهل من المفترض أنَّ كلَّ الأمور التي تسعد أحد الزوجين أن تسعد الآخر؟ في المقابل، هل كلُّ النزهات التي يصطحبك معه إليها تستهويك؟ بالطبع لا، لكنَّك تذهبين، أليس كذلك؟
- لا أعلم.
- لا تقولي "لا أعلم"، سنذهب وستذهبين معنا، وإن شاء زوجك أن يأتي فأهلاً وسهلاً، أختك وزوجها والأطفال سيذهبون أيضاً، ستكون الأجواء ممتعةً.

- وما الممتع في الأمر؟ سنجلس على قارعة الطريق، ونمتلئ بالفحم ونختنق من رائحة الدخان، ومن ثمَّ نأكل طعاماً محروقاً من الخارج ومليئاً بالدماء من الداخل، لا أريد الذهاب يا أمِّي.
- أقسم بالله لم أعد أعرفك! هل أنتِ زينة أم استُبدلتِ؟
- أمِّي، لِمَ تقولين هذا الكلام؟
- لأنَّك تتفوَّهين بكلامٍ لا أفهمه، على أي حال أنتِ حرَّة، وإن لم تذهبي فسألغي الفكرة بأكملها.
- من الأفضل ذلك يا والدتي، ولنذهب إلى مطعمٍ أو مكانٍ آخر تختارينه، أرجوك.
- حسناً سنتحدَّث في الأمر لاحقاً، لم يعد لديَّ مزاج للنقاش أكثر.
- ما بكِ يا أمي؟ لماذا تشعرينني بأنِّي على خطأ دوماً، منذ أتيت وأنتِ مستاءة من تصرُّفاتي وكلامي، لا أفهم، هل من العيب أن تكون الزوجة مطيعةً لزوجها؟! ألم تربيني أنتِ على حسن الخلق والمعشر؟!
- نعم ربَّيتك على ذلك، لكن لم أتوقَّع أن يستغلَّ أُسَيد كلَّ طيبتك ويجعلك تابعةً له بكلِّ معنى الكلمة، لقد تلاشت شخصيتك، أين هي زينة؟ لا أرى منها سوى ملامحها. أين زينة التي تحبُّ

المغامرات؟ وتعشق السهر، وتملأ الدنيا بضحكتها، وتسمعنا أغانيها المفضَّلة طيلة الوقت؟! أين زينة التي تحادث صديقاتها بسببٍ وبلا سبب؟! حتَّى منى لم تقابليها سوى مرة واحدة؟ ما بكِ؟ لا ترين سوى أُسَيد ولا تسمعين سوى أوامره؟ يا ابنتي، ما هكذا تورد الأبل.

تنهَّدتُ ولم أرد، فلا طاقة لي للكلام ولا رغبة لديَّ بجدال والدتي. نظرت إليها بحزنٍ فضمَّتني إليها وهي تقول:

- رضي الله عنكِ يا ابنتي، على أي حال، إن كنتِ سعيدة فافعلي ما شئتِ، هو زوجك وهذه حياتكما، لست ضد أُسَيد، أسأل الله أن يسعدكما ويوفقكما لما يحبُّ ويرضى ويرزقكما الودَّ والطمأنينة والسكينة دائماً وأبداً.
- أنت تعلمين كم أنَّ أُسَيد خلوقٌ وطيبٌ.
- أعلم يا ابنتي.
- صدقيني يا أمِّي أنا سعيدةٌ معه على هذا النحو، كلانا مطمئنٌ للآخر ونعيش بودٍ وسلام.
- حسناً، فلننسَ الأمر الآن.

وضعتُ الحزام ورحت أنظر من خلال نافذة الطائرة، وقلت لها:

- لقد كانت الإجازة جيِّدة، أرجو أنَّك استمتعت بها.

لم تجبني زينة فنظرت نحوها.

- أتبكين؟

أجابتني وهي تغالب دموعها:

- سأشتاق إلى أهلي.
- لا عليكِ سنعود مجدَّداً في إجازة الشتاء.
- إن شاء الله.

صمتت قليلاً ثمَّ سألتني:

- بالمناسبة إلى متى سنبقى في بلاد الغربة؟
- الله أعلم.
- أعني ما رأيك حول الموضوع؟
- في الحقيقة، لا أستطيع التنبؤ، فالأمور تختلف حسب الظروف.

أقلعت الطائرة، وبقينا صامتين لأكثر من ساعة، وكي أكسر حالة الصمت، استأنفتُ الحديث مجدَّداً حول السفر والغربة:

- هل تعلمين يا زينة أنِّي كنت ضد السفر في الأساس؟
- كيف ذلك؟
- عندما كنت طالباً على مشارف التخرُّج، وكما أخبرتك كان الدكتور قيصر يدفعني للبحث عن بعثاتٍ للدراسة في أوروبا، كنت أتساءل: هل أريد بالفعل إتمام دراستي خارج البلاد؟ وهل أستطيع تحمُّل الغربة؟ هل أستطيع العيش بلا مسجدٍ بقربي أقيم فيه صلواتي الخمس؟! هل أستطيع تقبُّل الانفتاح في العالم الغربيِّ؟ هل بإمكاني المحافظة على تلك الشعرة بين الاندماج والانصهار؟ هل من الأفضل أن أبقى في بلدي بين أهلي وأصدقائي بالقرب من مسجدي وحلقاتي الدينيَّة؟! بعدها بدأت سلسلةٌ من الأسئلة الجديدة تلوح في الأفق: ماذا إن طابت لي هذه البلاد ولم أرغب بالعودة إلى بلادي؟! ماذا عن أطفالي وأطفالهم؟! حتَّى وإن حافظت على جيلٍ أو جيلين على الأكثر لا بدَّ أنَّ الجيل الثالث أو الرابع سيذوب في النهاية. هل سأحمل ذنبهم إلى يوم الدين؟!
- ثمَّ كيف استطعت اختيار السفر؟

تنهَّدتُ قليلاً ثمَّ أجبتها:

- تعلمين، جُبل الإنسان على حبِّ الخير لنفسه والتطلُّع دوماً إلى الأفضل، لذا قرَّرت أن أسافر، نعم سافرت باحثاً عن مستقبلٍ لي، أقصد بلداً يقدِّر علمي ويحتضن أفكاري، بلداً يجدني مشروع استثمارٍ له ويستطيع الاستفادة من قدراتي ويعطيني في الوقت ذاته حقوقي لأحيا كإنسان، وحين قرَّرت ذلك كنت صادقاً مع نفسي، لم أقل إنِّي مهاجرٌ في سبيل الله، ولم أشبِّه سفري بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنِّي أعلم علم اليقين أنِّي أبحث عن مستقبلٍ جيِّدٍ لي ولعائلتي ولأطفالي، نعم خطَّطت للمجيء إلى أوروبا والحصول على جنسيةٍ أوروبية، وخطَّطت للدراسة بأرقى الجامعات لأرفع من مستواي التعليمي، وليكون لي اسمٌ في المجال الأكاديمي، وبالطبع أنوي خير الدنيا والآخرة، بأن يؤتيني الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، لكن في نهاية المطاف سيصبُّ كل ذلك في مصلحتي أنا، ديناً ودنيا، لذا سأجيبك الآن عن سؤالك السابق: بأنَّ الظروف هي التي ستحكم أين سنبقى، وإلى متى، ليست هناك قاعدة محدَّدة، سنسعى في مناكبها، ونبتغي مرضاة الله أوَّلاً وآخراً.

كنت أتحدَّث ببطءٍ وهدوء بينما بقيت زينة تتأمَّلني وتسمعني بتمعُّنٍ، فرأيتها وقد هدأت مشاعرها فاطمأنَّ قلبي، ثمَّ عدنا إلى الصمت مجدَّداً، فنحن متعبان من زخم الأحداث والوجوه التي رأيناها خلال الأسبوعين الماضيين مقارنةً مع حياتنا الرتيبة في لندن. وقبل أن تهبط الطائرة، فتحت جهازي اللوحي وكتبت:

جلّنا مهووسٌ بجني عددٍ أكبر من صفات التفضيل الإيجابية على وزن (أفعل)، فترانا نطمح دوماً بأن نكون الأحسن، وننجز الأفضل، ونحوز على الأكثر. Osaid

الفصل الثالث

زينة يناير 2017

- أُسَيد؟ أهذا أنت؟

لم يرد، فتوجَّهت نحو الباب ورأيته إلا أنَّه ظلَّ صامتاً ورمقني بنظرةٍ طويلةٍ ثمَّ دخل إلى غرفة النوم، وبعد عشر دقائق طرقت الباب وقلت له:

- أُسَيد؟ حضَّرت الطعام، دعنا نتناول طعام الغداء معاً، إنَّها المرَّة الأولى التي تأتي بها مبكراً من العمل.

لم يرد، فأردفت:

- أرجوك، لا أريد أن آكل وحيدةً وأنت هنا بالفعل.

انتظرت لكنَّه لم يجب، حاولت فتح الباب فوجدته مقفلاً، فتركته وقلبي مضطَّرب ورحت أتساءل: أهو بحثٌ لم يُقبل؟ أم لعلَّها مشكلة مع البروفيسور؟ ما الذي يجري بالضبط؟!

انتظرته طويلاً، بعدها فتح الباب عندما حان وقت صلاة العصر، فصلَّى ولم ينادِ علي ليؤمّني في صلاته، ومضى اليوم بأكمله ولم تصدر منه أيُّ كلمة.

في اليوم التالي، انطلق إلى عمله صباحاً وعاد متأخِّراً بعد الساعة التاسعة مساءً، وظلَّ صامتاً لا يتكلَّم، إلا أنَّني لم أعد أتحمَّل الوساوس التي تراودني حول حالته، فسألته قبل أن يذهب للنوم:

- أُسَيد إلى متى تنوي البقاء صامتاً؟ ماذا حدث؟ هل لديك مشكلة في العمل؟ هل أزعجتك في شيء؟ أخبرني ما بك؟

رمقني بنظرةٍ طويلةٍ ثمَّ أجابني:

- لم يزعجني أحد، ارتاحي ودعيني وشأني رجاءً، أرغب في البقاء وحدي.

يا إلهي! ماذا به؟ منذ أن تزوَّجنا -قبل سنة ونصف- لم أسمعه يتحدَّث معي بهذه الطريقة وتلك اللهجة القاسية، ما الذي دهاه؟

تركته ولجأت إلى منشوراته علِّي أفهم ما يدور في خلده، فرأيت أنَّه لم يكن نشطاً في الأيام السابقة، الأمر الذي زاد قلقي.

زينة يناير 2017

وصل إلى المنزل نحو الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، لم أكن لأصدِّق يوماً أن تصدر من أُسَيد تصرفاتٌ كتلك، لم أجد تفسيراً أو مبرِّراً ألتمسه له، خرجت من غرفة النوم فرآني غاضبةً أشدَّ الغضب وقبل أن أبدأ بالكلام نظر إليَّ مقطباً حاجبيه وقال:

- لا تزعجيني بأسئلتك، أرجوك!

فأجبته بغضبٍ شديدٍ:

- اطمئن، لن أسألك شيئاً، لكن ألا ترى مدى سذاجة التمثيلية التي تؤدِّيها؟ قلها، قل إنَّك نادمٌ على ارتباطك بفتاةٍ ليست من مستواك الفكري، قل إنَّك لا ترغب باستمرار زواجنا، وأخبرني أنِّي أقل منك في كلِّ شيء، قل ما تريد قوله من غير أن تتلاعب بمشاعري وتظلمني بهذه الطريقة البشعة، أخبرني، هل هذا تصرُّفٌ يصدر من رجلٍ يتَّقي الله؟ منذ أكثر من أسبوعٍ وأنت لا تحدِّثني، لا ترد على اتِّصالاتي، لا تخبرني بما يجول في خاطرك، تقطِّب حاجبيك وتجلس صامتاً، تاركاً إيَّاي في أفكاري وأوهامي لا أفهم شيئاً ممَّا يدور من حولي!

توقَّعت أن يغضب لكنَّه لم يفعل، نظر إليَّ ثمَّ ضمَّني إلى صدره وأجهش بالبكاء. ضممته إليَّ ورحت أبكي معه، أبكي وأنا لا أعلم ما الذي يحزنه، أنا لم أره على هذه الحال في حياتي. حين هدأ صوت نحيبه، أحكمت ضمَّه إليَّ، وقلت له وأنا أتوسَّل إليه:

- قل لي أرجوك، ما بكَ أُسَيد؟

تنهَّد بألمٍ، ومن ثمَّ قال:

- زينة، أنا عقيم!

لم أصدِّق ما سمعته أذناي، دفعته لأرى وجهه الذي غرسه في كتفي ونظرت إلى ملامحه. بالكاد ابتلعت ريقي وسألته وصوتي يرتجف:

- ماذا قلت للتو؟

نظر إليَّ بعينين حزينتين، وأجابني وهو يحاول أن يتماسك:

- كما سمعتِ زينة، لن أكرِّر كلامي.

شعرت أنَّ الدنيا تدور من حولي، توقَّفت دموعي وتجمَّدت ملامحي.

ما الكلام الذي يقال في موقفٍ كهذا؟!

اقتربت منه بهدوء، وضعت رأسي على صدره وأمسكت بيديه وضممتهما إلى صدري ورحت أردِّد في سرِّي: "لا حول ولا قوَّة إلا بالله" عشرات المرَّات، لكن ما إن مرَّت دقائق حتَّى انتفضتُ من مكاني وقلت له:

- أُسَيد، لقد تطوَّر العلم، هناك ألف حلٍّ لتلك المشكلات، علينا أن نسأل ونستشير، لم أعهدك هكذا تستعجل الأمور ولا تتروَّى!

نظر إليَّ ولم يجبني، فلم ألح عليه أكثر، ثمَّ قال:

- سنتحدَّث صباحاً، تصبحين على خير.

وذهب إلى النوم، بينما بقيت أنا في صدمتي لا أعلم ماذا عليَّ فعله.

هل أواسيه أم أواسي نفسي؟! زوجي وحبيبي الذي لطالما حلمت أن يصبح أباً لأطفالي، عقيم!

أُسَيد يناير 2017

خلال الشهر الماضي، وبعد أن أتمَّت زينة فحوصاتها عند الطبيبة النسائية وأكَّدت لها الطبيبة أنَّ كلَّ شيء على ما يرام وأنَّها مستعدَّة للحمل، تلقَّيت اتِّصالاً في اليوم الذي يليه من العيادة، هناك حيث أجرت زينة فحوصاتها، كانت طبيبتها هي المتَّصلة، في البداية شعرت بالقلق على زينة وراودني الشكُّ بأنَّ الطبيبة تخفي أمراً عنَّا، ولكنَّها أكَّدت لي بأنَّ زينة مستعدَّة تماماً للإنجاب، ثمَّ وبلباقةٍ عاليةٍ لَمَّحت لي عن الفحوصات التي تخصُّ الرجال، أخبرتني أنَّها تتفهَّم طبيعة مجتمعنا لأنَّها من بيئةٍ مشابهةٍ لبيئتنا، فهي من أصولٍ باكستانية، ولهذا لم تشأ فتح هذا الموضوع معي بوجود زينة، وأنَّ خلفيَّتي العلمية هي ما شجَّعتها على الاتِّصال بي فرأت ألا بأس من الحديث حول الموضوع بطريقةٍ مهنيةٍ وعلميةٍ.

لم يزعجني كلامها بالفعل، فهي محقَّة، وقلت في نفسي: كثيرون هم الأزواج الذين لا ينجبون بسرعة من غير سببٍ محددٍ، وتكون حالة الزوج جيِّدة، وكذلك الزوجة. وبالفعل حصلت على موعدٍ عند الطبيب لإجراء الفحوصات اللازمة، لم يساورني الشك للحظة، ولم

أشعر بأي قلقٍ حيال النتيجة، كنت أنتظر نتيجة التحاليل بالجواب المعتاد: "تحاليلك جيِّدة، وليس عليكما سوى الانتظار".

لكن حين أتت النتيجة واضحةً وصريحةً، شعرت بالهزيمة المطلقة، صدمة لا يمكنني وصفها. انهار كلُّ شيء أمامي، ولم أكن جاهزاً لمواجهة خبرٍ كهذا. بقيت في صدمتي أسبوعاً كاملاً، لا يغمض لي جفن، ولا يهدأ لي بال، وأنا أتنقَّل بين حالتي الإنكار والتصديق. كنت في عالمٍ آخر، لم أفكِّر أساساً بما تراه منِّي زينة، وحين بدأت زينة بتكرار أسئلتها لي، أدركت الأمر ورحت أسأل نفسي:

هل أخبرها أم لا؟ كيف سأقول لها أنا عقيمٌ وعاجزٌ لا أنجب؟! هل ستتَّخذ موقفاً ضدي؟ كيف ستنظر إليَّ؟ هل سترمقني بنظرة شفقة؟ أم بنظرة حزنٍ؟ أم بنظرة ألمٍ؟ أم ماذا بالضبط؟

كلُّ تلك الحالات لا أرغبها، ولا أحتملها بالأساس.

ماذا لو كانت ردَّة فعلها غريبة وغير متوقَّعة؟

ماذا لو أبدت استياءها من حظِّها العاثر معي؟

ماذا لو بدأت بالندب والنحيب وتطايرت منها كلمات تدلُّ على الندم من هذا الارتباط؟

فكرت طويلاً وقلبي مغمور بالقلق والخوف. أعلم أنَّ مشاعرها نحوي قويةٌ ومتينةٌ، لكنِّي لست متأكِّداً من ردَّة فعلها. في البداية قرَّرت إخفاء الموضوع عنها وإعادة الفحوصات والتحاليل، لعلَّ هناك خطأ ما، لكن صمتي وتصرُّفاتي المريبة أثارت شكوكاً وأسئلةً لدى زينة لم أكن لأنجو منها بسهولةٍ.

وفي ذلك اليوم، وقبل عودتي متأخِّراً إلى المنزل كنت أفكِّر في مكتبي وأبحث عن طريقةٍ لإخبارها بالأمر دون أن أخسر كبريائي، ودون أن أتلقَّى منها أي كلمةٍ أو ردَّة فعلٍ تؤذيني. عزمت أن أكون واثقاً من نفسي، وأن أتظاهر بالثقة حتَّى لو لم تكن موجودة. نظرت إلى أبحاثي، ووجدت بأنَّ لديَّ من المهنية والشفافية ما يجعلني أحدِّد مواطن الضعف في كلِّ بحثٍ، وأعترف بأخطائي حين أرتكبها، وقلت في نفسي: عليَّ أن أسلُكَ المسلك ذاته، وأكون صريحاً وصادقاً، وألا أوارب أو أخفي الحقيقة، فأنا أعلم أنَّ التأجيل لن يغيِّر في الأمر شيئاً. لكن القول شيء، والفعل شيء آخر، فحين وصلت إلى المنزل، وكانت هي في أوج غضبها من سلوكي المريب، والذي طال واستمرَّ لأسبوعٍ كامل، نسيت ما خططت لقوله. أخبرتها ولا أذكر كيف تمَّ ذلك، ولا أعلم ماذا قلت بالضبط، كنت أراقب ردَّة فعلها وأنا في غاية القلق، أمَّا هي فحين سمعت الخبر، لم تبدِ أي ردَّة فعل واضحة، بل غرست رأسها بين

ذراعي، وراحت تذكر الله، ثمَّ سالت دموعها بحزنٍ وألمٍ، وحين بدأتْ بالاستفسار عن فرصة الإنجاب بالتدخلُّ الطبي، لم يكن لديَّ أي طاقة للإجابة، وطلبت منها تأجيل الحديث لليوم التالي.

لم تضغط علي، وبالفعل توقَّفنا عن الحديث، وخلدنا إلى النوم، وحين استيقظنا بعد تلك الليلة العصيبة، كانت عيوننا منتفخةً، من الواضح أنَّها هي أيضاً لم تحظَ بلحظة نوم، وحين جلسنا على طعام الفطور، قلت لها:

- زينة، قبل أن أنطلق إلى العمل لديَّ ما أقوله لكِ.
- حسناً.

تظاهرنا بأنَّنا نأكل رغم انعدام شهيتنا، ثمَّ جلستُ أنتظرها في غرفة الجلوس، وحين أتت عدَّلت جلستي وبدأت بكلامي:

- اعذريني زينة، لم أخبرك بأمر التحاليل والفحوصات، فمنذ أن زرتِ الطبيبة النسائية، وأكَّدتْ لكِ أنَّ فحوصاتكِ وتحاليلك جيِّدة وأنَّك على استعدادٍ للحمل، كان لا بدَّ من هذه الخطوة كي لا أدخلك بدوَّامة الفحوصات، وكي نختصر على أنفسنا الوقت والجهد.

نظرت زينة إليَّ ولم تتفوَّه بكلمة، فأكملت كلامي:

- زينة، تعلمين مقدار محبَّتك في قلبي، وأنَّك أغلى ما في حياتي، روحي لا تطمئنُّ إلا بكِ وعيني لا ترى سواك، رفيقة دربي، وأنيسة غربتي...

قاطعتني وسألتني بحزمٍ:

- إلى أين تريد أن تصل؟
- بعد شهرين سيأتي يوم ميلادك، وسيصبح عمرك ثمانية وعشرين.
- نعم وسنحتفل معاً، وعدتني أن نسافر إلى باريس.
- لا لن نسافر، ولن نحتفل، ولن نبقى معاً.
- ماذا تقصد أُسَيد؟
- هل برأيكِ أنِّي سأحرم فتاةً -لم تبلغ الثلاثين من عمرها بعد- من الأمومة؟ هل ترينني أنانيَّاً إلى هذه الدرجة؟
- ما هذا الوتر الذي تعزف عليه؟ لا أفهم ماذا تريد بالضبط؟
- يجب أن ننفصل بأسرع وقتٍ ممكنٍ، فضياع الوقت ليس من صالحكِ.
- أُسَيد، لا تكمل كلامك أرجوك!

دفعت زينة الطاولة التي أمامها وجلست على الأرض وبدأت بالبكاء، فجلستُ بجانبها، ورفعت لها وجهها ورحت أتأمَّلها، وأنا أتساءل بيني وبين نفسي: هل أعني فعلاً ما قلته للتوِّ، أم أنَّه كلام فارغ؟! إن كانت خسارة الأطفال أمراً محتماً، فهل عليَّ أن أخسر زينة أيضاً؟!

مسحت لها دموعها ثمَّ قلت لها:

- أنتِ لا تدركين الأمر الآن، لأنَّك في مرحلة الصدمة، لكن ستفهمين كلامي بعد أسابيع، لا تكوني انفعاليَّةً بهذه الطريقة، ما أقوله لمصلحتكِ أنتِ.
- ما هي مصلحتي برأيك؟ أن ننفصل؟ هل علاقتنا ضحلة إلى هذه الدرجة لنتخلَّى عنها عند أوَّل مطبٍّ نواجهه؟
- هذا ليس مطبَّاً، هذا امتحانٌ صعبٌ جدَّاً، إنَّه ابتلاءٌ.
- سمِّهِ ما شئت، لن يغيِّر هذا من الأمر شيئاً، أجبني هل علاقتنا ضحلة لهذا الحد؟

لم أرد، فسألتني:

- أليس هناك أمل في التدخُّل الطبي؟
- لقد كان الطبيب صريحاً جدَّاً وأخبرني أنَّه وفقاً للتحاليل والخزع، فإنَّ احتمال نجاح عملية الحقن المجهريِّ ضئيلٌ جدَّاً،

حتَّى أنَّه لم يوصِ بذلك في الأساس، لكنَّه في ذات الوقت لم يجزم بعدم جدواها في الوقت الراهن.

رأيتها وهي على وشك الانهيار، أمسكت بي تودُّ أن أضمَّها فدفعتها وأنا أصرخ بصوتٍ مرتفعٍ:

- ألا تفهمين أنَّكِ لن تصبحي أمَّاً إن بقيت معي؟

فأقبلتْ مجدَّداً أمامي، ونظرت إليَّ بحزنٍ وقالت بصوتٍ هادئٍ:

- ألا تفهم أنِّي لا أرغب بطفلٍ أنتَ لستَ أباه؟

زينة مارس 2017

- لا يا أمِّي لن نأتي خلال عطلة الربيع، أُسَيد مشغول بعض الشيء، لست متأكِّدةً من إجازة الصيف، لديه مؤتمرات يجب أن يحضرها، سنرى، أوصلي سلامي إلى والدي، أحدِّثك غداً إن شاء الله.

لا أريد أن أسافر، ليس لديَّ أي طاقة لمواجهة الناس، أنا لم أصدِّق متى كفَّ أُسَيد عن محاولاته في إقناعي لتركه والمضي نحو مستقبلي، هل سأذهب بنفسي إلى هناك وأسمع كلاماً مشابهاً لتلك الأفكار حين يعلمون بوضعنا الجديد؟!

حتَّى وإن لم يعلموا، فزيارتي السابقة وعندما كنت في أحسن حالاتي، لم أنل إعجاب أحد، وأشعروني كما لو أنَّني أعاني، فكيف ستكون ردَّة فعلهم إن التقوا بي وأنا أعاني بالفعل؟!

مضى شهران على معرفتنا بحالة أُسَيد، وكما تنبَّأ وقال، فنحن فعلاً لم نذهب إلى باريس، ولم نحتفل بعيد ميلادي، وذلك بناءً على طلبي، لم أكن بمزاجٍ جيِّد خلال تلك الأيام. طلبت من أُسَيد أن يتفهَّم حالتي وألا يكرِّر مطالبه بانفصالنا، وإلا سيجبرني على التظاهر بالسعادة فقط

لتفادي اقتراحه ذلك، وفعلاً تمَّ الأمر. لم يكن لديَّ خيار آخر، فأنا حزينةٌ ومكسورةٌ، ومدركةٌ أنَّ هذه هي البداية فقط، فرغم ألّا شيء تغيَّر في حياتي، إلا أنَّني بدأت أشعر بفراغٍ قاتل ملأني وملأ حياتي، واعترتني مشاعر كثيرة لم أكن أشعر بها قبل شهرين فقط، فبعد عودتي من إجازة العام الماضي، لم أبدأ بأي إجراءات تتعلَّق بتعديل شهادة التمريض، إذ أعطيت الأولوية لموضوع الحمل، فرحت في تلك الشهور أملأ وقتي بما هو مفيد بشغفٍ وحبٍّ، فعلَّمني أُسَيد مخارج الحروف وأحكام التجويد، وتوسَّعت في مجال القراءة والمطالعة، وتعلَّمت الأشغال اليدويَّة، وصنع الحلويات، لكن منذ ذاك اليوم أصبحت أشعر أنَّ كلَّ ما أفعله بلا هدفٍ أو معنى، فلِمن سأعدُّ الحلويات إن لم يأكلها أحد؟ ولِمَ أتدرَّب على الأشغال اليدوية إن لم أصنع ملابس لطفلٍ؟ لِمَ؟ ولِمَ؟ ولِمَ؟

كانت تلك التفاصيل تخنقني، فمنذ كنت مراهقة وأنا أتخيَّل وجود أطفالي حولي، يحاصرونني، وتلاحقني ضحكاتهم، وأصواتهم، وصراخهم، وينادونني "ماما"، وعندما تزوَّجت كانت سعادتي لا توصف بأنِّي اخترت أُسَيد أباً لهم، والآن لا شيء يلوح في الأفق سوى كلمات وتعليقات لا تنتهي...

" متى سنفرح بخلفتك؟"

"متى سيأتي وليُّ العهد؟"

"هل خبَّأتِ لنا شيئاً؟"

هل أنا مجنونةٌ لأسافر إلى هناك حيث لن يرحموني من أسئلتهم واستفسارهم حول الموضوع؟!

أُسَيد	مارس 2017

كانت صدمة يزن كبيرة، وكان تأثُّره واضحاً، وحاول أن يتماسك وقال لي:

- حسبي الله ونعم الوكيل.
- أشعر بضيقٍ يعتلي صدري، وأحتاج إلى دعائك.
- استهدِ بالله وتوكَّل عليه. أسأل الله أن يلهمك الصبر.
- ادعُ لنا، فحال زينة ليس أفضل من حالي.
- هل علمتْ بالأمر؟
- نعم، أخبرتها بكلِّ شيء. كانت الأيام الأولى التي تلت الخبر هي الأصعب عليها، لم تحاول إخفاء حزنها أو كتمه، وبدت كمن يحتاج إلى المساعدة ويستنجد. عرضت عليها فكرة الانفصال مئات المرَّات، إلا أنَّها لا تريد أن تتخلَّى عنِّي مهما كانت الأسباب.
- كيف ستتخلَّى عنك، وأنت أُسَيد؟
- هل تحاول مجاملتي أم التخفيف عنِّي؟
- لا هذه ولا تلك، أقول الحقيقة، ولنفرض أنِّي أحاول التخفيف عنك، ألستَ هنا لهذا السبب بالأساس؟!

ابتسمت ونظرت إليه وأنا أومئ إليه بالإيجاب، ثمَّ أكملت كلامي:

- نحتاج إلى إيجاد حلٍّ وبالأخص بالنسبة لزينة، أشعر أن الأرض ضاقت عليها بما رَحُبَت، فلا رغبة لها بزيارة أهلها، ولا التحدُّث مع صديقاتها أو أختها، باتت كالرجل الآلي، تستيقظ، ترتِّب السرير، تحضِّر الإفطار بأبسط ما يمكن، ولا تأكل سوى لقمة أو اثنتين، أغادر أنا إلى العمل فلا أعلم كيف تقضي وقتها في غيابي، وحينما أعود من عملي نأكل طعام العشاء معاً، تأكل بضع لقيمات لتسدَّ جوعها دون شهيَّة ثمَّ تذهب لتنام، أعلم أنَّ الأمر صعب التقبُّل، وأدرك أنَّ من واجبي أن أدعمها، لكن ما بيدي حيلة. لم تنجح خطَّة الحيوانات الأليفة معها، ولم تجدِ نفعاً كلُّ الكتب التي جلبتها والتي تتحدَّث عن الصبر والتغلُّب على المصاعب، وكذلك الأجهزة الرياضية لاقت المصير ذاته، حتَّى بطاقة السفر لم تنفع، ولا الرحلة إلى باريس، كلّه باء بالفشل.
- وماذا عنك أنت؟

تنهَّدت ولم أجبه، بل أشرت برغبتي في المشي، فخرجنا من المقهى ومشينا طويلاً، بقيت صامتاً لأكثر من ساعة، وفعل يزن الشيء ذاته، وقفنا على محاذاة نهر "التايمز" لبرهة، وضعت يدي على كتفه ثمَّ قلت له:

- أنا ما أزال مذهولاً من الصدمة.

بقي مصوباً نظره نحو الأرض، وسألني:

- ألن تلجأ إلى المحاولة الطبيَّة؟
- ليس الآن، نحتاج إلى بضعة أشهر، لنستجمع قوانا، وحينها لكلِّ حادثٍ حديث.

زينة مايو 2017

توالت الأيام والشهور، وما أزال أخشى المواجهة. تجاهلي التام لسؤال والدتي المتكرِّر عن إنجاب طفلٍ جعلها تشكُّ في الأمر. كنت أحدِّثها عبر الهاتف، فسألتني سؤالها المعتاد عن سبب التأخير في الإنجاب، فقالت:

- اصدقيني القول، هل هناك خطبٌ ما؟

لم أرد كعادتي، لأنِّي لا أكذب، فأردفتْ:

- زينة، يا حبيبتي ماذا تخفين عنِّي؟
- سأتحدَّث معك لاحقاً، لديَّ الآن موعد اعذريني أرجوك.
- حسناً، مع السلامة يا حبيبتي، أوصلي سلامي إلى أُسَيد.

أغلقت الهاتف، ورحت أنظر حولي فإذا بأُسَيد في الغرفة، سألته وأنا أبدي دهشتي:

- أأنتَ هنا؟
- نعم.
- لِمَ تنظر إليَّ بتجهُّم؟ لم أخبرها بشيءٍ.

وقف وأقبل نحوي وهو يقول:

- أنا لا أحقِّق معك، ما بك؟ إن أردتِ قولي الحقيقة، قولي لها: "أُسَيد لا ينجب".

كأنَّ الأمر بهذه السهولة! صمتُّ ولم أجبه، فأكمل كلامه وقال:

- والدتك قلقة وهذا من حقِّها، لا تضعيها في موقفٍ صعبٍ.
- هل أخبرتَ والدتك بالأمر؟
- ليس بعد.

قال ذلك وخرج من الغرفة. في كلِّ مرَّة ينهي أُسَيد كلامه حول هذا الموضوع، يغوص في غرفة المكتب حتَّى آخر الليل.

متعبةٌ أنا من كلِّ شيء، متعبةٌ من حزني، ومن وحدتي، وقلَّة خبرتي. أمّا أُسيد فلا يعجبه شيء هذه الأيام، لا إجاباتي عن أسئلة الآخرين، ولا ردود أفعالي. كلانا بمزاجٍ سيء، مصابه كبير ولا ألومه، أمَّا أنا فلم أكن بأفضل حالاتي حتَّى قبل معرفتنا بالأمر، فمنذ أن تزوَّجنا وأنا أحاول جاهدةً أن أتحوَّل إلى الصورة المثالية، كنت أريد تجاوز مرحلة تطوير ذاتي والتأقلم مع أُسَيد بأسرع وقتٍ ممكنٍ كي أكون جاهزةً للبدء بالمرحلة التالية، ألا وهي إنجاب طفلنا وتربيته وأنا على أُهبة الاستعداد لذلك، ورغم أنِّي كنت سعيدةً إلا أنِّي أرهقت نفسي وكلَّفتها فوق طاقتها، أن

أقول "نعم" و "حاضر" دائماً ذلك ليس بالأمر الهيِّن، وحين كان اندفاعي وحماستي في أوجهما، هانت عليَّ كلُّ تلك المصاعب، فتحمَّلت الغربة، والوحدة، وتغيير الظروف، وتغيير طريقتي في الحياة، وتحمَّلت آراءً ليست دائماً على هواي، ووافقت أُسَيد في كلِّ ما يحبُّ ويرغب، لكن ما حدث قلب حالي رأساً على عقِب، وفقدت حماستي، واستقبلت ذلك الابتلاء وأنا ضعيفة، خائرة القوى، ومنطفئة الشعلة، فزادت شعلتي انطفاءً، وذهبت أحلامي التي كانت تدفعني إلى الأمام أدراج الرياح بين ليلة وضحاها.

زينة يونيو 2017

أتى رمضان هذه السنة ونحن في أسوأ حالاتنا، كان صعباً للغاية، ليس بسبب العطش والجوع، بل بسبب الحالة النفسيَّة السيئة التي كنَّا بها، ورغم أنَّني اعتقدت أنَّ عزيمتنا ستقوى خلال الشهر الفضيل، إلا أنَّ الأمر ليس بالتمنِّي، فأنا وأُسَيد لم نستطع أن ننجز بختمة أو صلاةٍ أو قيام، كنَّا بالكاد نؤدِّي السنن الرواتب، ونقرأ ما تيسَّر من القرآن، حتَّى أُسَيد، العابد القوَّام، لم يصلِّ من الليل إلا القليل، شعرت بأنَّ طاقته تنفد بسبب التفكير وانشغال البال.

رمضان ليس دواءً سحريَّاً يأتي ليُزيل كلَّ الندوب والجروح والهموم والخيبات. رمضان هو فرصة لنا كي نحاول، لكنَّنا لم نحاول، وبقينا في عزلتنا النفسية مع بارق أملٍ بسيط بأنَّ عملية الحقن المجهري ستفضي لحملٍ بإذن الله. لم يكن من السهل إقناع أُسَيد بإجراء هذه العملية، وتطلَّب الأمر منِّي كثيراً من الإلحاح ليلاً ونهاراً إلى أن قبِل بأن نباشر بالمحاولات. كانت الإجراءات طويلة، وكانت التعليمات أكثر، لكنِّي كنت متأمِّلةً وشعرت بأنَّ الأمور ستكون على ما يرام.

صلينا الاستخارة عشرات المرَّات، ودعونا الله كثيراً، ولعلَّنا لم ندعُ في رمضان إلا بهذه الدعوة: "اللهمَّ ارزقنا الذريَّة الطيِّبة"، كنت أسمع أُسَيد في دعاء القنوت يكرِّر "ربِّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين".

أُسَيد يوليو 2017

أتى العيد هذه السنة ونحن في أسوأ حالاتنا، كان صعباً للغاية، ليس بسبب الغربة والبعد عن الأهل، بل بسبب الحالة النفسيَّة السيئة التي كنَّا بها.

كان موعدنا مع الطبيبة بعد العيد، وحين أتى اليوم المحدَّد، أقمتُ صلاة الظهر بينما انتظرتني زينة في السيارة، ومن ثمَّ انطلقنا إلى المركز الذي اخترناه لإجراء عملية الحقن المجهري، وهناك اطَّلعت الطبيبة مجدَّداً على الفحوصات والتحاليل الأخيرة لكلينا، ثمَّ أعطتنا وصفة طبيَّة لجلب الجرعات والأدوية اللازمة لزينة، إضافة إلى قائمةٍ جديدةٍ من الأدوية والفيتامينات الضرورية لي، وقالت:

- ستكون الجرعة يومية، عليكِ الالتزام بالتوقيت، سأحقنك اليوم بالجرعة الأولى يا زينة، لكن تستطيعين من الغد الاعتماد على نفسك، هل تجيدين استخدام الحقن؟

نظرتُ إلى زينة التي بدت مرتبكةً، ويبدو بأنَّ الطبيبة لم تقرأ في ملف معلوماتنا بأنَّ مهنة زينة هي التمريض بالأساس، أجبتها:

- لا بأس، سأحقنها أنا، أليس كذلك يا زينة؟

نظرتْ إليَّ، وابتسمتْ وهي تومئ بالإيجاب، ومن ثمَّ أردفت كلامي:

- عملت زينة لسنواتٍ في المجال الطبي.
- آه حقَّاً، هذا سيسهل الأمور علينا أكثر.

أجبتها:

- لكن مع ذلك، سأتكفَّل أنا بعمليَّة الحقن.
- حسناً، في كل الأحوال فإنَّ إجراء الحقن ليس صعباً، هي حقنة تحت الجلد في منطقة البطن.

ومن ثمَّ حقنت زينة بالجرعة الأولى وهي ترشدني كيف يتمُّ الأمر، أثناء ذلك أمسكتُ بيد زينة، وبعد أن عدلت جلستها أكملت الطبيبة حديثها وهي تسرد لنا الأعراض الجانبية المتوقَّعة لتلك الجرعات خلال الأيام المقبلة، إذ ستعاني زينة من التغيرات الهرمونية، ناهيك عن الدوار والآلام التي تترافق مع تلك التغيرات. أثناء إصغائنا لتلك الأعراض والتبعات، بدت لي زينة كما لو أنَّها تستهين بالأمر، فلم تكترث كثيراً ولم تسأل أو تستفسر، لذا تعمَّدتُ أن أطرح الأسئلة لأتأكَّد أنَّها استوعبت ما هي مقدمةٌ عليه، فتستعد بشكلٍ جيِّدٍ، سألتُ الطبيبة:

- هل يتحتَّم على زينة الالتزام بتعليماتٍ محدَّدة؟

أجابت الطبيبة وهي تنظر إلى زينة:

- لا إطلاقاً، تستطيعين ممارسة الرياضة، شرب القهوة كما تشائين، استمتعي بحرَّيتك، لأنها ستتقيَّد بعد عملية إرجاع الأجنة.

تمتمت بصوتٍ منخفضٍ وأنا أنظر إلى زينة قائلاً:

- إن شاء الله.

أكملت الطبيبة كلامها وهي تنظر إليَّ، وقالت:

- وكما ذكرت لكَ مسبقاً، التزم بالرياضة يا دكتور أُسَيد، ابتعد عن التدخين، ولا تنسَ الأدوية، التي من شأنها أن تزيد من جودة العينة.
- بالتأكيد! ومتى ستكون عملية سحب البويضات؟
- بعد اثني عشر يوماً من بدء الجرعات على أبعد تقدير، لكن دعني أشرح لك الأمر مجدَّداً.

أخرجت الطبيبة جدولاً فيه مواعيد خلال الأسبوعين المقبلين وأردفت:

- ستأتي يا زينة مجدَّداً بعد ستة أيام، لفحص حالة البويضات، وتقدير عددها، وعلى إثر النتائج نستطيع تأكيد موعد عمليَّة السحب بدقَّةٍ.

كما تعلمان نحن ننتظر أن ينتج المبيضان قرابة عشر إلى خمس عشرة بويضة.

سألتها:

- وهل سيكون الفحص مؤلماً؟ كم مرَّة سيتكرَّر؟
- لا تقلق، ستكون زوجتك بأفضل حال طالما أنت بقربها.

أحكمت قبضتي على يد زينة وأجبت الطبيبة:

- بالطبع، سأكون معها دائماً.
- هذا جيِّد.

نظرتُ إلى زينة، فوجدتها شاردةً تماماً ولم تشعر بيدي التي ترتجف قلقاً وألماً لما ينتظرها بسببي، فأردفت الطبيبة قائلةً:

- وحين نرى أنَّ عدد البويضات كافٍ والنوعية جيدة، نحدِّد موعد عمليَّة سحب البويضات.

وهنا سألتها زينة:

- وهل سيكون التخدير عاماً؟
- نعم، لن تشعري بشيءٍ.

ابتسمتْ بارتباك وهي تقول:

- لا بأس.

أكملت الطبيبة شرح الخطوات، وقالت:

- في يوم العملية، ستُحقَن البويضات بالعينة المأخوذة من الدكتور أُسَيد، وسننتظر بضعة أيام، وفي حال بدأت الخلايا بالانقسام، تسمَّى تلك البويضات حينها بالأجنَّة. بالعادة قد نحصل على أجنة عديدة، وإن وجدناها بحالةٍ جيِّدةٍ، نُرجِع اثنين أو ثلاثة منها إلى الرحم، بينما نجمِّد الباقي لمحاولات مقبلة، كي لا نكرِّر عملية التنشيط وسحب البويضات، لكن في الوقت الراهن، دعونا نركِّز على المرحلة الحالية. التزما بالمواعيد والأدوية، ولا تتردَّدا في الاتصال بنا في حال وجود أي استفسار.

سألتُ زينة:

- هل لديكِ أي استفسار آخر؟

فأجابتني باقتضابٍ:

- لا!

- إذن، فلننطلق.

شكرنا الطبيبة، ومن ثمَّ طلبتُ من زينة أن تسبقني إلى السيارة كي أتمَّ ملء الأوراق اللازمة خصوصاً أوراق الحوالات المالية لدفع المبلغ المستحق، وقَّعت على الأوراق ولحقت بزينة.

وما إن صعدت في السيارة، حتى سألتني:

- كم أصبح المبلغ في نهاية المطاف؟
- عشرة آلاف باوند تقريباً.
- لِمَ أضفت الخيارات الأكثر تكلفة؟ رأيتك وأنت تختار البارحة وتضيف الميزات جميعها، لسنا مضطَّرين على فكرة.
- يجب أن تكوني مرتاحةً، ويجب أن تكون نوعية الأدوية والرعاية الطبية المقدَّمة هي الأفضل، لا داعي للتوفير، ثمَّ لا شيء يغلى عليكِ.
- حسناً كما تشاء.

لم تكن زينة بأفضل حالاتها، شعرت بغصَّةٍ حيال أسلوبها، لكنِّي لم أشأ أن أعاتبها، أدرت المحرِّك وانطلقنا إلى المنزل.

زينة
يوليو2017

استيقظت صباحاً، فوجدت أُسَيد ما يزال في المنزل، فسألته:

- ما الأمر؟ أما تزال هنا؟
- نعم، سأعمل صباحاً من المنزل حتّى موعد الحقنة، أعطيك إيَّاها ومن ثمَّ أنطلق إلى المكتب.
- أليس لديك مواعيد صباحية؟ أو محاضرات؟
- لا، لا يداوم عدد كبير من الطلاب خلال شهر يوليو، وفي كلِّ الأحوال لقد وضعت جدولاً خاصَّاً لهذين الأسبوعين، كي يتناسب مع مواعيد الحقنة والمركز الطبي.
- شكراً أُسَيد!

ضمَّني إليه وهو يقول:

- لا تشكريني أرجوك.

صمتنا قليلاً، ثمَّ سألني:

- هل نأكل طعام الإفطار معاً؟
- لا أشعر برغبة بتناول الطعام الآن.

- حسناً كما تشائين.

عاد إلى مكتبه ليكمل عمله، بينما شعرت بتكاسلٍ شديدٍ، فقرَّرت أن أحضِّر كوباً من القهوة لعلِّي أشعر بتحسُّنٍ، وما إن وقفت في المطبخ، حتَّى شعرت بدوارٍ شديدٍ، يبدو أنّهَا الأعراض قد بدأت بالفعل. تراجعت عن قرار شرب القهوة وعدت إلى فراشي وقلبي مضطَّرب ومشاعري سيِّئة.

وبعد ساعتين، شعرت بأُسَيد آتياً إلى الغرفة من أجل الحقنة، تمنَّيت لو يعطني إيَّاها دون أن يتحدَّث معي أو حتَّى يلاطفني، فقلت له عندما وجدته متحمِّساً:

- أعطني إيَّاها بسرعة، أريد أن أنام.

نظر إليّ باستغراب وقال:

- هل هناك خطب ما زينة؟
- نعم أشعر بدوارٍ شديدٍ، أرجوك أسرع.
- حسناً.

أعطاني الحقنة وطبع قبلةً على جبيني ثمَّ قال:

- سأذهب إلى الكلية، اتَّصلي بي إن احتجت إلى أي شيء.

- حسناً، في أمان الله.

مضت الساعات بعدها ثقيلةً وبطيئةً، تمنَّيت لو يعود باكراً لكنِّي لم أتصل به، وعندما خفَّت حدَّة الشمس بعد الظهيرة، خرجت من المنزل لأتنزَّه قليلاً لعلِّي أشعر بتحسُّنٍ طفيفٍ.

أُسَيد يوليو 2017

كانت زينة نائمة، مسكينة زينة أنهكتها الأدوية، تنام لساعاتٍ طويلة، وتعاني من الخمول. لا طاقة لها على فعل شيءٍ هذه الأيام سوى تصفح صور الأطفال في وسائل التواصل الاجتماعي، ترسل لي يوميًا الكثير من الصور ومقاطع الفيديو لأطفال يضحكون، لآباء وأمهات يداعبون أطفالهم يوم ولادتهم، ترسل لي صورًا لمستلزمات الاحتفال بالمواليد، أرسلت لي مهدًا هذا الصباح وكتبت: "اجعله هديةً لي إن صرت أمّاً"، أنا أتألم زينة! ليتك تفهمين معاناتي.

نظرت إليها وهي نائمة فشعرت بأنّها ليست على ما يرام، اقتربت منها فوجدتها تتأوه، فنهضت وأحضرت كوبًا من الماء وجلست على طرف فراشها، ربتُّ عليها بحنان وأنا أهمس:

- زينة! زينة حبيبتي، هل أنت متعبة؟ هل تتألمين؟!

استيقظت زينة بعنف رغم هدوئي، دفعتني دون أن تشعر وسقط كوب الماء من يدي وتحطم على الأرض، نهضت وهي تصرخ:

- أنا بخير أُسَيد، علي أن أتحمّل، أنا أريده أُسَيد، هل تفهم؟!

أعلم أنّ الطبيبة نبّهتني لما قد تسببه الأدوية بجسدها، قالت إنّ علي تحمّل تقلبها المزاجي وتأثير الهرمونات المبالغ فيه عليها، لكن ليس لهذا الحد زينة! أنا قلقٌ بشأنها، لا أحتمل عذابها، وأشعر أنّي السبب وراء كلّ هذه المتاعب، لو أنّني بخير لما اضطرت زينة لتحمّل كلّ هذا الألم. أنا السبب في أن تعاني حتّى قبل أن تحمل في رحمها ابنًا لنا، لو لم يكن هذا النقص لتغيرت أشياء كثيرة يا زينة، كان من الممكن أن تكوني سعيدة وقوية في تحمل مشكلات الحمل وآثاره، لكن أنا السبب، سامحيني يا أنيستي!

لأول مرة بحياتي أقول "لو"، أعرف أنّها من مداخل الشيطان ويبدو أنني قد سقطت في مزالقه دون أن أدري، استعذت بالله في سرّي وقلت لها:

- أنا أيضًا أريده يا زينة، سأبقى في الغرفة المجاورة نادني إن احتجت شيئًا!

وهممت بالنهوض، وحينما استدرت شعرت بيدها الرقيقة تمسك بمعصمي وهي تناديني:

- أُسَيد!

- نعم يا حبيبتي.

التفت إليها وجلست بجوارها، اعتدلت في فراشها وهي تقول:

- أشعر بالعطش أُسَيد!
- سأحضر لك كوباً آخر، وأجفف الماء الذي انسكب على الأرض، لا تنهضي حتى أعود.
- شكراً أُسَيد!

انحنيت أمسك وجهها بكفي وأنظر لعينيها البريئتين، كانت منفعلة منذ ثوان لكنها الآن وادعة كطفلة صغيرة.

ماذا فعلتْ بكِ تلك الأدوية يا زينة؟ سامحيني! سأظلّ أكررها حتّى ينتهي العمر.

أحضرتُ لها الماء، وجففت الأرض، ثمّ مضيت إلى المكتب.

أُسَيد يوليو 2017

مرَّت خمسة أيام على بدء الجرعات والحقن، وهي مع كلِّ يوم تريني مزاجاً مختلفاً، أستيقظ صباحاً وأنا قلق حيال المزاج الجديد والكلام الجارح، والأسلوب الفظ.

لكن هذا اليوم كان الأسوأ، فقد استيقظت بآلامٍ حادَّةٍ ووخزٍ في أسفل الظهر، وهو شيء توقَّعته الطبيبة ووصفته لها بدقَّةٍ، وحين رأيتها تبحث عن شيءٍ في خزانة المطبخ التي نضع فيها الأدوية، قلت لها بحزمٍ:

- زينة! لا يسمح لكِ بأخذ المسكنات، ألا تذكرين ما قالته الطبيبة؟

التفتت إلي وصرخت:

- أعلم أعلم، أتعتقد بأنِّي لا أفهم؟
- لم أقصد ذلك، ظننتك نسيتِ؟
- لم أنسَ، اطمئن.
- ولِمَ أنتِ غاضبة؟
- لأنَّك تعتقد بأنِّي جاهلة ولا أفهم، حتَّى الطبيبة كانت توجَّه الحديث إليك حينما كانت تشرح ما يجب وما لا يجب فعله،

وتقول لك يا دكتور، ويا دكتور، أمَّا أنا فلا تعلم أصلاً بأنَّني كنت ممرِّضة.

- لقد أخبرتها بالأمر ألم تسمعي؟
- لا لم تخبرها، أخبرتها أنَّني كنت أعمل في المجال الطبي، ولم تقل ممرِّضة، أنا لا أفهم هل تشعر بالعار من قول ذلك؟
- أنا؟!
- دعني وشأني الآن.

خرجتْ من المطبخ وانفجرتْ بالبكاء، لم ألحق بها، فأنا متأكِّد أنَّها تبحث عن شيءٍ تصبُّ غضبها عليه، ولا يوجد أمامها غيري.

تنهَّدت وأنا أشعر بانقباضٍ شديدٍ، كنت أعلم أنَّ الأمر لن يكون يسيراً، ولولا إصرارها وإلحاحها للمحاولة الطبية لم أكن لأقدم عليها إطلاقاً، لأنَّ الاحتمال ضعيفٌ، ضعيفٌ جدَّاً.

زينة يوليو 2017

لا تتوقَّف الآلام، وتزداد معها حدَّة الأعراض يوماً بعد يوم، أنا أعاني وحدي من غير أختٍ أو أمٍ أو صديقة. لم أخبر والدتي بالأمر فهي لا تعلم حتَّى الآن بحالة أُسَيد، وأختي مشغولة بأطفالها وعائلتها ولديها ما يكفيها من الهموم، أمَّا منى، فلم أشعر بأي رغبة بإخبارها، قلت في نفسي: ربَّما تنجح العملية ولا نحتاج إلى شرح حالتنا لأحد.

كنت أعدُّ الأيام بالساعات والدقائق، إلى أن أتى موعد فحص البويضات، فتعدَّل مزاجي في ذلك اليوم كثيراً. ذهبنا أنا وأُسَيد معاً، وحين انتهت الطبيبة من الفحص، قالت لنا إنَّ الوضع جيِّد جدَّاً، فقد استطاعت رؤية سبع عشرة بويضة، وأخبرتنا بأنَّنا سننتظر يومين ومن ثمَّ ستعطيني حقنة التفجير، وبعد تلك الحقنة بيوم، سأخضع لعملية سحب البويضات.

خرجنا من العيادة مبتهجَين، نظرت إلى أُسَيد فوجدته متفائلاً، اشتقت إليه بالفعل، فمنذ أكثر من أسبوع لم أجلس بقربه، ولم أتبادل معه أي حديث، أمسكت بيده وقلت له:

- دعنا نستمتع بوقتنا اليوم.

ابتسم وقال لي وهو يضع يده على خدي:

- اعذريني أرجوك، لديَّ موعد مهم، سأنهيه وننطلق بعدها حيث تشائين.
- لا بأس، في أمان الله، هل أعود وحدي إلى المنزل؟
- سأصطحبك إن أردتِ.

نعم، وددت لو يصطحبني معه، ويلغي موعده، ونقضي وقتنا معاً في مكانٍ ما، لكن لم أشأ أن أخبره بذلك، فأجبته:

- لا عليك، سأذهب وحدي.
- اعتني بنفسك.

وعدت إلى المنزل، فاستثمرت نشاطي ومزاجي الجيد بأعمال كانت قد تراكمت خلال الأيام السابقة. رتَّبت المنزل، ونظَّفت الغرف، وحضَّرت بعض الأطعمة، فأُسَيد غير بارعٍ في الطبخ، ورغم أنَّه يحاول مساعدتي، إلا أنَّه لا يعرف كيف ينجز عملاً بشكلٍ متقنٍ وصحيحٍ.

أنهيت أعمالي وانتظرت عودته، لكن حين تأخر، أرسلت إليه رسالة:

- أُسَيد، لا أعتقد بأنَّنا سنخرج اليوم، أشعر بالإنهاك.

ردَّ قائلاً:

- سلامتك، هل آتي حالاً؟
- لا تقلق، أنا بخيرٍ.
- في كلِّ الأحوال لن أتأخر، هل تريدين شيئاً من السوق؟
- لا.
- في أمان الله.

وقبل أن أغلق هاتفي كتبت له "أحبُّك كثيراً" لكنِّي مسحتها قبل أن أرسلها. لا أعلم لماذا مشاعري مضطَّربة وحادة ومتقلِّبة جدَّاً رغم أنَّه يحاول أن يكون لطيفاً خلال هذه الأيام، ولا سيَّما بعد أشهرٍ عانيتها معه من مزاجه السيء.

متى سنعود كما كنَّا؟!

أُسَيد يوليو 2017

ما تزال زينة على غير طبيعتها، إن غازلتها امتعضت، وإن تحدَّثت إليها أبدت استياءها، ناهيك عن محاولاتها الدائمة لاختلاق المشكلات. حين تحدَّد موعد عملية سحب البويضات، كنت أتأمَّل أن نغلق صفحة الجرعات وأعراضها، لكن وضَّحت الطبيبة أنَّ تأثير الأدوية الجديدة والحقن والتحاميل لن يكون أفضل، ستُحتبَس السوائل في جسدها، وستعاني زينة من تغيُّر المزاج وتقلُّبه، ناهيك عن آلام أسفل الظهر والبطن.

دخلنا إلى الغرفة التي ستُجرى فيها العملية، فدخلت إحدى الطبيبات المتدرِّبات وراحت تتأكَّد من معلومات زينة وحالتها، وتسألها بعض الأسئلة المتعلِّقة بالأدوية والامتناع عن الطعام خلال الساعات الماضية وما إلى ذلك، ثمَّ أمسكت ملفَّنا وقالت:

- أسماؤكما مختلفة، أنتما زوجان؟ أليس كذلك؟

أجبتها:

- نعم، نحن زوجان، في ثقافتنا ليس بالضرورة أن تغيِّر الفتاة اسم عائلتها عندما تتزوَّج.

- آه فهمت، كل الأمور جاهزة، سنبدأ بالتخدير بعد قليل، لذا أرجو منك يا أستاذ أُسَيد أن تغادر الغرفة وتتوجَّه إلى الغرفة المقابلة من أجل الحصول على العينة الخاصَّة بك.

أومأت إليها بالإيجاب ثمَّ نظرت إلى زينة وقلت لها باللغة العربية وأنا أطبع قبلة على يدها:

- يسألوننا إن كنتِ زوجتي! كنت سأجيبها هي زوجتي ونصفي الثاني، وتوأم روحي، أحبُّكِ كثيراً.

ابتسمت بلطفٍ وأحكمت قبضتها على يدي وهي تقول:

- أحبُّك كثيراً أُسَيد.

كانت جملتها تلك كفيلة بأن تجعلني سعيداً لدهرٍ كاملٍ، بعد الحرمان الذي عانيته خلال الأيام السابقة. غادرت الغرفة، وروحي معلَّقةٌ عندها في الداخل، ورحت أدعو الله أن يحميها ويحفظها ويكتب لنا الخير والبركة.

زينة يوليو 2017

هذه المرَّة الأولى التي أخضع فيها للتخدير العام، لم أكن قلقة، لطالما طمأنت المرضى حين يخضعون للتخدير العام، وبقيت إلى جانبهم أتابع حالتهم، كنت متأكِّدة أنَّ العملية ستكون هيِّنة ويسيرة، وحين بدأت أشعر بما حولي رأيت الممرضة أمامي تسألني:

- ها قد استيقظتِ.

سألتها:

- هل انتهينا بالفعل؟
- نعم، انتهت العملية.

أقبلت الطبيبة نحوي وقالت:

- كلُّ شيء على ما يرام، سننتقل بعد قليل إلى غرفة أخرى كي تستريحي هناك حيث ينتظرك زوجك.

لم تكن لديَّ أي طاقة للتأكُّد من عدد البويضات التي سُحبت، وبينما راحت الطبيبة تكمل عملها هي والمخبرية التي تعمل معها، قالت لي الممرِّضة وهي تبتسم وتزيل بعض المحاليل من على يدي:

- السيد أُسَيد ينتظرك بفارغ الصبر، أتمنَّى أن تحظيا بحياةٍ جميلة وأطفال رائعين.

كانت الممرِّضة بالخمسينيات من عمرها، حين قالت لي هذا الكلام اللطيف، شعرت كما لو أنَّها مصدر للحنان في هذا المكان الموحش، فرحت أبكي، أمسكتْ يدي، فقبضت عليها، ويبدو أنَّها شعرت بوحدتي وضعفي، فضمَّتني إليها بحنانٍ، وسألتني:

- لماذا تبكين يا عزيزتي؟
- مشاعري متضاربة وأشعر أنِّي بحاجةٍ إلى البكاء.

نظرت إليَّ بعزمٍ وقالت:

- ستكونين بأفضل حال، لا تقلقي. جميلة هي الحياة بمصاعبها، وأنت امرأة قوية ورائعة، كنت هادئة وقد مدح الطاقم الطبي شجاعتك وثباتك، تأتينا بعض النسوة وهنَّ منهارات بشكلٍ كاملٍ، أعلم أنَّ الأمر ليس سهلاً، لكن علينا أن نحاول أليس كذلك؟

ابتسمتُ وعيناي مليئة بالدموع وقلت لها:

- بالطبع.

أردفت كلامها قائلةً:

- عليك أن تكوني سعيدةً ومبتهجةً دوماً، فلديك زوج يحبُّك كثيراً، ويبدو أنَّه متعلِّق بكِ لدرجة كبيرة، لذا لا تخذليه، كوني قويةً، فهو مرهق للغاية ويبدو عليه القلق والتعب.

خفق قلبي، وشعرت بتحسُّنٍ كبيرٍ فقلت لها:

- أتعتقدين ذلك بالفعل؟
- طبعاً، ألا ترين كيف ينظر إليك كما لو أنَّك ملاكه؟

ضحكت وابتهج قلبي، ثمَّ قلت لها:

- وأنت أيضاً، الملاك الذي أرسله الله إلي اليوم، كي يجبر كسر قلبي.

تأثَّرت كثيراً من كلامي، فأدمعت عيناها، ثمَّ قالت لي:

- والآن دعينا ننطلق، إذا شعرت بالدوار أثناء حركة السرير فأخبريني، سنمضي ببطءٍ شديدٍ، هل أنت مستعدَّة؟
- نعم.

وبالفعل، تحرَّكنا ببطء إلى غرفة في الجناح المقابل، هناك حيث كان أُسَيد ينتظرني، وحين رآنا، أسرع نحوي قائلاً:

- الحمد لله على سلامتك.

وطبع قبلةً على جبهتي، ثمَّ نظر إلى عيني وقال:

- هل أنتِ بخير؟

أجبته وأنا محرجة:

- نعم الحمد لله، هل نجحت عملية السحب؟
- ألم تخبركِ الطبيبة بالأمر؟
- بلى، أخبرتني لكن لم أسأل عن التفاصيل.
- الحمد لله، سُحِبت اثنا عشر بويضة، وستُقشَّر البويضات وتُحضَّر للتخصيب، وبعد أيام سيتَّصلون بنا ليعلمونا بالنتائج، فإن حصلت انقسامات في بعض البويضات، فتلك هي الأجنة التي ستُرجَع ويُجمَّد بعضها إن كان العدد كافياً.
- إن شاء الله.
- وهل سنعود إلى المنزل اليوم؟
- نعم، حالما تشعرين بتحسُّنٍ.

ضمَّني إلى صدره، فشعرت بدفءٍ شديدٍ وراحةٍ كبيرةٍ بعد أيامٍ من التعب والإرهاق الجسدي والنفسي، لكنّي شعرت أيضاً باضطرابٍ يخفيه عنّي. عندما عدنا إلى المنزل، ذهبت للنوم بينما بقي أُسَيد مستيقظاً

طيلة الليل، وفي الصباح وجدت على مكتبه قصاصات متناثرة، كتب على إحداها: "أسوأ أنظمة العدّ التي اخترعتها البشرية هو العدّ التنازليّ."

أجبته في سرّي: أين عزمك يا أُسَيد؟! لِمِ تُظهر لي أضعف ما لديك في لحظةٍ أحتاج بها إلى قوتك؟!

أُسَيد يوليو 2017

كان الانتظار صعباً للغاية، مرَّت الأيام الثلاثة ببطءٍ شديدٍ، لم تكن زينة أفضل منّي حالاً، شعرت بأسى كبير نحوها، إذ يبدو أنَّها متألِّمَة من العملية، لست قانطاً من رحمة الله، لكن لا رغبة لدي برفع سقف توقُّعاتي.

وفي صباح اليوم الرابع بعد عملية السحب، وصلني اتِّصال من المركز، فأخبروني بخبرٍ لم أكن أتوقَّعه بالفعل، كان الخبر مفرحاً ومحزناً في آنٍ معاً، أغلقت الهاتف وجريت مسرعاً إلى المطبخ، هناك حيث كانت زينة تحضِّر طعام الإفطار، وقلت لها:

- أبشري يا زينة.
- ماذا؟ هل اتَّصلوا من المركز؟
- نعم، وتحدَّد موعد عملية الإرجاع غداً إن شاء الله.

قفزتْ من الفرحة وقالت لي وهي تضمُّني:

- وكم عدد الأجنة؟

نظرت إليها وابتسمتُ ابتسامةً صفراء حزينة وأجبتها:

- جنين واحد فقط، هو الوحيد الذي انقسمت خلاياه من بين كلِّ المجموعة التي خُصِّبَت.

خبَّأت حزنها وتظاهرت بأنَّها ما تزال سعيدةً، وقالت:

- الحمد لله، الحمد لله، أنا سعيدة جداً.
- الحمد لله دائماً وأبداً.

جلسنا لتناول طعامنا، وأثناء ذلك نظرت إليَّ زينة نظرة حيرة، كما لو أنَّها تودُّ أن تسأل: "هل سينجح الأمر؟"

أجبتها في سرِّي: "وما أدراني يا زينة، ما أدراني أنا؟"

بعدها انطلقت إلى مكتبي، أحاول أن أشغل بالي بشيءٍ آخر، إلا أنَّني لم أستطع، عاودت فتح الملفات التي أرسلتها الطبيبة، قرأتها للمرَّة الألف، وقرأت مزيداً من المقالات المرتبطة بتفاصيل هذه العملية، ونسبة نجاحها، وعدد الأزواج الذين يلجؤون إليها، وكلَّ تلك الأمور التي حفظتها عن ظهر قلب، وبينما كنت جالساً، وصلتني رسالة من صديقي آدم، كتب فيها:

- السلام عليكم يا دكتورنا المتألق، كيف حالك؟ أتمنَّى أن تكون بخيرٍ، منذ فترة وأنت لا تدوِّن شيئاً ولا تنشر على صفحتك

الشخصية إلا نادراً، اشتقنا إليك يا رجل! أرجو أن يكون المانع خيراً، أرسل إلي لأطمئنَّ عليك، تحياتي، آدم.

ورغم حالتي النفسية السيئة، إلا أنَّ رسالته أسعدتني، أجبته:

- أهلاً يا آدم، وعليك السلام، أنا بخير، أشكرك على سؤالك عنِّي، أنت بالفعل نعم الصديق، لا جديد لدي، لكنَّني منشغل بالدوام والعمل والجامعة كما تعلم، لم أعد أجد متَّسعاً من الوقت لأفكِّر وأكتب وأشارك وأتفاعل في وسائل التواصل الاجتماعي، ربما أعود إلى نشاطي السابق بعد فترة. أخبرني: كيف حالك؟ وكيف حال العائلة؟ أتمنى أن تكونوا جميعاً بخيرٍ، أوصل سلامي إلى عمر، قد لا آتي السنة إلى الوطن خلال إجازة الصيف، وفي كل الأحوال، تذكَّرني دوماً بدعواتك، يا صاحب القلب الطيب، أخوك أُسَيد.

زينة يوليو 2017

لم تكن عملية الإرجاع صعبةً، ولم أحتج إلى تخديرٍ عام، كانت بسيطةً وسهلةً، ولا سيما أنَّها لجنينٍ واحدٍ. كنت أدعو الله طيلة الوقت، وأسبِّح، وأكبِّر، وأهلِّل راجيةً من الله أن يكتب لهذا الجنين الحياة.

أخبرتنا الطبيبة بأن نأتي إلى المختبر بعد اثني عشر يوماً كي نجري الفحص الرقمي عن طريق تحليل عينة من الدم. اثنا عشر يوماً مرُّوا بطريقةٍ مختلفةٍ عن كلِّ الأشهر الماضية، كان أُسَيد متحمِّساً، ومرتبكاً، ومتفائلاً. حين أستيقظ أرى فطوري جاهزاً، فطوراً صحيَّاً مع نكهة حبٍّ وحنانٍ. يتَّصل بي بين الفينة والأخرى، فيسأل عن أحوالي. يأتي وقت الغداء كي يتأكَّد بنفسه أنِّي سآكل بشكلٍ جيِّدٍ، ومن ثمَّ يعود إلى عمله، حتَّى أنَّه عاد إلى النشر على صفحته بعد توقُّفٍ دام لأشهر. لا أعلم كيف انقلبت أحوالنا بشكلٍ مفاجئ فقط لأنَّ ثمة احتمال بالحمل، ارتفعت آمالي كثيراً، وقلت لعلَّها بشارة خير.

رحت أتخيَّل وأتأمَّل: كم ستكون الحياة جميلة إن بقيت على هذا المنوال؟! إلى أي مدى ستصل إليه سعادتنا إن حصل الحمل بالفعل، وأتمَّ الجنين شهوره، وولد بصحَّةٍ وسلامة؟! ما هذه النعم الرائعة التي

من تكرارها تبدو كأنَّها عادية؟! إنَّها ليست عاديَّةً، ليست عاديَّةً إطلاقاً، إنَّها نعم لا تقدَّر بثمنٍ. إنَّها نعيم وحياة رغيدة ومليئة بكلِّ ما هو جميل.

أن تصبح المرأة حاملاً، يا لها من معجزةٍ!

هل سأصبح حاملاً بالفعل؟ هل سأتَّصل وأقول لوالدتي: أنا حامل؟ هل سأخبر أختي وصديقاتي وخالاتي؟ والأهم من كلِّ ذلك، أُسَيد، كيف سيستقبل الأمر؟ إلى أي مدى ستصل إليه سعادته؟ هل سيعود أُسَيد الذي أعرفه، أُسَيد الذي لا يربكه أي شيء، ولا يهتم بالأمور الثانوية، يركِّز على هدفه ويمضي نحوه دون توقُّفٍ أو شكوى. فتحت صفحته فوجدته قد كتب فيها:

> ما هو الانتظار؟ وما هو الترقُّب؟ أهو الوقت الذي يمرُّ؟ أم الحال التي نكون بها؟ أم الأحلام المترتِّبة على نتائجه؟! حين ننتظر أمراً ما، نحن نسحب الآمال مع كلِّ شهيق، ونلمح الأماني مع كلِّ بريق، ونشتمُّ عبق الحياة مع كلِّ رحيق.
>
> Osaid

بكيت ورحت أتحسَّس بطني وأنا أدعو وأتوسل إلى الله، أن يرزقنا ويهبنا الذريَّة الصالحة.

أُسَيد يوليو 2017

كنت عائداً إلى المنزل مشياً على الأقدام، فلم أعد أريد الاعتماد على السيارة دوماً، ناهيك عن المهمَّة الموكلة إلي، فعليَّ أن أبحث لزينة عن فاكهة الـ "كاكي" والتي لا تنضج بالعادة في شهر الصيف، مشيت في كلِّ الأسواق وبحثت طويلاً، وفي نهاية المطاف وجدت محلَّاً صينياً لديه بعض الفاكهة الآسيوية، ومن حسن الحظِّ أنَّ لديهم بعض ثمارها، حتَّى ولو كانت صغيرةً وليست ناضحةً بما فيه الكفاية، أخذت بضع ثمارٍ منها، وانطلقت عائداً إلى المنزل.

أعلم أنَّه ليس "الوحام"، وأعلم أنَّ الأمر لا يبدأ بهذا الشكل، حتَّى زينة، لم تقل شيئاً سوى أنَّها تحبُّ هذه الفاكهة، لكنَّ شعوراً ما بداخلي دفعني للاستماتة لجلبها.

كم هو جميل أن تبدأ الحامل باشتهاء شيءٍ ما، ويبحث الأب عنه في كلِّ مكانٍ؟! ما هذه الحالة الاستثنائية؟! ما هذه النظرة الماورائية؟! نعم، فالأب سيسعى منذ اللحظة الأولى ليلبِّي ما يستطيع تلبيته من احتياجات عائلته.

"عائلة" ما أجمل هذه الكلمة؟!

وبينما رحت أبحث عن جذر ومعنى كلمة عائلة باللغة العربية، رنَّ هاتفي، كان الاتِّصال من المختبر فقد حصلوا على عينة الدم من زينة قبل ثلاث ساعات وأخبرونا أن ننتظر للمساء، والآن يتَّصلون، أمسكت زمام قلبي وأجبت.

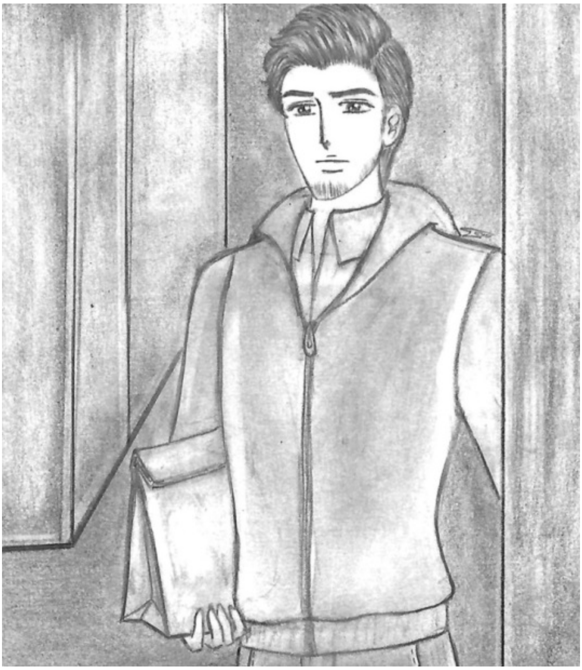

أُسَيد يوليو 2017

توقَّعت أن تنهار من البكاء، لكنَّها تظاهرت بالقوَّة والثبات وقالت لي:

- الحمد لله على كلِّ حال، لم أكن أتوقَّع أن يحدث الحمل من المرَّة الأولى، أظنُّ أنَّ الأمر طبيعي، علينا أن نثابر.

نظرت إليها نظرة استنكار، ففهمتْ ما أقصده، استأنفت كلامها:

- نعم، سنحاول مرَّة أخرى.

كسرت زينة الصمت مجدَّداً وقالت:

- إذن دعنا ننطلق، أشعر بمللٍ شديدٍ، ولم تعد هناك حاجة إلى الاستراحة.

أومأت إليها بالإيجاب، وانطلقنا إلى خارج المنزل، ورحنا نمشي بين الأزقَّة والشوارع. لم أكن أشعر بأي شعور سيءٍ أو جيِّدٍ، كان شعوري امتداداً لحالتي منذ علمت بأمر عقمي، وبينما كنَّا نمشي، سألتني:

- هل نتَّصل بالمركز لتحديد موعد جديد؟
- عليكِ أن تستريحي بضعة أشهر.

- أعلم، مع ذلك دعنا نتَّصل ونحدِّد موعداً.
- لن يطير المركز، سنتَّصل بهم لاحقاً، ألا ترغبين في السفر في عطلة الصيف لزيارة والديك؟
- ألن تسافر معي؟
- لديَّ كثير من المؤتمرات، لا أعتقد أنِّي سأسافر هذه السنة إلى الوطن، تستطيعين السفر وحدك.

كانت تهمُّ بالإجابة، فقاطعتها قائلاً:

- فكِّري في الأمر، ثمَّ أجيبيني لاحقاً.

الفصل الرابع

زينة	مارس 2018

بعد فشل العمليَّة، مضى الصيف على نحوٍ مزعجٍ، لا أعلم كيف تحمَّلت تكرار الأيام على وتيرةٍ واحدةٍ دون أي تغيير. ندمت لأنِّي لم أسافر، ماذا كان سيضرُّني لو أنّي سافرت وقضيت الصيف مع أهلي؟! لماذا كل هذا العناد؟!

كان أُسَيد خلال تلك الأشهر يقضي أغلب وقته منغمساً في المكتب، لا عطلة، ولا نزهة، ولا استراحة، ولا يريد الخروج حتَّى إلى مطعمٍ، أو حديقةٍ، فقلَّ كلامنا، وباتت حياتنا جافَّةً جدّاً، شعرت بأنَّ لطافته التي أظهرها لي خلال أيام العملية في بداية الصيف، كانت فقط لأجل هذه الحالة الخاصَّة، كنت أظنُّ بأنَّ الحياة ستستمرُّ على هذا النحو، يا لسذاجتي!

كانت طاقتي على وشك النفاد، لذا فحين اقترح أُسَيد أن نسافر في الربيع، وافقت مباشرةً، حتَّى دون أن أسأله إن كان سيرافقني أم لا، ليتبين لي بعدها أنَّه سيسافر معي بالفعل.

كان السؤال الأهم الذي أردت معرفة جوابه قبل أن نسافر: هل سنخبر أحداً بوضعنا أم لا؟! فنحن إلى الآن لم نحصل على موعدٍ لعمليَّةٍ جديدةٍ، فأُسَيد يؤجِّل الموضوع شهراً بعد شهرٍ.

- هل نخبرهم بالأمر؟
- لا أعلم، إن أردتِ ذلك، فافعلي!
- ماذا عنك؟ هل ستخبر أهلك؟
- لا!
- هل سنحدِّد موعداً جديداً للعملية؟
- ليس بعد، يجب أن ترتاحي.
- ارتحت، لا تشغل بالك بي.
- لستِ أنتِ من يحدِّد ذلك.
- سأذهب وأسأل الطبيبة.
- انتظري إلى ما بعد الإجازة، واشغلي بالك بشيءٍ آخر حتَّى ذلك الحين.
- ماذا تقصد؟
- ألا ترين بأنَّك غارقة في اللاشيء؟ ألا من عملٍ تقومين به؟ أو علمٍ تنتفعين به؟ أو شأنٍ تنشغلين به؟

نظَرَت إليَّ بغضب، وقالت:

- ألا تسأم من هذا الكلام الذي تكرِّره؟

لم يعجبني ردَّها فتجاهلتها ومضيت إلى غرفة الجلوس، لكنَّها لم تتوقَّف عن الكلام، فراحت تقول بانزعاج:

- لا تسمح لي بتعديل شهادة التمريض، أو العمل في مجال التمريض بحجَّة أنَّك لا توافق على المناوبات الليلية، والعمل الطويل، والتعامل مع الرجال، كما لا تسمح لي بالتسجيل في نادٍ رياضي للنساء بحجَّة أنَّه ليس للمحجبات وقد يدخل رجل في أي لحظةٍ، ولا تسمح لي بالتسجيل في دوراتٍ ثقافيةٍ أو فنيَّةٍ بحجَّة أنَّ المناهج لا تعجبك ولديك تحفُّظ عليها، ولا تسمح لي بالتعرف إلى أناسٍ جددٍ بحجَّة ألّا وقت لديك، ولا تسمح لي بالخروج مع زميلاتي السابقات في درس اللغة لأنَّهن قد يطلبن المشروب أثناء جلوسي، ولا تسمح لي بالذهاب إلى المسبح لأنَّك لا تقبل بمظهر البوركيني حتَّى لو كان فضفاضاً! الدراجة، والخيل، والرسم، والنحت، والتصوير، والأفلام، والسينما، كلُّ شيء غير مسموح به، ثمَّ تأتي وتسألني ماذا تفعلين؟ حتَّى الطبخ، تؤنِّبني إن استحدثت طبقاً جديداً، وكأنَّ الدسم والأمراض لن يأتوا إلا من هذه الأطباق الجديدة! أُسَيد، لم أعد أحتمل تعليقاتك إطلاقاً...

تركتها تكمل كلامها دون أن أقاطعها، لم أرد، كما لم أهتم، فأنا وهي حفظنا هذه الإسطوانة عن ظهر قلب.

أنا حقَّاً ليس لدي أي إجابة، فأنا لم أستعد سوى لخطَّةٍ واحدةٍ، سنتزوج، وسننجب، وستنشغل زينة بالأطفال، ثم سنعيش بهدوء وطمأنينة، ولن يعكر صفو حياتنا شيءٌ. ليس لديّ أي خطَّة بديلة، لم أعتد البدائل، لم أعتد حبَّ السفر أو المغامرة أواستكشاف الأماكن الجديدة، كما لم أسعَ لتوفير المال في سبيل الحصول على بيتٍ أكبر، أو سيارةٍ أحدث، ولم أتقن رياضةً محدَّدةً، ولم أجرِّب التطوُّع في جمعياتٍ خيريَّةٍ، أو فعالياتٍ جماعيَّةٍ. كنت أنتظر أن ألعب كرة القدم مع ابني، وأستكشف العالم مع ابنتي، وأتلهَّف لأن يملأ الأطفال بيتنا، فأسعى لتوسيعه وتحسين حياتنا بشغفٍ وحماسة، وأرافقهم إلى المعاهد والمدراس والنشاطات الخاصَّة، فأتعلَّم معهم ومنهم مهاراتٍ جديدةً، ولغاتٍ عديدةً، فتتلوَّن حياتنا، وتزهر أيامنا بهم.

لا تلوميني يا زينة، فلأ أملك أي خطَّة بديلة!

زينة مارس 2018

لم أدرك أنَّ الأذى متأصِّل في مجتمعنا إلى هذه الدرجة حتَّى أصبحت أنا الضحية، ورغم أنَّ إجازتنا قصيرة، إلا أنَّ الفرصة أُتيحت للجميع لإضافة البؤس إلى قلبي، بدءاً بالأسئلة التي لا تنتهي، مروراً بنظرة الشفقة، انتهاءً بالأمنيات التي باتت تزعجني!

لم أشأ أن نوضع في مثل هذه المواقف، لكن هذا هو الواقع، مجتمعنا لا يرحم. يكون السؤال الأوَّل دائماً في كلِّ زيارة للأقرباء أو الأصدقاء: ألم تفرغا من شهر العسل؟

فنضطَّر إلى أن نبتسم لهذه الطروحات السخيفة بينما نحن نتألَّم.

لكن الأكثر إيلاماً كان يوم حضور مباركة قريبة والدتي التي أنجبت طفلتها الأولى، وأصرَّت والدتي أن تصطبحني معها لألتقي مع نساء العائلة اللواتي اشتقن إلي، لقد كانت تلك الزيارة هي الأسوأ في الإجازة كلها.

في ذلك اليوم، ذهبت إلى منزل أهلي صباحاً، لأقضي الوقت معهم ومن ثمَّ أنطلق مع والدتي إلى تلك الزيارة. كنت أشعر بالضيق والتململ من الذهاب، فشعر والدي بالأمر، رأيته مُتحرِّجاً يودُّ الاستفسار عن شيءٍ

ما، ولكنَّه لا يستطيع! كما حاولت والدتي سؤالي عن الأمر ذاته خلال الأيام الأولى للإجازة وكان جوابي مقتضباً بأنَّنا ما نزال نرتِّب أمورنا، لكن ردود أفعالي بالعموم كانت تشي بالحقيقة، وبأنَّ ثمَّة خطبٌ ما.

بعد حديثٍ ليس بالقصير مع والديّ، لـمَّحت لهما بأنَّنا قد نستعين بالتدخُّل الطبي، لم أدخل بتفاصيل أكثر من ذلك، ولم أخبرهما بفشل المحاولة الأولى، وضآلة الاحتمال.

عندما حلَّ المساء، انطلقنا أنا ووالدتي إلى حفلة المباركة، دخلنا فألقيت السلام على أقارب والدتي، وضعت الهدية في الزاوية المخصصة للهدايا، وجلست، كانت النسوة يلقين نظرة بين الفينة والأخرى على الصغيرة، أما أنا فشعرت بالحرج من الاقتراب من سريرها، فبعض قريبات والدتي سألنني مرات عديدة عن سبب تأخُّري في الإنجاب، ثمَّ أحسست بأنَّهن يراقبن ردود أفعالي وكلماتي في الحفلة، لذا تعمَّدت أن أكون بعيدةً عن مركز الاهتمام، وجامدة قدر الإمكان، وبعد ساعاتٍ من الضغط النفسي، اتَّصل أُسَيد بي كي يقلَّنا معه، فأوصل والدتي إلى المنزل، وأكملت طريقي معه إلى منزل أهله، كنت صامتةً لا أتحدَّث، وحين وصلنا دخلت مباشرة إلى غرفة النوم ولم ألقِ التحيَّة على حماتي وعمِّي، فلحق بي أُسَيد، دخل الغرفة وأغلق الباب ثمَّ قال بنبرةٍ حادَّةٍ:

- ما بكِ؟ أهكذا يدخل المرء على أهل البيت؟

أجبته وأنا أبكي:

- دعني وشأني أرجوك.

تغيَّرت ملامحه، وبدا قلقاً للغاية، وسألني:

- هل أخبرت والدتكِ بالأمر؟ لِمَ لم تنتظري؟ أليس من الأفضل أن تستشيريني أوَّلاً؟

نظرت إليه باستغرابٍ، وسألته:

- أهذا ما يشغل بالك؟ أهذا ما يهمُّك؟ ألا تشعر بي أنا؟
- أنتِ؟ ما بكِ؟
- ألا تعلم أين كنت اليوم؟
- وما أدراني؟! قلتِ لي لديك زيارة عائلية.
- نعم، كنت أبارك لقريبتنا بمناسبة ولادة ابنتها، وهناك، شعرت بأنَّهن لا يرغبن فعلاً بوجودي، شعرت بخوفهن من أن أنظر إلى الطفلة الرضيعة، أو أحملها كأنِّي سأحسدها، أو ألتهمها! ليسوا هم فقط، فمنذ يومين حين زارتنا قريبتكم الحبلى، تجنَّبت الجلوس بقربي أو الحديث عن حملها، حتَّى صديقاتي، لم يعدن

يرسلن إلي صوراً لأطفالهن، هل سأحسدهم؟ أخبرني أُسَيد؟ لماذا يفعلون ذلك معي؟

اعتقدت بأنه سيحتويني، ويضمني إليه، ويخفِّف عنِّي، لكنَّه زاد الطين بلَّة، أمسك بساعدي وهو يؤنِّبني وصرخ قائلاً:

- ماذا تريدين؟ هل أجبرتك على البقاء معي؟

وعندما لم أجبه، خرج من الغرفة وتركني بين ركام مشاعري مذهولةً من وقع كلامه.

أُسَيد مارس 2018

- زينة! جهِّزي نفسك ودعينا نذهب.
- لا رغبة لدي بالذهاب معك إلى أي مكان.
- زينة، أرجوك!

عندما وجدتني أحاول مصالحتها، نهضت من مكانها، فانتظرتها عشر دقائق ومن ثمَّ انطلقنا. كانت وجهتي نحو التلَّة التي تتوضَّع على أطراف المدينة وتطلُّ على الجزء الشمالي منها، فيكون المشهد من هناك جميلاً وشاعرياً ومريحاً للقلب والعين، اخترت أن أذهب إلى هناك كي نحظى بلحظاتٍ هادئةٍ وبعيدةٍ عن الجميع، فيتسنى لي الحديث معها وإصلاح ما أفسدته البارحة.

كانت ما تزال غاضبةً، جلسنا على إحدى الصخور، وبعد عشر دقائق، أمسكت بيدها وأنا أقول:

- أتعلمين زينة، عندما كنتُ يافعاً لم أكن أجيد الاعتذار إطلاقاً.

نظرتْ إليَّ بتهكُّمٍ ولسان حالها يقول: "كما لو أنَّك تجيده الآن!"، لكنَّها لم تقل شيئاً فتابعت كلامي:

- كنت واثقاً من كلِّ تصرُّفاتي وأفعالي، وكأنِّي لا أُخطئ وأصبحتُ في مرحلةٍ ما متشبِّثاً بآرائي وأفكاري. أذكر خلال تلك الأيام كيف واجهتني مشكلةٌ مع أحد الزملاء في المدرسة، وتطلَّب الأمر استدعاء أولياء الأمور، كنتُ أنا المخطئ والمعاند حينها. عند عودتنا من المدرسة اعتذر أبي منِّي وقال لي كلاماً لا أنساه طيلة حياتي، قال لي: "أعتذر منك يا ولدي، سامحني فهذه غلطتي أنِّي لم أعلمك الاعتذار، علمتك أن تكون واثقاً وقوياً ومعتزّاً بنفسك، ولكنِّي نسيت أن أغرس فيك التواضع، وتقبُّل آراء الآخرين، وانتقاداتهم، وفي كلِّ مرَّة تحدث فيها أي مشكلة، كنتُ أعتبر أنَّ ابني هو الملاك الذي لا يخطئ، لم أكن أصدِّق أنَّ أُسَيد قد يرتكب خطأً في حقِّ الآخرين، لذا فكنت أضع اللوم على الآخرين. أُسَيد يا أغلى ما لدي، أخشى ما أخشاه أن أكون قد أنشأتُ شابَّاً متكبِّراً لا يدرك ثقافة الاعتذار، ولايدرك ما هو التواضع، وهذا أبعد ما كنت أتمنَّاه. أُسَيد! أثبِت لي أنَّك تستطيع تدارك هذا الأمر، فالكِبَر من أعظم الذنوب". في يومها بكى أبي من خوفه علي، ولأنَّه تدارك خطأه. بكى في مشهدٍ حفر في عقلي وقلبي، فأنا لم أرَ أبي باكياً يوماً، وعلمت عِظَم ما فعلت. من يومها وأنا أحاول مجاهدة نفسي للتغلُّب عليها، فأحاول

الاعتذار إن كنت مخطئاً، وأجاهد ذاك الشعور الذي يعتريني للانتصار لنفسي وإيجاد المبررات للدفاع عنها.

نظرت إليها، فوجدت أنَّ ملامحها قد تغيَّرت، وفهمت ما أرمي إليه، فقلت لها:

- أنا آسف زينة، كنتُ مخطئاً، ولا تبرير لدي. هل تسامحينني؟

ابتسمت ابتسامةً صغيرةً، وقالت لي:

- لا عليك.

صمتنا بعدها لوقتٍ طويل، ضممتها بيدي اليمنى، فأمالت رأسها على كتفي، وبقينا على هذه الحال ونحن نتأمَّل غروب الشمس.

زينة يونيو 2018

رغم كل المضايقات التي تعرضت إليها في إجازتي خلال الربيع إلا أنَّ اجتماعي بوالدَي ترك أثراً إيجابياً كبيراً في داخلي، وإلى أن انتهت الإجازة، استطعت كتمان السر، فلم أخبر والدتي بأي تفاصيل، لكن أشعر كما لو أنَّها تعلم بالأمر، إذ كان كلامها وقلقها ونظراتها يوحون بذلك، أمَّا والدي فقد أخذ إجازة خصيصاً في ذلك الأسبوع من عمله ليقضي وقتاً أطول معي، ورغم أنَّ مسحة الكآبة لم تغادرني إلا أنَّ مجالسة والدَي والبقاء بقربهم حتى لو لم نتحدَّث كثيراً، وحدها كافية ليحظى قلبي بشيءٍ من الاطمئنان.

وبعد عودتنا إلى لندن، بادر أُسَيد بتحديد الموعد قبل أن أبدأ بالالحاح مجدَّداً، فهو مدركٌ بأنَّ صبري وصل إلى عتبته النهائية. أجريت بعض الفحوصات، وجلب هو أدويته الجديدة، وسجّل في نادي الرياضة، وتحدَّد موعد بداية إجراءات عملية الحقن المجهري مجدَّداً في آخر شهر أكتوبر.

كنت سعيدةً جدَّاً حين اتَّخذ أُسَيد هذا القرار أخيراً، لكن ما إن وضع أمامي الخطوات مجدَّداً ليذكِّرني بها، حتَّى انقبض قلبي، فأنا إلى الآن لم

أنسَ معاناة الجرعات المنشِّطة! سألت نفسي: هل سنعيد هذا السيناريو مجدَّداً؟ ماذا لو فشل الأمر؟!

لكن سرعان ما حاولت تبديد هذه الأفكار السلبية، وقرَّرت أن أتفاءل، فرحت أكرِّر على مسامع قلبي بأنَّ هذه المرَّة ستكون مختلفةً، وستتكلَّل المحاولة بالنجاح إن شاء الله.

أُسَيد سبتمبر 2018

منذ متى أنا أغضب بالأساس؟ منذ متى وأنا أنفعل ولا أحسب حساباً لما أتفوَّه به؟! أحاول أن أهدأ، ألا أنفعل، ألا أغضب، لكنِّي لم أعد أملك زمام نفسي كما كنت سابقاً.

كنَّا قد خرجنا لشراء بعض الملابس الشتوية، فقد تغيَّر الطقس بشكلٍ مفاجئ، واكتشفنا أنَّنا لم نتسوَّق منذ مدَّةٍ طويلة. كانت الأمور على ما يرام وكنتُ في مزاجٍ جيِّدٍ، إلى أن اختفت زينة فجأةً ولم أجدها، انتظرت عشر دقائق لأجدها بعد ذلك قادمةً نحوي تحمل قطعة ملابس صغيرة، وما إن صارت أمامي حتَّى قالت بحماسٍ شديد:

- انظر أُسَيد ما أجمل قطعة الملابس هذه، اخترت اللون الأبيض، فهو يصلح للجنسين.
- لم أفهم ماذا تقصدين بالضبط؟
- سأشتريها، أحببتها جدًّاً.

بالكاد ابتلعت ريقي، ونظرت إليها بغضبٍ شديدٍ، ثمَّ قلت لها بلهجةٍ حاسمة وأنا أنتزع قطعة الملابس من يدها:

- أعيديها إلى مكانها، أين الطفل الذي سيرتديها؟!

سحبتها من يدها ومضيت خارج المحل التجاري بأقصى سرعتي، لم أنظر إليها، ولم أشأ أن أرى دموعها، فقد كنت متأكِّداً من أنَّها ستبكي.

ماذا تفعل بنفسها! لماذا ترفع سقف توقُّعاتها إلى هذا الحد؟! لِمَ باتت تستفزني بهذه الطريقة؟ لماذا أصبحت مهووسة بالفكرة إلى هذا الحدّ؟!

أقدر رغبتها وحاجتها للأمومة لكن ما تُقدم عليه زينة يؤذيني، يؤذيني بشدّة. أحبّ زينة وأتمنى إسعادها لكنّها مصرّةٌ على جعل سعادتها في طريقٍ لا يمكنني بلوغه.

وصلنا إلى المنزل، فدخلت إلى غرفتنا، وأنا أشعر بالألم ممَّا فعلته بها، في المقابل لم أستطع محادثتها، وبعد مرور ساعة، طرقت زينة الباب، وسألتني:

- هل نصلِّي العشاء؟

لم أكن أرغب برؤيتها ولا فتح أي حديث معها، إلا أنَّني استعذت من الشيطان الرجيم وأجبتها:

- أنا قادم.

وبالفعل، استجمعت كلَّ خصال الخير التي تبقَّت لدي وخرجت للصلاة معها وحالما فرغنا قلت لها:

- زينة، أنا آسف.

نظرت إليَّ نظرة حزنٍ وعتابٍ ثمَّ قالت:

- لا بأس، لن أزعجك مجدَّداً، أعدك بذلك.

حزنتُ لحالها، وضممتها إلي فراحت تبكي، ثمَّ قلت لها:

- زينة، أنت لا تزعجينني، لكن يحزنني أن أراكِ تتعاملين مع الأمر كما لو أنَّه حدث، أخبرك للمرَّة الألف أنَّ الاحتمال ضعيف للغاية، أرجوكِ افهمي ذلك!
- لكن صدِّقني بالأمس رأيت في منامي أنِّي أمسك بصحنٍ مليءٍ بالـ...

لم أدعها تكمل الرؤيا وقاطعتها مباشرةً:

- زينة، أرجوك، كفِّي عن ملاحقة أحلامك، كفِّي عن تفسيرها يومياً، لا تأتي الرؤى بالطريقة التي تعتقدينها، ثمَّ افتحي صفحات تفسير الأحلام، ستجدينها مكرَّرة، فمعظم الأحلام التي تراها المرأة المتزوِّجة تُفسَّر على أنَّها بشرى لقدوم مولود، هل تؤمنين بصحَّة ذلك بالفعل؟ أرجوك لا تستجدي كلَّ ما حولك ليصبّ في أمنيتك، فلن تتحقَّق أمنيتك بهذه الطريقة، إنَّها

هبةٌ من عند الله، فإمَّا يرزقنا إيَّاها، أو يبتلينا بحرمانها، توقَّفي عن ذلك، أرجوكِ!

تنهَّدتْ بألمٍ ثمَّ قالت لي:

- هل بات كلُّ ما يصدر منِّي مزعجاً لك إلى هذا الحد؟
- لا، لكنَّك تحدِّثينني بأمورٍ لا أستطيع استيعابها أو التفاعل معها، هل تودين أن أتظاهر باهتمامي بتفسير حلم؟ أو أصرخ من فرحتي إن رأيت ملابس أطفال جميلة؟ أو أشاركك قراءة ومتابعة قنوات الأمَّهات الحوامل؟!

صمتت ولم تجبني، فأكملتُ كلامي:

- افعلي ما تشائين، لكن ليس أمامي، فالأمر يزعجني للغاية، ويمزِّقني تماماً، لأنَّني وراء كل معاناتك، ألا تفهمين شعوري؟
- أُسَيد، لا تقل ذلك، أرجوك لا تعد إلى هذا الموال مجدَّداً. أنا على ما يرام، دعنا نصلي قيام الليل، أرجوك، أودُّ سماع المزيد من تلاوتك.

مجدَّداً، تُغيِّر الموضوع، ولا تريد مناقشته معي، أجبتها بهدوء:

- حسناً!

صلينا بضع ركعاتٍ من قيام الليل، وحين أوترنا، دعوت الله أن يكتب لنا الخير، فالأسبوع القادم موعد بدء عملية الحقن، ونحتاج إلى زادٍ كبيرٍ من العزيمة والصبر والثبات، فقلبي متعبٌ وروحي مرهقة لأبعد حدٍّ.

في تلك الليلة لم أستطع النوم، كانت الأفكار والأسئلة تتلاطم في رأسي كالأمواج العاتية.

لقد اخترت زينة واخترت أن أحبّها، ولم أختر تعاستي وعجزي عن تحقيق ما تتمناه، لم يخطر ببالي يومًا أن أواجه مشكلة كتلك، لم أفكر يومًا بأني قد لا أنجب، أتعجّب من فكري العلمي الذي لم يدرج يومًا هذا الاحتمال، فكّرت بالزواج من زينة وكأنّ الانجاب نتاجٌ طبيعيٌّ لهذا الزواج، كان من الممكن أن تكون زينة غير قادرة على الإنجاب أو أكون أنا كمصيبتي اليوم، وكان من الممكن ألّا يكون أحدنا السبب وأن يكون مجرد وجودنا معًا هو السبب، أنا أؤمن بأنّها إرادة الله وأجاهد نفسي على الصبر، ولكنّي أعجز كثيرًا، أعجز كعجزي عن أن أكون أبًا.

ورحت أفكر بنهجٍ علميٍّ لأوّل مرّة في علاقتي بزينة، وسألت نفسي: ماذا لو فشلت العملية هذه المرة أيضًا؟ كرجلٍ اعتاد تحكيم عقله، ما الذي يتوجب عليّ فعله؟ هل سأقبل بتكرار معاناة زينة دون فائدة؟ هل سأرغمها على الحياة مع زوجٍ غير قادرٍ على إسعادها؟

في العادة يبدو الحلّ سهلا، ألا وهو تغيير أحد العوامل لتُحل المشكلة، أو لنتوقع نتائج جديدة على الأقل!

أنا لن أتغيّر لأن هذا القرار ليس بيدي ولا أملك حياله شيئاً، ولن أغيّر زينة بزوجةٍ أخرى فأنا سبب المشكلة، ولن أغيّر المركز الطبيّ فالأمر سيّان.

إذن فلتغيرني زينة، ولأترك لها القرار، فإمّا أن تختار الفراق أو تشفق على حبّي لها.

زينة أكتوبر 2018

كنت في طريق العودة إلى المنزل، إذ ذهبت إلى السوق لجلب بعض الحاجيات، وحين وصلت إلى المنزل تفاجأت بأنَّه قد عاد بالفعل، كان من المفترض أنَّه سيذهب إلى المركز ليقوم بالإجراءات الأوليَّة لدفع تكاليف العملية، ومن ثمَّ يذهب إلى مكتبه، فسألته:

- ما بك أُسَيد؟ لِمَ تبدو شاحباً؟

نهض من مكانه وهو يتنهَّد بقوَّةٍ ثمَّ قال:

- أجَّلت موعد العملية، لن نجريها هذا الشهر.

بالكاد ابتلعت ريقي، ثمَّ سألته:

- هل تمزح؟
- طبعاً لا.
- ولِمَ التأجيل؟ لا أفهم.

لم يجبني، ظلَّ صامتاً، فسألته:

- أُسَيد، ألن ترد؟ لِمَ التأجيل؟

- ظهرت بعض المشكلات، وهناك أمور يجب أن تُحلّ أولاً، قد نغيِّر المركز، لا أعلم بعد.
- ما تحفظك عليه؟ أنا لا أفهم! العناية لديهم ممتازة، والكادر الطبي كذلك.

لم يرد، فقلت له:

- أتبحث عن مركزٍ يقدِّم العملية بمبلغٍ أرخص؟ هل تفكِّر الآن بالمال وأنا على حافَّة الانهيار؟ ألا تدرك أنِّي أنتظر الموعد منذ أكثر من سنة؟ هل توفِّر المال على حساب أعصابي؟ لِمَ لم تختر مركزاً غيره منذ البداية؟ لِمَ انتظرت أن يأتي الموعد ومن ثمَّ تؤجِّله؟ أليس لديك أي شعور؟

جريت نحو غرفتنا وارتميت على وسادتي ورحت أبكي، أما هو فظلَّ صامتاً لا يرد. انتزِعت في تلك اللحظة كل آمالي، ورحت أسأل نفسي: لم أكن أعلم بأنَّه بخيل إلى هذه الدرجة؟!

حاولت أن أهدأ قدر الإمكان وعدت إلى الغرفة بعد ساعة، وقلت له:

- سأدفع أنا التكاليف، دعنا نجري العملية أرجوك.

أُسَيد أكتوبر 2018

أقبلت إلى الغرفة بغضبٍ وهي تكرِّر:"سأدفع أنا التكاليف، سأدفع أنا التكاليف...."، أجبتها:

- كفاك هراء أرجوك.
- أخبرني لماذا أجَّلت العملية؟
- نحتاج إلى استراحة، استراحة من كلِّ شيء، هل تفهمينني؟
- استرحنا بما فيه الكفاية!
- التحاليل ليست جيّدة.
- لا، بل أخبرتني الطبيبة أنَّ تحاليلي جيِّدة جدَّاً، وبأنني مستعدِّة لبدء جرعات التنشيط.

قطبت حاجبي، وقلت لها:

- تحاليلي أنا!

ومضيت خارج المنزل، وعندما عدت بعد ساعات، وجدتها تنتظرني وهي حزينةٌ، أقبلت إليَّ تعتذر منِّي، فقلت لها:

- لا حاجة إلى الاعتذار، نسيت الأمر. لكن لديّ ما أقوله فأصغي إليَّ أرجوك.
- تفضَّل.
- حجزت تذكرة طيران، أنت بحاجةٍ إلى إجازة..

لم أدعه يكمل كلامه، وسألته:

- متى حجزت؟
- الأسبوع المقبل.
- لكنَّ الفصل الدراسي لم ينتهِ بعد، ولديك كثيرٌ من الأعمال، كيف ستحصل على إجازة؟
- أنا لن أسافر، ستسافرين وحدك.

أجبته باستنكارٍ:

- وحدي؟ لماذا؟
- كما قلتِ للتوِّ، لم ينتهِ الفصل الدراسي بعد، والموعد القادم لن يكون قبل نهاية هذه السنة، لذا من الأفضل أن ترتاحي، وتمضي وقتاً مع أهلك. أنا أقدِّر رغبتك في إجراء العملية، وأعلم مدى ألمك، وحزنك بسبب تأجيلها، لذا فأنت تحتاجين إلى تغيير المكان. سأكون منشغلاً خلال الشهرين المقبلين، ويؤلمني عدم

مقدرتي على مساعدتك، أرجوك، استمتعي بوقتك مع أهلك، ولا تقضي فصل الخريف الكئيب هنا في لندن.

نظرت إليَّ ولم ترد، فشعرت بأنِّي استطعت إقناعها، وبأنَّها وجدت كلامي منطقياً بعض الشيء.

نعم، أريدها أن تسافر، وأن تبتعد قليلاً، لعلَّها تستطيع التفكير في مصلحتها، ولعلَّ والدتها تقنعها ألّا طائل من البقاء معي، وتنصحها بما ينفعها، ومع تظاهري بثقتي وقوتي إلا أنَّني كنت مضطَّرباً للغاية، ورحت أتساءل: هل ستتخلَّى عنِّي بالفعل؟! هل ستذهب ولن تعود؟! هل سيصبح ما أسعى إليه حقيقةً وواقعاً؟

أنا بالفعل لا أعلم ما هو الأسهل! أن أعيش بعيداً عن زينة فأريح ضميري بأنِّي لا أظلمها، أم أدعها تبقى معي، وأحرمها من الأطفال، وأعيش في تأنيب الضمير وعذابه؟!

فكَّرت كثيراً، ولعلِّي اخترت الخيار الثاني، وأقنعت نفسي به، فإن كنت أحبُّها بالفعل، يجب أن أتمنَّى لها الخير أينما كان حتَّى لو لم يكن معي. أي خيرٍ ستجنيه معي وأنا أمنع عنها أجمل الخصال التي خلقت لها، أن تكون أمَّاً؟! أي خيرٍ ستهنأ به، وأنا أعيش كالرجل الآلي، بل أسوأ منه؟! فعلى الأقل، لا يغير الرجل الآلي مزاجه، على عكسي، فأنا أعيش بحالةٍ

مضطَّربة لم أعهدها من نفسي، ليتني أعلم كيف تستطيع زينة أن تحتملني؟!

حرمان الأطفال، حقيقة آمنت بها وبدأت بالتأقلم معها، فلست نبياً لأدعو فيُستجاب لي بمعجزة، ولن يصنع الأطباء المستحيل في واقعٍ واضحٍ وضوح الشمس.

"أنت لا تنجب!"، قالها الطبيب بصراحةٍ بعد الاطلاع على تحاليلي الأخيرة، ومع ذلك أوصى لي بمجموعةٍ جديدةٍ من الأدوية، لعلَّها تنفعني للمحاولة القادمة.

لكن هل فعلاً سأجرُّ تلك المسكينة معي في هذه المتاهة؟ ما ذنبها؟ ما ذنبها حتَّى تحلم في الليل والنهار بأنَّها حامل وستنجب؟! ما ذنبها حتَّى تذبل وتهوي في وادٍ تستطيع النجاة منه؟! يجب أن أتقبَّل الأمر وحدي، وأعتاده وحدي، لقد حاولنا وفشلنا، فلِمَ الانتظار أكثر؟! فلتتركني الآن وتبحث عن حياةٍ أكثر إشراقاً وأملاً، عن حياةٍ تستطيع فيها أن تحقِّق أحلامها، ما دُمت عاجزاً عن تحقيق ذلك لها، فأضعف الإيمان أن أحرِّرها من قيدي، وأُبعدها عن مصيري المحتوم.

زينة أكتوبر 2018

يبدو أنَّ الأمور أعقد ممَّا كنتُ أتخيَّل، فبعد كل هذا الاستعداد والتفاؤل والأدوية والرياضة، تُظهر تحاليل أُسَيد نتائج أسوأ من نتائج السنة الماضية.

حاولت ألا أظهر له صدمتني بالأمر كي لا أجرحه، وألا أستفسر عن التفاصيل.

ماذا يعني أنَّ تحاليله أسوأ؟ أهي حالة مؤقتة؟ أهي صدفة؟ هل الانتظار سيجلب نتيجة أم ماذا بالضبط؟ لِمَ لا يخبرني بالتفاصيل ما دام يدرك حساسية الأمر، وأنِّي لن أتمكَّن من سؤاله بشكلٍ مباشر؟! ماذا سأفعل بكمِّية الألم التي أحملها في قلبي؟ كيف سأبقي عليها دون مشاركة أحدٍ يسمعني ويفهمني ويحتويني؟! ماذا يريد أن يفعل بالضبط؟ هل سيبقى صامتاً ومتجاهلاً لحاجتي إلى فهم مستقبلنا أم ماذا؟

كانت تلك الأسئلة تأكل رأسي، لذا حين عاد إلى البيت واقترح السفر، أظهرت له في البداية عدم رغبتي، ثمَّ وافقت، خصوصاً أنَّه أخبرني أنَّ الوقت أصبح مناسباً كي نصارح أهلنا بمشكلتنا، ليكفَّ الجميع عن

مضايقتنا. وافقته الرأي، فأنا بالفعل أحتاج إلى إجازة، وأن أحكي لوالدتي كلَّ ما أخفيته عنها، فلقد انتهت طاقتي بالفعل.

أُسَيد　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　أكتوبر 2018

في لحظة الفراق في المطار لم أستطع منع نفسي من ضمِّها إلي في مشهدٍ لم تعتده. طبعت قبلةً على جبينها، فرأتني وأنا منفعلٌ للغاية، وقالت لي:

- سألغي الرحلة، لا أراك بحالةٍ جيِّدةٍ.
- لا تقلقي، أنا بخيرٍ، استمتعي بإجازتك وأوصلي سلامي إلى الجميع.
- ألم تقل لي إنَّك ستلحق بي بعد شهر؟
- إن شاء الله، سأترك الأمر للتيسير.
- حاول أن تأتي، نقضي بضعة أيَّامٍ معاً، ومن ثمَّ نعود، وحتى ذلك الحين سأشتاق إليك كثيراً أُسَيد.

تبدو واثقةً كل الثقة بأنَّنا سنعود معاً بعد الإجازة، ولعلَّها تخطِّط لعملية حقنٍ جديدةٍ، وتعقد آمالاً وأمنيات. في كلِّ الأحوال، عزمت في غيابها على الذهاب إلى عيادة طبيبٍ آخر فأعيد التحاليل جميعها لعلِّي أحصل على نصائح مختلفةٍ وأدويةٍ جديدةٍ، وحلول طبِّية أكثر فعاليَّة، ولعلِّي أسمع كلاماً يزرع الأمل في قلبي، فأخرج من حالة اليأس التي أعيشها، وأكون مستعدَّاً بالفعل لبدء المحاولات الطبية في حال عادت زينة معي.

نظرت إليها نظرة وداعٍ أخيرة، وحين أقلعت الطائرة عدت مباشرةً إلى المنزل. كانت الثلوج تغطِّي لندن رغم أنَّنا ما نزال في شهر أكتوبر! نظرت في الأرجاء، فازداد غمِّي وهمِّي، شعرت كما لو أنِّي رجل ثلجٍ أراد أن يهرب من البرد، فجلس أمام نار موقدةٍ، فأنهى بذلك معاناته، لكن لم يعد له وجود بالأساس. ليس الأمر بأنِّي سأنتهي إن تركتني زينة، بل أشعر أنِّي منتهٍ بالأساس، ما هذا العجز الذي أنا به يا إلهي؟!

اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من الهمِّ، والحزن، والعجز، والكسل، والبخل، والجبن، وضلع الدين، وغلبة الرجال.

زينة أكتوبر 2018

حين استيقظت، تناولت طعام الفطور مع والدَي، وبعد انطلاق والدي إلى العمل، جلسنا وحدنا أنا ووالدتي، وانسكبت دمعتي مباشرةً، فارتميت في حضن والدتي ورحت أبكي وأبكي، مسحت والدتي على رأسي وشاركتني البكاء وهي لا تعلم سببه، ثمَّ انتظرت إلى أن هدأت، وسألتني:

- ما بكِ يا ابنتي؟ هل من خطبٍ مع أُسَيد؟ لِم أرسلكِ وحدك؟

رفعت رأسي ومسحت دموعي، ومن ثمَّ سردت لها القصة من بدايتها حتَّى هذه اللحظة. كنت أحكي لها بهدوءٍ ومن غير انفعال، لكن ومع كلِّ محاولاتي بجعل الأمر طبيعياً إلا أنَّ والدتي كانت تسمع وتبكي، سألتها:

- لِمَ تبكين؟ اعتقدتُ أنَّ حالتنا واضحة إلى حدٍّ ما! أراك متفاجئة جدَّاً يا أمِّي، ألم تشكِّي بالأمر؟
- بلى، شككت بالأمر، وشعرت بأنَّ هناك خطب متعلِّق بأمر الأطفال، لكن لم أشأ أن أتدخَّل، فأنتِ بعيدة عن عيني، كيف لي أن أقتحم مشاعرك بالإكراه؟! أردتُ أن أعطيك المجال

والمساحة الكافية لكِ ولزوجك، لكن لم يكن قلبي مطمئناً إطلاقاً، واستفسرت من والدة أُسَيد أكثر من مرَّة، لكنَّها لم تجبني بشكلٍ واضحٍ، فافترضت أنَّها قد تكون مثلي لا تعلم بأي تفاصيل. لِمَ لَمَ تحكي لي يا ابنتي؟ أهو أُسَيد من منعك من الحديث لي حول الموضوع؟

- أنا آسفة يا أمِّي لم أشأ أن أزعجك.
- تزعجينني؟ حسبي الله ونعم الوكيل. ما هذا الكلام؟
- أمِّي أرجوك لا تعاتبيني.
- أنا لا أعاتبك يا ابنتي، لكن كيف تحملين كلَّ هذه الهموم وحدك؟ أنا أمُّك.

وعادت والدتي إلى البكاء مُجدَّداً، فبتُ أنا التي أهوِّن عليها، وبعد عشر دقائق من البكاء والدعاء، سألتني:

- وهل بتَّ الطبيب بعدم جدوى أي محاولة جديدة؟
- لا أعلم، لم نتحدَّث حول هذا الموضوع.
- وكيف حال أُسَيد؟
- يحاول أن يتناسى حزنه بالعمل.
- وأنتِ ماذا ستفعلين؟

سألتني ذلك ونظرت إليَّ نظرةً فهمت مغزاها بسهولةٍ، ولسان حالي يقول: "لا يا أمِّي، لن أتركه، لست مستعدَّة لقرار من هذا النوع إطلاقاً".

أُسَيد ديسمبر 2018

عدتُ إلى المنزل وأنا أكاد لا أرى أمامي. وصلت فوجدته موحشاً وكئيباً لدرجة لا تطاق، كان مظلماً لا حياة فيه. دخلت إلى غرفة المعيشة، وأنا بحالة يُرثى لها، فوقع نظري على مكتبتي. نظرت إليها وبدأت أهذي بصوتٍ عالٍ وأكلِّم نفسي:

لِمَ كل هذا العلم؟ من أجل ماذا؟ ومَن؟

لِمَ كل هذه الثقافة؟ وكل هذا الفهم؟

لِمَ كل هذه الأبحاث؟ إلى أين سأصل ومن أجل من؟

ماذا سأفعل بكلِّ هذه المعرفة إن كنت عقيماً لا أنجب! ماذا ستفيدني كلُّ تقنيات النجاح في الحياة، إذا لم أجد من أطبِّقها عليه؟

ماذا سأستفيد إن أكملت وتابعت أبحاثي وأصبحت عالماً، إن لم يكن لدي ولد أنقل إليه خبرتي وعلمي وحكمتي؟

تبَّاً للعلم...

تبَّاً للعلم...

رحت أصرخ بتلك الجملة وأنا أهوي بالمكتبة على الأرض، أوقعتها كالمجنون، فتحطَّمت وارتطمت الكتب بشكلٍ مرعبٍ كما لو أنَّ قنبلة انفجرت في المنزل. لا تعد مكتبتي كبيرة للغاية، ولكن رغم ذلك ففيها خمسمائة كتاب كحدٍّ أدنى، أغلبها كتب علميَّة ودينية، ناهيك عن الكتب الثقافية.

لا أعلم كيف فعلت ذلك؟! ولا أعلم كيف لم يشعر الجيران من حولي بالصوت المرعب؟!

توقَّعت أن تأتي الشرطة، أو على الأقل أن يرنَّ أحدهم جرس الباب، إلا أنّ أيّاً من ذلك لم يحدث، لحسن الحظ!

جلست أمام ركام مكتبتي، التي غطَّت غرفة المعيشة بالكامل وحطَّمت كثيراً من الأثاث الموجود. جلست ساعة واثنتين وأنا أهلوس قائلاً:

"تَبَرُّع" هل هذا اقتراح يُقال لأُسَيد؟!

"تَبَرُّع!"

ومن ثمَّ انهرت بالبكاء، وبعد مرور ساعة شعرت بحاجةٍ إلى الحديث مع يزن، فاتَّصلت به ليحضر فوراً، وحين وصل ورأى ما رأى حاول

ألا يبدي استغرابه، لم يسأل عمَّا حدث ولماذا، لكنَّه حاول جاهداً أن يصطحبني معه إلى منزله، وكرَّر طلبه كثيراً:

- أرجوك، اذهب معي، لا تبقَ وحيداً.
- أودُّ البقاء في المنزل.
- كما تشاء.

لم نتحدَّث بعدها إطلاقاً، وعندما حان موعد النوم، أصرَّ مجدَّداً على اصطحابي معه إلى منزله، فنهضت بالفعل وذهبنا. لم تكن لديّ أي رغبة برؤية فعلتي الشنيعة التي اقترفتها بحقِّ مكتبتي. ذهبت معه، ولم يغمض لي جفن، كانت كلمات الطبيب تصمُّ أذاني.

"لا تضيع وقتك في عمليات الحقن، أنتَ لا تنجب، لكن لا تفقد الأمل، تستطيع أن تكون أباً، هناك كثير من المتبرعين".

تبّاً للعلم، تبّاً له.

أغمضت عينَيَّ وشعرت بأنَّ الصبح لن يطلع عليَّ مرَّة أخرى، وسأموت كمداً هذه الليلة.

زينة ديسمبر 2018

كنت أجهِّز نفسي للانطلاق بينما لم أكف عن معاودة الاتِّصال بأُسَيد، لكن عبثاً كانت كلُّ محاولاتي. إذ أصرَّت منى على اصطحابي معها إلى مزرعة أهلها، والتي تبعد عن المدينة ما يقارب الستين كيلو متراً، أردت ألا أذهب إلى هذه الرحلة إلا بعد أن أحصل على إذنٍ من أُسَيد، ولا سيما أنَّنا قد نبيت ليلةً في المزرعة.

خلال الشهر الماضي كان يحدِّثني أُسَيد بشكلٍ منتظمٍ، لكن منذ بداية ديسمبر ومكالماتنا تزداد تباعداً وتقلُّ زمناً وتفاصيلاً، هو يقتضب الكلام وأنا لا طاقة لي لاستجواباته. اتَّصلت به مائة مرة، لم يكن يرد على هاتفه الخليوي، ولا على هاتف المكتب، ولا هاتف البيت. شعرت بالقلق، لكنِّي حاولت ألا أجزع، فهذا التصرُّف ليس غريباً على أُسَيد، فحين ينشغل بأمرٍ ما ينسى ما حوله فعلاً، وبعد يومٍ كاملٍ من المحاولات، طلبت منِّي والدتي أن آخذ الأمر ببساطةٍ وأن أذهب برفقة صديقاتي وأستمتع بوقتي، وأكَّدت لي بأنَّ أُسَيد لن يمانع إن شاء الله، وبالفعل، ذهبت معهن.

انطلقنا في الصباح الباكر، كنت متحمِّسةً للغاية، وشعرت أنِّي أسترجع ذكرياتي القديمة، فخلال الشهر الماضي كانت نفحات طباعي القديمة وشخصيتي المنطلقة تظهر لي في كثيرٍ من المواقف، فالحياة في الوطن لا تشبه الحياة في الغربة بتاتاً. يدعوك كلُّ شيء هنا إلى الانطلاق، وإلى البهجة وإلى التفاؤل، حتَّى الطقس، ورغم أنَّنا في نهاية السنة، وفصل الشتاء لا يرحم هنا، إلا أنَّه جميل بكلِّ المقاييس. رائحة المطر لها تركيبة خاصَّة ومميَّزة، ووجه الشمس مشرقٌ بألوان زاهية، أمَّا القمر، فهو الأجمل على الإطلاق. لا أذكر أنِّي رأيت القمر في لندن! لا يظهر، إذ تحجبه الغيوم والضباب طيلة أيام السنة، صيفاً وشتاءً، فجراً ومساءً.

كنتُ مندفعةً بحماسةٍ وبهجةٍ وما إن ركبت السيارة معهن، وبدأن بالغناء والتصفيق بصوتٍ مرتفعٍ، حتى تبدَّدت بعض من تلك المشاعر، لكنِّي حاولت أن أضبط انفعالاتي، فأنا أدرك أنِّي بتُّ بعيدة عن أجوائهن، وأنَّ المشكلة لا تكمن بهن، إذ كنت أفعل الأمر ذاته معهن منذ سنوات، لكن في المقابل لم أستطع مشاركتهن هذا المهرجان، فأنا لا أحفظ الأغاني التي يرددنها. نظرن إليَّ باستغرابٍ بينما كنت جامدةً لا أتحرَّك ولا أتحدَّث، فسألتني سمر:

- ما بكِ زينة؟ هل أنتِ على ما يرام؟

أجبتها وأنا بالكاد أرسم الابتسامة على وجهي:

- أنا بخيرٍ، لا تقلقي، أشعر بدوارٍ خفيفٍ.

أعطتني قارورة ماء، وأكملن فقراتهن وبهجتهن إلى أن وصلنا إلى المزرعة. كان الطقس جميلاً في ذلك اليوم، من حسن الحظِّ أنَّنا في الشتاء، ففي الصيف كنَّا نستغلُّ خروجنا إلى مزرعة منى للسباحة، وأنا أعلم ماذا يعني ذلك، لم يعد يناسبني ذلك الأمر الآن.

وضعنا حاجياتنا وبدأنا بتحضير طعام الفطور، ومجدَّداً شعرت بأنَّ معظم أحاديثهن تشوبها الغيبة والسخرية، ناهيك عن النكات التي لا أفهمها بالفعل. انقبض قلبي مجدَّداً، وشعرت أنِّي لا أستطيع مجاراتهن، شعرت بالأسى لكن هذا هو الواقع، لقد تغيَّرتُ بالفعل، أنا لم أعد زينة القديمة، وأيّ تغيير يصبُّ في مصلحة تزكية النفس فهو من صالحي، عليَّ أن أكون سعيدة به.

ثمَّة أمور كثيرة لم أعد أتقبَّلها، وأنا مدركة للأمر، فحين فرغنا من الطعام وحضرنا القهوة لنحتسيها بهدوء على الشرفة، بدأن معظمهن بتدخين النرجيلة والسجائر، لم يكن الوضع على هذه الحال قبل بضع سنوات! ما الذي جرى في غيابي؟

نظرت إليهن باستهجان، ورحن يتغامزن ويضحكن، ثمَّ قالت لينا وهي تظنُّ أنَّها تمازحني:

- تحمَّلينا هذا اليوم يا زوجة الشيخ.

ثمَّ ضحكن جميعهن بطريقةٍ مستفزَّةٍ.

لا أعلم ما المضحك بالأمر!

زوجة الشيخ! هل تعتقد بأنَّ هذه النكتة ظريفة؟!

حين قالت ذلك، شعرت أنَّها تنال من أُسَيد، كيف تسمح لنفسها أن تتعدَّى عليَّ بهذه الطريقة؟ شعرت بالأسى حيال الموقف، وودت لو أنتفض من مكاني وأعود إلى منزلي حالاً، لكن كيف سأعود وحدي في مكانٍ لا مواصلات عامَّة فيه. صمتُّ وتظاهرت بأنَّ مزحتها السخيفة ليست بسخيفةٍ، لكن ازداد قلبي انقباضاً، ولا سيما أنَّها ذكَّرتني بأُسَيد وأنِّي لم أستأذنه لهذا المشوار المزعج. تجاهلت جلستهن تلك وحاولت الاتِّصال به مجدَّداً، لكنَّه لم يرد، أرسلت إليه رسائل كثيرة وأخبرته بأنِّي أشتاق إليه ومن ثمَّ قرَّرت أن أصلي الظهر، حينها خطر ببالي سؤال: يا ترى هل أستطيع أن أقصر وأجمع الظهر مع العصر؟ وببراءةٍ سألت مني:

- هل تقصرين الصلاة؟ أم أنَّ المسافة أقل من الحدِّ الأدنى للقصر والجمع؟

نظرت إليّ نظرة استغرابٍ وقالت لي:

- بصراحةٍ لا أعلم.

ومن ثمَّ قالت سمر:

- لا تقلقي، في المرة القادمة سنحرص على قياس المسافة، لكن لا تنسي أن تحضري معك مسطرة.

وانفجرن جميعهن بالضحك مجدَّداً.

غريبٌ أمرهن! هل هذا السؤال مدعاة للسخرية؟!

لم أجبهن، نهضت وفتحت تطبيق الخرائط على هاتفي وأدركت أنَّي لا أستطيع قصر الصلاتين وجمعهما، ولحسن الحظِّ في تلك اللحظة تبعتني صديقتنا مروة، فقالت لي:

- لا عليك زينة، دعك منهن، القبلة من هذا الاتِّجاه، سأصلِّي أنا أيضاً.

أجبتها:

- لست متضايقةً، أعلم أنِّي بتُّ أكثر حرصاً على اتِّباع الأمور الفقهية بحذافيرها، وأعلم أنَّ كثيراً من الناس يعتبرون هذه التصرُّفات تشدُّداً، ولا ألومهم، فأنا كنت أتبنَّى الرأي ذاته.
- تجاهليهن، إنَّهن يسخرن من كلِّ شيء، ومن أي قول ومن كلِّ فعلٍ، أيّاً كانت صاحبة تلك القول أو ذلك الفعل.
- لكنِّي متأكِّدةً بأنَّ سؤالي ليس غريباً إلى الحدِّ؟!
- ليس غريباً إطلاقاً، أنا أيضاً لا أحبُّ طريقتهن في المزاح والكلام.
- كيف تتحمَّلين المداومة على مرافقتهن إذن؟
- هنَّ صديقاتنا، ولا أستطيع إجبارهنَّ على شيءٍ، وما دمن لا ينوين السوء بي، فلا بأس.
- دعيني أسألك سؤالاً وأجيبيني بصراحةً: هل باتت تصرُّفاتي مزعجة فعلاً؟
- لا إطلاقاً، انسي الأمر، لستِ المُستهدَفة الوحيدة هنا.
- لكنِّي فعلاً لا أجد أنَّ الأمر ممتعاً البتة، بل إنه جارح ومزعج.
- ابتهجي، واستمتعي بوقتك، اشتقنا إليكِ زينة.

ابتسمت، وأقمت الصلاة، وبعدها مضى الوقت بسلامٍ نسبيٍّ إلى أن بدأت السهرة. لم أكن أودُّ السهر معهن بالأساس، فقد اعتدت النوم

مبكراً، لكنِّي لم أكن لأنجو من لسانهن السليط إن ذهبت إلى الفراش قبل الساعة التاسعة مساءً.

بدأت السهرة بالرقص والغناء والتمايل، لم أستطع مشاركتهن، فأنا لا أجيد الرقص الشرقي، ومن حسن الحظِّ أنَّهن تعبن ولن تطول الوصلة كثيراً، وحين جلسن، حاولت مجاراتهن في أحاديثهن، كان حديث السهرة منحصراً بأزواجهن، وعائلاتهن، كلُّ امرأةٍ منهن تتحدَّث بالسوء عن زوجها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ومن ثمَّ يعرجن على حمواتهن، فيتلفَّظن بأسوأ الكلمات. أعلم بأنِّي لست الكنَّة المثالية، ولا أنكر بأنَّ لي تحفُّظات كثيرة على تصرُّفات حماتي، لكن رغم ذلك يستحيل أن أصفها بتلك الأوصاف التي أسمعها على لسان صديقاتي وهن ينعتن أمَّهات أزواجهن، وجدَّات أولادهن! ليتني أعلم كيف يتجرَّأن ويتحدَّثن بهذه الطريقة؟!

بقيت صامتةً وأنا أشعر بالانزعاج أكثر فأكثر، وحين بدأن يتطرَّقن إلى أطفالهن، اضطَّربت دقَّات قلبي، إذ كان الكلام يدور حول المشقَّة والتعب، فرحن يشكين ويتأفَّفن ويتذمَّرن. أعلم أنَّ هذا الشعور طبيعي مع تراكم المهمَّات، وكثرتها وصعوبتها على الأمَّهات، لكن هذه هي نقطة ضعفي، فماذا بإمكاني أن أفعل؟!

شعرت برغبةٍ في البكاء لكنِّي تماسكت إلى أن وجَّهت إحداهن السؤال المتوقَّع لي:

- وماذا عنكِ يا زينة؟ إلى متى ستؤجِّلان الفكرة؟

نظرت إليها وأنا في قمَّة ارتباكي، وقلت لها:

- لا أعلم! إلى أن يشاء الله.

ردَّت سماح قائلة:

- استمتعي بأيامك ولا تستعجلي، تستطعين الاستيقاظ والنوم متى شئت، واحتساء القهوة بسلامٍ، ومشاهدة الأفلام والمسلسلات بالتوقيت الذي ترغبين فيه. لا صراخ، ولا بكاء، ولا إزعاج... آه، أجِّلي الأمر أجِّليه قدر استطاعتك.

ابتسمت وقلبي يرتجف من وقع كلماتها، ويبدو أنَّ منى شعرت بأمري، فغيَّرت الموضوع بسرعةٍ، أمَّا أنا فحاولت أن أهدأ وألا ألفت انتباه أحدٍ إلى البراكين التي تتفجّر في صدري، وحين انتصف الليل استأذنت منهن كي أذهب إلى الفراش، فلم يعد بإمكاني أن أفتح عينيّ بالفعل.

تسلَّلت إلى الفراش وأنا أفكِّر بخيبتي، فقد كان الدافع لمجيئي مع صديقاتي اليوم هو الحصول على استراحةٍ من محاولات والدتي اليوميَّة بإقناعي بالانفصال عن أُسَيد.

ما هذه الورطة التي أنا بها الآن؟! آمل أن يمضي الوقت سريعاً وينتهي هذا المشوار على خيرٍ.

أُسَيد ديسمبر 2018

حين استيقظت ووجدت نفسي في منزل يزن، للوهلة الأولى نسيت ما حدث، ولِمَ لست في منزلي بالأساس، لكن بعد ثانيةٍ من الاستغراب عدت إلى الواقع وتذكَّرت الأسى دفعةً واحدةً. نهضت من الفراش وخرجت من الغرفة لأجد يزن في غرفة الجلوس يحتسي قهوته، فنظر إليَّ وقال لي وهو يبتسم:

- صباح الخير، هل نمتَ جيِّداً؟

أجبته وأنا أحاول أن أتوازن:

- صباح النور، لماذا لم توقظني لصلاة الفجر؟
- دخلت الغرفة فوجدتك لم تشعر بي، خمَّنت أنَّك قد غفوت متأخِّراً جدّاً، لذا لم أشأ أن أوقظك.
- سامحك الله، إذن سأقضي الصلاة ثمَّ أنطلق إلى المكتب، عن إذنك.
- حسناً أنا بانتظارك، لكن دعنا نتناول طعام الفطور معاً، اتَّفقنا.

تناولت بضع لقيمات، وحين هممنا بالخروج بحثت عن هاتفي فلم أجده، قلت في نفسي: إذن لهذا السبب لم أسمع المنبِّه عند صلاة الفجر،

لعلِّي نسيته في المنزل. قرَّرت أن أتخلَّى عن الهاتف الخليوي لهذا اليوم، وذهبت مباشرةً إلى المكتب، وحين وصلت رحت أقرأ الرسائل الإلكترونية الواردة، لأجد من بينها رسالة مرسلة من الدكتور قيصر، كتب فيها:

- عزيزي أُسَيد، كيف حالك؟ وكيف حال الأهل؟ أتمنَّى أن يكون الجميع بصحَّةٍ جيِّدةٍ؟ ما أخبارك؟ وما آخر أبحاثك؟ منذ مدَّة طويلة لم ترسل إلي أيَّاً من أوراقك البحثية الجديدة، أحبُّ أن أقرأها حين ترسلها أنتَ إلي، فأشعر بالفخر الشديد أنَّ هذا العالِم المتألِّق، كان طالبي في يومٍ من الأيام. كيف هي استعداداتك لمؤتمر لندن القادم؟ لم ترسل إلي أي برنامج حول مشاركتك به! لم يبقَ سوى شهرين على موعد إقامته، ألم يحدِّدوا البرنامج بعد؟ وماذا عن المتحدِّثين وورشات التدريب؟ هل ستشارك ضمن تلك الفعاليات؟ كما أخبرتك سابقاً سأرسل أحد طلابي المشاركين بورقةٍ بحثيَّةٍ كي يقدِّمها، أمَّا عنِّي فلست متأكِّداً إلى الآن من مجيئي، لكن كما اتَّفقنا حاول أن ترتِّب موعداً مع بدر، والتقِ به، هو طالبٌ متميِّزٌ جدَّاً، أرجو أن توجِّهه، هو ذاته الذي رشحته لك من أجل الانضمام إلى فريقك بعد تخرُّجه، وبرأيي ستكون فرصة جيِّدة كي تقابله وجهاً لوجه، فتقيِّم

مهاراته ومستواه، ويحدِّثك عن المجالات التي يفضِّلها. ستجد في المرفقات سيرته الذاتية ووسائل الاتصال الخاصّة به، وفي كل الأحوال، سيرسل إليك بريداً إلكترونياً ويتواصل معك قبل مجيئه.

بالمناسبة، هل ستأتي إلى الوطن خلال إجازة نهاية السنة؟ أعلمني بذلك كي نلتقي.

تحيَّاتي وتقديري، قيصر.

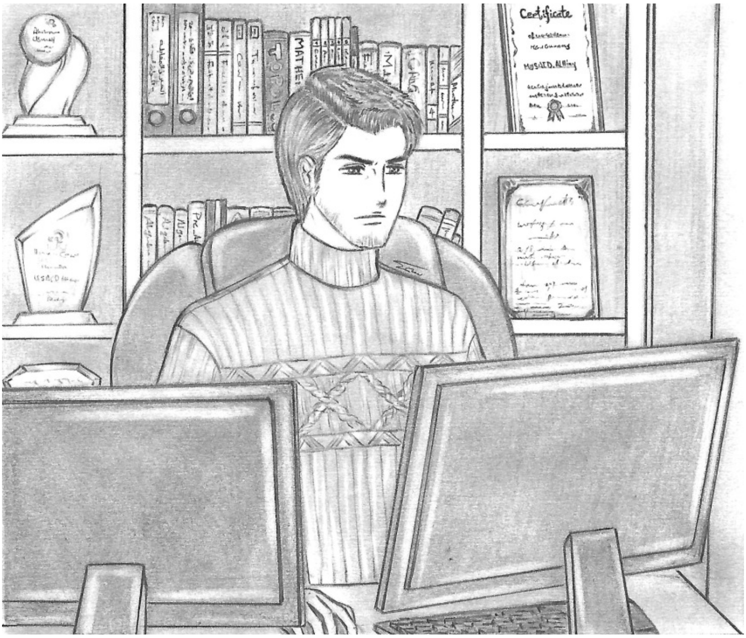

قرأت الرسالة، ورحت أسخر من نفسي: أي عالمٍ يقصد؟ وعن أي تألُّقٍ يتحدَّث؟ ليتك تعلم يا دكتور قيصر ما حلَّ بطالبك. هممت بالرد على رسالته، وكتبت له:

- عزيزي الدكتور قيصر، كيف حالك؟ وكيف حال الصغيرة؟ وكيف حال الأهل؟ أرجو أن تكونوا جميعاً بصحَّةٍ جيِّدةٍ وبأفضل حال. شكراً لسؤالك، نحن بخير والحمد لله. لقد تمَّ بالفعل تحديد فعاليات المؤتمر بما فيها من محاضراتٍ وورشات عمل وتدريب، لكَنّني لن أشارك في أيٍّ منها، لدى طلابي أوراق بحثية سيعرضونها خلال المؤتمر، أتصدِّق؟ أنا لم أسجِّل في المؤتمر إلى الآن! عليَّ أن أقوم بتلك الخطوة قريباً، هذا إن كان التسجيل ما يزال متاحاً.

أعتذر عن تقصيري في التواصل معك، أنتَ الأساس يا دكتور، سأتواصل مع بدر، وسيكون كلُّ شيء على ما يرام. سآتي إلى الوطن في عطلة نهاية السنة، فلديَّ بعض الأمور التي يجب أن أنهيها وأبتُّ في أمرها.

أراك قريباً، تحياتي،

طالبك أُسَيد.

أرسلتها ورحت أكمل عملي، لم تمر عشر دقائق حتَّى وصلتني رسالةٌ جديدةٌ من قيصر.

- يسعدني أن أراكَ ونلتقي قريباً، لكن يرادوني شعور بأنَّك لست على ما يرام يا أُسَيد! هل من خطبٍ ما؟ أهي مشكلات في العمل؟ أم الغربة؟ أم ماذا بالضبط؟

أجبته مباشرةً:

- اعذرني إذ جعلتك تقلق، لكنِّي بالفعل لست بأفضل حالاتي، وأرجو أن أعود إلى توازني بالقريب العاجل، ادعُ لي، وحين سنلتقي سنتحدَّث أكثر، فأنا بحاجةٍ إلى نصيحتك في أمورٍ عديدة. أحتاج إلى رأيك السديد وحكمتك وثبات عزيمتك. لم أعد أُسَيد الذي تعرفه يا دكتور. لقد تغيَّرت، تغيَّرت كثيراً.

مرّت ساعة ومن ثمَّ أرسل إلي:

- أُسَيد، أحاول الاتِّصال بك لكنَّك لا ترد، أرسل إلي أو حدِّثني إن شئتَ لأطمئنَّ عليك، فقد انشغل بالي بالفعل. أسأل الله أن يرشدك ويدلَّك دوماً إلى طريق الخير والفلاح. أنتظر جوابك.

قرأت رسالته وقلت في نفسي: من حسن الحظِّ أنَّ هاتفي الخليوي ليس معي، فإن أردت إكمال الحديث فمن الأفضل إكماله عن طريق الرسائل، أخشى أن أنفعل عبر الهاتف، وأن تقف الكلمات في حلقي، وأن أتلعثم، ولا أجد ما يعبِّر عن شعوري فأصمت وأُحرج نفسي وأضيع وقته.

تلوت البسملة، ورحت أكتب بهدوء وتأنٍ.

- اعذرني، فقد نسيتُ اليوم هاتفي الخليوي في المنزل وهو ليس بحوزتي الآن. لا أودُّ إثارة قلقك، لكن في الواقع ثمَّة أفكارٌ وتساؤلات تدور في رأسي، وأشعر بأنَّكَ مَن يستطيع مساعدتي في إيجاد إجاباتٍ لها. لطالما تساءلت: ما هو الأصعب؟ فقد الشيء أم عدم الحصول عليه بالأساس؟ كيف يكون شعور المرء حين ينتظر شيئاً، يترقَّبه، ويسعى إليه جاهداً، ومن ثمَّ يحصل عليه، فيتحقَّق مناه، ويبني الآمال والأحلام، وبعدها يختفي كلُّ ذلك بطرفة عينٍ؟ كيف تكون حالته؟ هل يصبِّره أنَّه عاش جزءاً ولو بسيطاً من هذا الحلم؟ هل يعزِّيه أنَّ في جعبته أحداثاً وكلماتٍ ومواقف؟ أم تصبح تلك الذكريات نقمة؟

دعني أسألك: كيف كنتَ قويَّاً في وجه الابتلاء؟ كيف استطعتَ اجتيازه؟ ما السر الذي جعلك تتماسك وتبقى صلباً؟ لطالما سمعنا وقرأنا ودرسنا عن الابتلاء وكيف يواجهه الإنسان بالصبر والعزيمة وقوَّة الإيمان، قوَّة الإيمان التي اكتشفتُ أنِّي لا أمتلك منها إلا القشور. لقد صُدمت، لم أعتقد أن تخذلني نفسي إلى هذا الحد، كنت أظنَّني أقوى، وأمتن، وأشجع، لكنِّي لم أكن

أَيَّاً من هؤلاء. اكتشفت أنِّي هشٌّ، ضعيف، لا ركن لي ولا عماد، كقشٍ مرميٍّ في وجه الريح.

أين العلم ودروس الدين، والوعظ؟ أين مفاهيم الصبر والفتنة والأجر والثواب؟ أين الإيمان بالقضاء والقدر والأرزاق المقدَّرة؟

كيف أكون أنا الذي درست، وفهمت، وتعلَّمت، وعلَّمت، جاهلاً لا يحسن التطبيق؟ أأنا شخصٌ يحمل العلم، ولا يفهمه؟ أم يفهم العلم، ولا يطبِّقه؟أم يطبِّقه بنيَّةٍ خاطئةٍ؟ فتصبح أعماله بذلك هباءً منثوراً؟

أخبرني أرجوك: هل فشلتُ في الامتحان؟ولا أمل لي في النجاح؟ كيف سأنهض بنفسي وأردعها بينما هي منهارة تمام الانهيار؟ نفسي التي لا تصغي إليَّ ولا تفهمني! كيف سأجتاز الأمر بينما برمجت حياتي على خطَّةٍ لم يُكتب لها التحقُّق؟ كيف سأعيد صياغة طموحي وأهدافي التي انهارت بين ليلةٍ وضحاها؟

منذ بدأت أفهم ماهيَّة الحياة ولِمَ خلقنا، نذرت نفسي لأصبح خليفةً في الأرض، تماماً كما شاء الله لنا نحن بنو البشر أن نكون، بأمنياتٍ كبيرةٍ، وتوقُّعاتٍ تفوق الخيال، بنيت ما بنيته كي أربِّي

ذريَّةً صالحةً، أربِّي من يفوق علمه علمي، وفهمه فهمي، فينجز ما أعجز أنا عن إنجازه، ويصل إلى أبعد ما أصل أنا إليه، فينطلق في هذه الدنيا برسالةٍ أسمى من رسالتي، وعزيمةٍ أشدَّ من عزيمتي، وأدواتٍ أكثر فاعليةً من أدواتي، فتعاد الكرَّة مع كلِّ جيلٍ، بفهمٍ يزداد عمقاً وعلمٍ يشعُّ تألُّقاً، وتأثيرٍ يتضاعف عدداً ومدى لكلِّ ما فيه خير وهدى، هكذا إلى أن تقوم الساعة.

ثمَّ ماذا حصل؟! لقد تبخَّرت كلُّ أحلامي وذهبت سدى. أنا يا دكتور قيصر، عقيمٌ لا أنجب. منذ علمت بالأمر وحالتي تتدهور من سيءٍ إلى أسوأ، أشعر بالحيرة والتخبُّط والألم، وأحتاج إلى طمأنةٍ، ودعاءٍ، ونصيحة.

طمئنِّي، وقل لي: هل سأستطيع تجاوز الأمر؟ هل سيطمئنُّ قلبي يوماً؟ هل ستسكن روحي؟ ويتوقَّف نزيف ألمي؟ هل سأتقبَّل الأمر بما يرضي الله قولاً وفعلاً وفهماً وسلوكاً ورضاً وسكينةً؟ وادعُ لي بالثبات، ادعُ لي أن أكون أهلاً لهذا الامتحان الصعب، ادعُ لي ألا أفقد صوابي، وألا أظلم أحداً معي، ادعُ لي أن أرضى، وأحظى بالسلام والاستسلام بكلِّ ما تحمله تلك المفاهيم من معانٍ ومشاعر وأفعال وأقوال. أن تهدأ نفسي وتعود إلى أفضل ممَّا كانت عليه.

وختاماً: انصحني، ماذا أفعل؟ كيف سأكمل الطريق؟ ماذا سأختار، ولماذا؟ أين سأذهب ومن أجل ماذا؟ ساعدني على أن أخرج من هذا الصندوق الذي وضعت به نفسي، وجِّهني، وعلِّمني، فأنت قدوتي.

أطلت عليك، فاعذرني.

أُسَيد.

زينة ديسمبر 2018

- لا يرد، لا يرد، لا يرد! ما هذا الطبع الغريب؟ لماذا لا يرد.

كنت أتجوَّل في البيت وأنا أشتكي، فسمعتني والدتي:

- ما الأمر؟
- لا شيء.
- أخبريني ما الأمر؟ من هو الذي لا يرد؟
- من غيره! أُسَيد طبعاً.
- ماذا دهاه بالضبط؟ وماذا ينوي؟
- لا أعلم يا أمِّي، أتَّصل به منذ يومين، أين هو؟
- هل من عادته ألا يرد لأيام؟
- لا أعلم يا أمِّي.
- كيف سنتأكَّد أنَّه بخيرٍ، هل سألتِ حماتك؟
- لا أريد أن أسألها فأبدو سخيفةً أسأل عن زوجي ولا أعلم أين هو.

وقبل أن أنهي كلامي وصلتني أخيراً رسالةٌ منه، فتحتها بسرعةٍ، كتب فيها: "لقد نسيت هاتفي وكنت مشغولاً للغاية، رأيت مائة وثمانين رسالةً واتِّصالاً منك، لا تقلقي أنا بخيرٍ".

تجمَّدت في مكاني، وبدأت أذرف الدموع، أهذا ما استطاع أن يكتبه بعد هذا الغياب؟!

أمسكت والدتي الهاتف من يدي وهي تقول:

- ماذا قال؟ ما بكِ زينة؟

وقرَأتْ الرسالة، ثمَّ قالت لي:

- ما بكِ؟
- لا أعلم يا أمِّي، هناك شيء غريب لا أفهمه!
- أنا أيضاً بدأت أشكُّ في الأمر منذ فترة، لكن لم أشأ أن أتدخَّل.
- ماذا تقصدين؟
- أشعر أنّهَ يخطِّط لشيءٍ ما.
- أرجوك يا أمِّي أكملي كلامك، يخطِّط لشيءٍ مثل ماذا؟

صمتت والدتي وراحت تحرِّك رأسها يميناً ويساراً، فتوسَّلت إليها أن توضِّح لي أكثر، فقالت لي:

- أتذكرين ابن عم أُسَيد الذي توفّي السنة الماضية؟
- أتقصدين منير رحمه الله؟
- نعم.
- وما علاقته بما نحن فيه؟
- كلُّ العلاقة.
- كيف؟ أكملي كلامك أرجوك!
- أرملة منير، أروى، شابَّةٌ صغيرةٌ وجميلةٌ، رأيتها حين ذهبت إلى العزاء مع حماتك العام الماضي، أذكر أنَّ لديها طفلاً صغيراً، لا يتجاوز عمره الأربع سنوات على ما أعتقد. الطفل من عائلة أُسَيد، يحمل اسم ودم العائلة ذاتها. هل فهمت الآن؟

صرخت بأعلى صوتي، وأنا أبكي:

- لا!
- سمعت والدة أُسَيد تتحدَّث مراراً عن مأساة ومعاناة أروى، وكيف ترمَّلت وهي صبية، وعن الطفل، لطالما كرَّرت تلك الفكرة بأنَّه ابنهم جميعاً، وسيرعونه، ويأمنُّون له أفضل حياة بعد وفاة أبيه، ولن يشعر بأي نقصٍ....
- مجدَّداً ما علاقة أُسَيد بالأمر؟

- لن يجد أُسَيد فرصةً أفضل من تلك كي يحظى بعائلةٍ وولدٍ، هل تفهمين أم أنَّك غبية بالفعل؟
- يتزوَّج؟ تقصدين أنَّه سيتزوج أروى؟
- نعم، بصراحة منذ أن أرسلك وحدك إلى هنا، وحين رأيت أنَّ اهتمامه بك واتِّصالاته بك يقلُّون يوماً عن يوم، شعرت بخطبٍ ما، ثمَّ ماذا عن أخته التي ستأتي غداً من استراليا، لطالما كانت تشتكي من عناء وطول الرحلة، وكانت هنا بالصيف، ويوم زفافك بالكاد أتت، ماذا بها الآن تأتي مسرعةً! إذن فهم يضمرون شيئاً ما.

لم أجد أي إجابة أدافع بها عن أُسَيد أو عن كرامتي، صمتُّ وذهبت إلى غرفتي ورحت أفكِّر، هل يمكن أن يكون هذا الكلام صحيحاً بالفعل؟

كيف سأتأكَّد؟ هل أسأله؟ لكنَّه لن يجيب. هو لا يجيب عن الرسائل العادية، قلت في نفسي وأنا أحاول تهدئتها: أنا متأكِّدة أنَّ كلَّ ما حدث محض صدفة، لا يعقل أن يفكِّر أُسَيد بفعلةٍ كتلك.

لكن لم تهدأ نفسي ونال الشكُّ منها ما نال، فقرَّرت استقصاء أي معلومة من حماتي حين أزورها غداً لأسلِّم على أميرة.

أُسَيد ديسمبر 2018

رغم إصرار يزن على أن أبيت مجدَّداً في منزله، إلا أنَّني اضطررت إلى العودة إلى البيت مُكرهاً لا بطلاً، فأنا بحاجة إلى أغراضي وأريد ملابس نظيفة، وهناك كثير من الأوراق اللازمة، وحين دخلت تجنَّبت مجدَّداً النظر إلى المكتبة وما فعلته بها، أمسكت هاتفي فرأيته مغلقاً قد نفدت بطَّاريته، وصلته بالشاحن وذهبت لأستحمَّ، وبعد خروجي فتحت الهاتف لأجد مئات الرسائل والاتِّصالات من زينة، ووالدتي، وقيصر بالطبع.

أرسلت رسالة لوالدتي وأخبرتها أنِّي على ما يرام، ثمَّ قرأت رسائل زينة بسرعةٍ، كانت أغلبها سلام وسؤال عني واستئذان لمرافقة صديقاتها، وما إلى ذلك.

رددت بجملةٍ واحدةٍ ولم تكن لديَّ أي طاقة للحديث معها، أعلم ألّا ذنب لها بما يحدث معي الآن، لكن عليَّ أن أبعد كآبتي عنها، ما ذنبها كي أُقحمها بما أنا فيه الآن، فلتهنأ بوقتها، ولأبتعد أنا عن المشهد قدر الإمكان. فكَّرت مجدَّداً، ها هي ذي الفتاة، تعود إلى نشاطها السابق، وتقابل صديقاتها، وترافق والدتها، وتستمتع بوقتها، لماذا أعيدها إلى

هنا؟ هنا حيث لا جديد ولا قديم، لا ولد ولا أمل، لا شيء سوى مزاجي المتقلِّب، وقوانيني الصارمة. عليَّ أن أرحمها، وأُقنعها مجدَّداً بالانفصال، فلا طاقة لدي في رؤيتها تعاني على هذا النحو.

قرَّرت أن أسافر بأسرع وقت، فلا رغبة لي بالعمل، ولديَّ أيام إجازة متبقِّية تكفيني حتَّى آخر السنة.

وبالفعل، فتحت موقعاً لحجز التذاكر، وحجزت بطاقةً لرحلة ذهاب فقط. أنهيت الحجز ورحت أتأكَّد من معلومات البطاقة التي وصلتني على البريد الإلكتروني، فوجدت رسالة قيصر، يبدو أنِّي لم أنتبه إليها بعد خروجي من المكتب.

- أُسَيد، سألتني: "هل فقد الشيء أصعب من عدم الحصول عليه بالأساس؟!"، في الحقيقة، لا أملك جواباً دقيقاً لهذا السؤال، إنَّ الأمرين كليهم امتحان. لم يكن امتحاني سهلاً، ولم أكن قويّاً كما تظن، ففي بداية الفاجعة كانت حالتي في غاية الصعوبة، ومع مرور الأيام منحني الله الصبر والرضا.

ستنهض يا أُسَيد، ستنهض وتتجاوز الأمر، لكن سيبقى في قلبك حزنٌ راسخٌ، لا يغادر ولا يزول، سيطمئنُّ قلبك، لكنَّه قد يضطَّرب في لحظاتٍ ما. سيتوقَّف النزيف، لكن لن يندمل

الجرح للأبد. ستسمع كلمات وترى مشاهد تنكأ جرحك بين الفينة والأخرى، وستحاول مداواته ومراعاته مرة تلو الأخرى. ستتفاجأ بقدرتك على تخطِّي الأمر وقبوله والتسليم به، لن يتمَّ الأمر بين يومٍ وليلة! الوقت، سيؤدِّي الوقت دوراً مهمّاً، حاول أن تسفيد من مروره قدر الإمكان، حاول أن تمشي خطوة إلى الأمام في كلِّ يوم، مهما كانت صغيرة.

ستعود قوياً، بإيمانك وعزمك، وبرضاك وفهمك، وبكلِّ ما أوتيت من إصرارٍ وإقدامٍ. لا تنسف علمك، ولا تهدم تقاك، تروَّ ولا تحكم على نفسك بظلمٍ وجورٍ. امتحانك ليس بالامتحان السهل نعم، ولكن على قدر أهل العزم تأتي العزائم.

ابدأ ببناء خطَّة جديدة، وفكِّر، إن لم يكتب لي الله هذا الطريق، فأي الطرق أسلك؟ أتعلم، لا أحبُّ مقولة "تجري الرياح بما لا تشتهي السفن"، أرى فيها شيئاً من الاستكانة والاستسلام، بل تجري الرياح بما شاءه الله، وبما قدَّره، وعلينا أن نمضي قدماً، فنعيد توجيه سفننا، ونعيد توازنها، فلا نتركها تتمايل في عرض البحر وبين الأمواج ونحن نلوم الرياح لأنَّها أتت بما لا نشتهيه.

أَمَّا وقد طلبت نصيحتي، فاعتكف، فأنتَ يا أُسَيد لا ينقصك وعظ أو حكمة. نعم، بإمكاني تذكيرك ونصحك، لكنِّي على ثقةٍ

تامَّةٍ بأنَّ نفسك أقرب إليك، وستقدر على مداواتك وفهمك أكثر من أي شخصٍ آخر. دع نفسك تتحدَّث إليك، وأعطها فرصة، وسترى كم هي قوية، وتقية، ونقية. اعتكف، وأظهر أفضل ما لديك. قيصر.

زينة — ديسمبر 2018

وددت أن يتحدَّث معي بشكلٍ طبيعيٍّ على الأقل كي يبدِّد شكوكي حول ما سمعته، لكنَّه لم يفعل، ولم أشأ أن أتَّصل به، ولا سيما أنَّه أكَّد على فكرة انشغاله الكبير هذه الفترة. تركته وشأنه ولم أصر عليه. مضى اليوم ببطءٍ شديدٍ إلى أن حان موعد ذهابي مع والدتي كي نزور حماتي ونسلِّم على أميرة. كانت الأمور على ما يرام، إلى أن بدأت والدتي وحماتي بممارسة هوايتهما بالأخذ والردِّ، لا أعلم لماذا تتَّبعان هذا المنهج الغريب في التعامل. بدأ الأمر حين سألتني حماتي:

- هل تعلَّمتِ طبخاتٍ جديدةً خلال زيارتك الطويلة هذه؟

لم أفهم ما عنته بالضبط، لكنِّي أجبتها:

- لا!

هنا تدخَّلت والدتي بقوَّةٍ:

- تجيد زينة الطبخ بشكلٍ جيِّدٍ، وهي تحضِّر كلَّ الأطعمة التي يحبُّها ولدك.

- لقد ذكر أمامي مرات عديدة أنَّه يشتاق لأكل ورق العنب، فقلت في نفسي لعلَّ زينة لا تجيد طبخه.

تنهَّدت وأدركت أنَّ الموجة ستعلو الآن، لم تكن لديَّ أي طاقة للدفاع عن نفسي، ثمَّ من قال إنَّ أُسَيد يحبُّ ورق العنب؟! لطالما أخبرني أنَّه يجده دسماً ولا يحبِّذه كثيراً، لربَّما كان يجامل والدته، يا إلهي كم هو صعب التعامل مع الحموات. صمت ولم أجبها، لكن تولَّت والدتي المهمَّة عنِّي، في الحقيقة لم أتابع كلامهما، فبالي مشغولٌ جدَّاً حول أُسَيد، وبينما كانتا تتبادلان الاتِّهامات والوصفات وتتحدَّث كلُّ واحدة منهما عن طريقتها ومهارتها بالطبخ، ومدى تعلُّق أولادها بمأكولاتها، نظرت إلى أميرة وحاولت أن أنزوي معها لفتح حديثٍ خاصٍّ بنا، تبادلنا أطراف الحديث ثمَّ رأيتها تنظر إلى ساعتها، فسألتها:

- هل لديكِ موعد؟
- زينة، سيقام الدرس الأسبوعي لحلقة النساء في المسجد بعد قليلٍ، أودُّ أن أذهب وأحضر الدرس، فأرى صديقاتي ومعلماتي في المسجد هل ترافقينني؟ هو المسجد ذاته الذي تعلَّم فيه أُسَيد، وحفظ القرآن ودرَّس فيه أيضاً قبل سفره.

فكَّرت قليلاً، لا أعلم لماذا لم أشعر برغبةٍ في الذهاب، لكن وجدت نفسي بين أمرين، إمَّا أن أرافقها، أو أبقى وأسمع حديث والدتي وحماتي، ففضَّلت الهروب على البقاء وسماع الكلام المزعج الذي لا طائل منه.

وبما أنِّي قرَّرت مرافقة أميرة، سبقتني والدتي إلى المنزل، لكن وقبل أن ننطلق، أبت حماتي إلا أن تزعجني مرَّة أخرى، ناولتني رزمةً من المال وهي تقول:

- هذه من أُسَيد، طلب منِّي أن أعطيك إياها حين أراكِ.
- ولِمَ يرسل المال؟ لديَّ ما يكفيني، وأنا عند أهلي!
- تعلمين طبعه، لا يحبُّ أن يقصِّر في شيء.

لم أصدِّق ما أراه وما أسمعه، لِمَ تتعمَّد حماتي إحراجي بهذه الطريقة أمام والدتي وأميرة؟! ما الذي ستجنيه من هذا الموقف السخيف؟ لم يكن بودِّي أن أستلم رزمة المال تلك، بل وددت لو أرميها بعيداً، لكن في الوقت ذاته لم تكن لديَّ أي طاقة لردَّة فعل حماتي في حال عاندتها. أخذت الرزمة ودسستها في حقيبتي وأنا غاضبة أشدَّ الغضب، إن كان يودُّ إرسال المال، لِمَ لا يرسله إلي مباشرة؟ لِمَ لا يخبرني على الأقل بالأمر؟ كيف يفكِّر بهذه الطريقة! ثمَّ أنا عند أمي وأبي، إن حدث واحتجت إلى شيء، فأنا لست وحدي، ما الذي دهاه!

لم أعقِّب ولم أقل شيئاً، وانطلقت مع أميرة إلى المسجد. لطالما حكى لي عنه أُسَيد، لديه ذكريات كثيرة في مسجده، هكذا كنت أشعر من خلال كلامه ووصفه والحكايات التي رواها لي.

لم يكن المسجد كبيراً، بل متوسِّط الحجم، كانت سجاجيده متواضعةً ومستهلكةً إلى حدٍّ ما. دخلنا إلى قسم النساء، فوجدنا المعلمة قد بدأت بالدرس فعلاً، ألقينا السلام وجلسنا على الأرض، لم يكن الدرس الديني الأول الذي أحضره في حياتي، إلا أنَّه كان مختلفاً، حاولت أن أركِّز فيما تقوله المعلِّمة لكنَّني لم أفلح، كنت أتأمَّل وجوه البنات والصبايا وهنَّ يسمعن الدرس، ثمَّ رحت أتأمَّل ملابسهن، وملابس المعلمة، ركَّزت في كلِّ شيء عدا الدرس ذاته، كنت أنظر إلى أميرة وهي تبتسم طيلة الوقت ولا سيما حينما يقع نظر المعلمة عليها، فتتبادلان ابتسامة مفادها، "سألقي السلام عليكِ حالما ينتهي الدرس".

مضت ساعة ومن ثمَّ أذَّن العشاء، فصلَّينا مع الإمام، وبعدما سلَّمنا قالت لي أميرة:

- لطالما أمَّنا أُسَيد، هل تستطعين تخيُّل شعوري وأنا هنا في قسم النساء وأخي ذو الصوت العذب والتلاوة الجميلة هو من يؤمُّ الناس في الصلاة؟

حين قالت لي تلك الكلمات، ابتسمت من غير أن أعلِّق. فأردَفَت:

- كانت لديه عادة جميلة جدَّاً، كان في يوم الدرس، وحين يعلم أنَّني أصلي في المسجد في قسم النساء، يرسل إلي رسائل عبر اختياره للآيات التي يتلوها بعد الفاتحة، فإن سمعني مثلاً وأنا أستغيب إحدى صديقاتي في ذلك اليوم، يقرأ آية النهي عن الغيبة، وإن علا صوتي على والدتنا، يقرأ آية عن برِّ الوالدين، وهكذا... كم كنت أنتظر رسائله إلي. اشتقت إليه كثيراً. رغم أنِّي أكبره بالعمر، إلا أنَّه أعز أصدقائي.

إذن هذه العادة التي أحبّها لم تكن لي وحدي، كنت أظنُّ أنَّه ابتكرها خصيصاً لي، نعم، فلطالما أرسل إلي رسائل غير مباشرة عبر اختياراته للآيات. نهضنا لصلاة السنة، وحين فرغ النسوة من أذكارهنَّ أتين مع معلمتهنَّ للسلام على أميرة. وكما توقَّعت، فإنَّ لأميرة شعبية كبيرة جدَّاً، أخذوها بالأحضان، وقفت أنظر إليهنَّ وأنا صامتة، إلى أن تذكَّرت أميرة وجودي فقالت لهن:

- هذه زينة، زوجة أُسَيد.

وما إن قالت أميرة تلك المعلومة، حتَّى انتقل نظرهن كليَّاً إلي، وبدأن بالسلام علي والاحتفاء بي، شعرت كما لو أنَّني زوجة الوزير أو الأمير،

بعضهن تغزلن بي، وبعضهن استغربن بأنَّهن لم يقابلنني إلى الآن، أمَّا الصبايا فرحن ينظرن إليَّ نظرات مريبة بعض الشيء، شعرت لوهلة أنَّ جميعهن كن مغرمات بأُسَيد، الأمر الذي أكَّدته لي أميرة فيما بعد، بأنَّ نصف بنات الدرس كنَّ يعقدن الآمال حوله. قالت لي إحدى النسوة التي يبدو كأنَّها في الأربعينيات من عمرها:

- كيف حال زوجك؟ أتمنَّى أن يكون بأفضل حال دوماً، أتعلمين، إلى الآن لا أنسى فضله على ابني وليد.

أجبتها:

- هو بخيرٍ الحمد لله.

فأكملت كلامها:

- كان وليد لا يجيد نطق كثيرٍ من الأحرف، لكن أُسَيد ما شاء الله لم يفقد الأمل به، كان يجلس معه لساعاتٍ طوال وهو يعلِّمه مخرج كل حرف وكيفية نطقه، واليوم وبعد عشر سنوات من ذلك، أصبح وليد يدرِّس الأطفال الصغار التجويد، رغم أنَّه ما يزال يافعاً، وحصل على إجازةٍ في تلاوة القرآن الكريم. أسأل الله أن يجعل كلَّ ذلك في صحيفة أعمال زوجك، أوصلي سلامنا إليه.
- سيصل إن شاء الله.

استدرت فوجدت امرأة أخرى، كانت تنظر إليَّ ويبدو أنَّها أيضاً تودُّ الحديث عن أُسَيد، وبالفعل راحت تحكي لي عن الحلقات التي كان أُسَيد يديرها في معهدها للتربية الدينية، حدَّثتني عن أساليبه المتميزة بالتعامل مع الأطفال، وصبره عليهم، وكم هو هادئ، وبعد كثيرٍ من السلام والكلام والقصص التي سمعتها، انفضَّ الجميع من حول أميرة وبقيت معلمتها للتحدُّث معها قليلاً، حينها وجَّهت المعلمة الحديث لي:

- إذن فأنتِ زينة، ما شاء الله عليك، اسم على مسمَّى.

أجبتها:

- شكراً، هذا من لطفك.
- دعينا نراكِ أكثر، هل إجازتكما طويلة؟
- سيأتي أُسَيد بعد عشرة أيام، ونقضي أيام عطلة نهاية السنة ونعود إلى لندن.
- جميل، جميل جدَّاً، إذن فحاولي أن تأتي إلى الدرس، سأكون سعيدةً بأن أراك معنا.

جاملتها وأومأت برأسي وقلت لها:

- إن شاء الله.

ثمَّ قالت لي:

- سأخبر ابني أيمن بأنَّ أُسَيد قادم، سيسعد جدَّاً بلقائه، كانا في الصف ذاته في المدرسة. أتعلمين، لقد كنت معلمته في المدرسة حين كان بالصف الخامس.
- حقَّاً؟
- نعم، لقد كان مشاكساً، لذا إن رأيت تصرُّفات طائشة من أطفالك في المستقبل، لا تستغربي، فأباهم ليس كما ترينه الآن، كان صاخباً حين يتحمَّس لفكرةٍ ما، كما كان يحبُّ إثارة الفوضى في الفصل الدراسي إن شعر بالملل حيال الدرس، كان يضحكني عندما أراه يحفظ ورده القرآني داخل الحصَّة. أُسَيد، شخصٌ فريد من نوعه، كم كان ذكيَّاً وموهوباً، حفظكما الله.

ابتسمت ولم أعلِّق، فعادت المعلمة إلى حديثها مع أميرة، وراحت تسألها عن حال الأطفال، وأخبارها في أستراليا، ومن ثمَّ قالت لها:

- بالمناسبة أميرة، أين أروى؟ لم تأتِ إلى الدرس منذ أسابيع.

هنا توقَّف قلبي للحظة، قلت في نفسي: أهي أروى ذاتها التي حدَّثتني والدتي عنها؟!

راقبت ردود أفعال أميرة التي أجابتها:

- بصراحة ليس لدي أي فكرة، تعلمين لقد وصلت منذ يومين إلى هنا، وبالعموم لا أتحدَّث معها كثيراً، سأسأل والدتي، فهي تقابلها بشكلٍ متكرِّرٍ.
- حسناً، تأكَّدي أنَّها بصحَّةٍ وحالٍ جيِّدةٍ، أشعر بالأسف عليها، منذ وفاة زوجها رحمه الله وهي تذبل كالشمعة، أسأل الله أن يعوضها خيراً.

"يعوضها خيراً"!! كنت على وشك الوقوع على الأرض وأنا أسمع هذا الكلام، دعاء كهذا من سيدةٍ كتلك، قد يقع فعلاً ويعوضها الله خيراً بأُسَيد.

وقد لا يكون كلام والدتي من فراغ فعلاً.

شعرت بضيقٍ شديدٍ، وما إن أنهت أميرة حديثها مع المعلِّمة، حتَّى خرجت مباشرةً، وقلت لأميرة:

- سأعود مباشرةً إلى المنزل، أوصلي سلامي مجدَّداً إلى الجميع.
- لم لا تبيتين عندنا اليوم؟ الوقت متأخِّر، لا تعودي لوحدك الآن!
- لا بأس، لن أستقلَّ أي وسيلة مواصلات بالأساس، أودُّ أن أمشي قليلاً.
- حسناً كما تشائين عزيزتي، نراك قريباً.

ودَّعتها ومضيت في طريقي، مشيت ببطءٍ وأنا أسأل نفسي: لماذا لا أعرف ذلك الأُسَيد الذي يتحدَّثون عنه؟ لماذا؟

عامل كلَّ من كان حوله بسلاسةٍ، أراهم يملكون هم وأطفالهم وأقاربهم ذكرياتٍ جميلة معه، أمَّا أنا وحين دخلت على حياته، لم أجده إلا صلباً وجافَّاً.

أين صفاته الهادئة، ومهارته بالتعامل مع الأطفال؟ لم أجده يتعامل مع أي من أبناء أختي؟ أين المرونة في الأفعال والأقوال؟ أنا لم أره يتعامل مع والدي إلا بشكلٍ رسميٍّ مبالغ فيه، لا مزاح! ولا كلاماً عابراً! ولا حتَّى أحاديث عميقة. يتحدَّث معهما في المناسبات والأعياد، "كيف حالكما؟" و"ما أخباركما؟" وتنتهي المكالمة! حتَّى أخي، هو شابٌّ يافعٌ، لماذا لم ينشئ معه صداقة؟ لماذا لا يتبادل أطراف الحديث معه؟ لماذا لم ندخل دائرة أُسَيد، كما دخلها جميع معارفه؟

فكَّرت طويلاً، وكي أكون منصفةً، اكتشفتُ أنِّي أنا من حاوطته بهالةٍ ومنعت أهلي من أن يتعاملوا معه بشكلٍ طبيعيٍّ ووديٍّ. كنت أراقب كلماتهم معه، وردود أفعالهم، وأملي عليهم أن يقولوا هذا ولا يقولوا ذاك، أن يفعلوا هذا ويمتعنوا عن ذاك. أهي غلطتي فعلاً؟ توقَّفت عن التفكير وأكملت طريقي وأنا أشعر بضيقٍ شديدٍ، ولا سيَّما حين لاح لي

جمال تعامله مع الأطفال، خبرته وأدواته وأسلوبه، وحبُّه لتعليمهم والاحتكاك بهم. أسيتزوَّج فعلاً ليحظى بطفلٍ؟ هل من الممكن أن يفعل ذلك؟ ليتني أعلم، ماذا تخطِّط له يا أُسَيد؟!

أُسَيد ديسمبر 2018

- لا تقلقي سأتَّصل بكِ حالما أنهي أعمالي، أراكِ قريباً، دعواتك. نعم سآتي، ليس هناك يوم محدَّد، سأخبرك حالما أعلم بالأمر، سلامي إلى الوالد وإخوتي.

أنهيت حديثي مع والدتي ومن ثمَّ اتَّصلت بزينة، لم ترد من الاتِّصال الأول، فحاولت أكثر من مرَّة إلى أن أجابتني، أعلم أنَّها منزعجة من قلَّة تواصلي معها، لذا حاولت أن أكون لطيفاً قدر الإمكان، سألتها:

- كيف حالك يا زينة؟
- من الجيِّد أنَّك ما تزال تذكر اسمي!
- زينة أرجوك، دعينا نؤجِّل المهاترات إلى وقتٍ آخر.
- حسناً، أعطني موعداً للمهاترات!
- زينة، أعلم بتقصيري تجاهك، وحين نلتقي سأشرح لك الأمر.
- وماذا عن المال الذي أرسلته إلي مع والدتك؟ ألا تشعر بأنَّ الموضوع زاد عن حدِّه؟
- لم أفهمك ما المشكلة؟

- أهي مشكلة واحدة؟ قل مشكلات، كل ما يصدر عنك ينمُّ عن عدم احترامك لي، أنا لا أعلم كيف تفكِّر؟ وكيف تتصرَّف دون أن تخبرني، هل أنا طفلة صغيرة لترسل إلي مصروفي مع والدتك؟ هل أقطن في مكانٍ غريبٍ لتزوِّدني بالمال؟ وهل أنا قاصرة أم جاهلة كي لا تخبرني بما تودُّ فعله؟
- زينة، ما بكِ؟ لم أقصد كلَّ ذلك، أنا بطبيعة الحال أودع عند والدتي مالاً، وطلبت منها أن تعطيك بعضاً منه لعلَّك تحتاجين إليه لشراء شيءٍ ما، وحتى يكون لك مصروفك الخاص. خشيت أن ينفد مالك وتستحي من الطلب، هذا كل ما في الأمر!
- لا تبرِّر فعلتك بهذه الطريقة، لقد وضعتني في موقفٍ محرجٍ جدَّاً، أنا لم أعد أحتمل هذا الأسلوب بعد الآن!
- ماذا تريدين الآن؟
- متى ستأتي؟
- لم أحدِّد يوماً، سأخبرك قريباً، قد يكون الموعد بعد عشرة أيام، لست متأكِّداً بعد، وحتَّى ذلك الحين سيبقى هاتفي خارج التغطية، لذا لا تتعبي نفسك بمحاولة الاتِّصال بي، فأنا مشغولٌ بالفعل ولدي مهمَّة يجب أن أنهيها.

- أرأيت؟! ستغلق كلَّ شيء في وجهي لأنِّي عاتبتك، ألا ترى بأنَّك تبالغ في تبرئة نفسك من كلِّ أخطائك؟
- زينة، لا طاقة لي لمتابعة الحديث على هذا النحو، أعتقد أنَّ فكرتي قد وصلت، أراك قريباً، في أمان الله.

وما إن أنهيت حديثي معها حتَّى وصل يزن. دخل فسألني:

- هل أنت مستعدٌّ؟ وهل أغراضك جاهزة؟

أجبته وأنا أعطيه نسخة عن مفتاح المنزل:

- نعم! هناك بعض النباتات التي تحتاج إلى سقاية، أرجوك اعتنِ بها في غيابي.

ناولته المفتاح، ومجدَّداً أحكمت إغلاق باب غرفة المعيشة التي تركتها على حالها بالفوضى التي أحدثتها فيها، ومضينا. في طريقنا إلى المطار، طلبت من يزن أن يعرِّج على البنك، فسحبتُ مبلغاً من المال وانطلقنا. لم أخبر أحداً أنِّي مسافرٌ إلى الوطن، حتَّى يزن الذي أوصلني إلى المطار لم أطلعه على الأمر. أردت أن أصل إلى هناك، وأحظى بفترةٍ لي وحدي، فأعتكف في مسجدٍ بعيدٍ عن منزل أهلي وأصدقائي وكل معارفي. أريده مسجداً بعيداً، لا يعرفني فيه أحد، ولا أعرف فيه أحداً، وبينما كنت في

الطائرة، رحت أفكِّر، يا ترى هل ستعود زينة معي أم أنَّها ستقبل بعرض الانفصال؟

عزمت هذه المرَّة على أن أكون جادًّاً معها في عرض الانفصال، ولا سيَّما بعد معرفتي بألّا أمل من معاودة محاولة التدخُّل الطبِّي، سأخبرها بالأمر بينما هي مع أهلها، وفي بيتها، حينها سيكون الأمر مقبولاً ومنطقياً بألّا تعود معي. ترى هل كرهتني بالأساس بسبب فظاظتي وعدم اهتمامي بها؟! إن كان ذلك ما حصل بالفعل، فذلك سيسهِّل عليها قرار تركي.

أمسكت هاتفي وقبل أن أضبطه على وضعية الطيران، أردت أن أكتب شيئاً، منذ مدَّة لم أنشر أي خاطرة. كتبت منشورين وأقفلت هاتفي، وحلَّقنا. حين هبطت الطائرة توجَّهت مباشرةً إلى مسجدٍ صغير في أطراف المدينة، وصلت بعد صلاة المغرب، فتحدَّثت مع إمام المسجد وشرحت له مطلبي، لكن للأسف لم يكن من الممكن المكوث في هذا المسجد للاعتكاف نظراً لصغر حجمه. أجرى الإمام اتِّصالاته مع إدارة مسجدٍ آخر، وبحمد الله تمَّت الموافقة بعدما شرح لهم الوضع، أعطاني العنوان، فحملت حقيبتي ومضيت إلى هناك. ليست المرَّة الأولى التي سأعتكف بها، لكنَّها المرَّة الأولى التي أعتكف بها وأنا في القاع.

زينة ديسمبر 2018

- ما بكِ؟ أخبريني هل من خطب؟

سألتني خالتي بينما كنّا نمشي في طريق العودة، فأجبتها:

- لا شيء، عادي!
- لِمَ لَمَ تشاركي في أي حديث؟ بدوتِ شاحبةً وغير ممتنَّة، رغم أنَّ الجلسة كانت لطيفة، لقد اختارت ابنة خالك تالا هذا المكان خصِّيصاً كي نحظى بأجواء هادئة، كان بوسعها أن تقيم حفلاً صاخباً مسائياً بمناسبة تخرُّجها، لكنَّها فضَّلت أن تجمعنا في الصباح في مطعمٍ واسعٍ ورحبٍ، وكما ترين لقد حجزت المكان بأكمله، واستمتعنا بالفعل!
- لا اعتراض عندي، لكن صدِّقيني لم أملك طاقةً كافيةً للاستماع أو المشاركة في أي حوار.
- زينة! لقد تعمَّدتُ أن نعود أنا وأنت مشياً على الأقدام، فأنا أشعر بالقلق ولستُ مطمئنّةً لحالتك!

تنهَّدت قليلاً، ولم أجبها، فتركتْ لي المجال ولم تكمل كلامها، وحين مررنا بأحد الشوارع، وقفت قليلاً ورحت أتأمَّل طرف السور المحيط بالرصيف، نظرت خالتي إليَّ، ولأبدد استغرابها قلت لها:

- أترين هذا السور؟
- نعم!
- كنَّا نجلس هنا أنا وصديقتي بعد أن نخرج من المحاضرات المسائية في ليالي الشتاء ونحن في طريق عودتنا، ولا سيَّما حين تهطل الأمطار بغزارةٍ، فنحتمي بطرف السور العلوي.
- أهي ذكريات الجامعة؟

ابتسمتُ ولم أعقِّب وأكملت طريقي وأنا أفكِّر، يا ترى من فيهما "زينة"، أنا الحالية أم زينة القديمة؟! أشعر بغربةٍ عن نفسي، ولم أعد أعرف من أنا، قاطعتني خالتي فسألتني:

- هل قابلتِ صديقاتك خلال إجازتك؟
- نعم، قابلتهن مرَّة واحدة فقط، خرجنا معاً إلى مزرعة صديقتي منى.
- جميلٌ جداً.

- ستستغربين إن قلت لك إنِّي شعرت بضيقٍ شديدٍ وعددت الساعات عدَّاً لحين انتهاء المشوار.
- هل تمزحين؟ وما السبب؟
- لم تعجبني أيٌّ من تصرفاتهن.
- لا تستطيعين جعل كل الاجتماعات كجلسات العبادة ودروس الدين يا ابنتي. نحن بشر، نختلف ولا نمتلك الحالة المثالية. لا تتوقَّعي أن تكوني دائماً في محيطٍ نقيٍّ، ولا تنتظري ذلك. عليك أن تستمتعي بوقتك مع الناس بشكلٍ طبيعيٍّ، وتحتكِّي بهم، أنا لا أقول انجرفي معهم، لكن لا تنعزلي!
- ومن قال لكِ إنِّي كنت مرتاحةً حين حضرت درساً دينياً؟
- هذه أيضاً؟ وما كان اعتراضك حينها؟
- لا أعلم، شعرت أنِّي بعيدة عن جو الالتزام الذي كان يحيط الفتيات في الدرس، وانتابني تشتُّتٌ كبيرٌ ولم أكن مرتاحةً.

لم أكمل جملتي تلك حتَّى وصلنا إلى ساحةٍ صغيرةٍ، فوقفت متسائلةً:

- أين الكشك؟

فأجابتني خالتي:

- تقصدين كشك الفلافل؟

- نعم الضبط.
- انتقل منذ سنة تقريباً.
- كم كنت أحبُّ الفلافل التي يبيعها.
- أهي ذكريات الجامعة مجدَّداً؟
- نعم، كنَّا نأتي خصِّيصاً إلى هنا، كي نتناول طعاماً يقيتنا في أيام الدوام الطويل.
- لم يبتعد كثيراً، أظن أنَّه في الساحة المجاورة، لم تأكلي كثيراً في المطعم، لِمَ لا نذهب؟ وبهذا تستعيدين ذكرياتك تماماً.
- لا داعي لذلك، حتَّى وإن كان في مكانه لا أعتقد أنِّي سآكل.
- ولِمَ لا؟
- أذكر لون الزيت الذي كان يستخدمه للقلي، كان بنِّياً مائلاً إلى السواد، ربَّما لا يغيره سوى مرتين في السنة، ولا أعلم إن كان يغسل الخضروات بشكلٍ كافٍ أم لا و...

قاطعتني خالتي وقالت:

- على رسلك، لم تعد لدي رغبة بسماع مزيدٍ من التفاصيل، دعك منه.

صمتت خالتي وعرفت بماذا كانت تفكِّر، لعلَّها كانت تقول في نفسها: كم تغيَّرت زينة! واختلف أسلوبها ومنطقها. لن ألومها، فستكون محقَّةً، أنا نفسي أجد أنَّ الهوة أصبحت كبيرة بين زينة السابقة وزينة الحالية، وكي تكسر خالتي حالة الصمت تلك سألتني:

- ما أخبار زوجك؟
- من مؤتمرٍ إلى مؤتمر.
- هل هو سبب ما أنتِ عليه الآن؟

صمتُّ قليلاً ثمَّ قلت لها:

- والدتي تلمِّح باحتمال ارتباط أُسَيد مجدَّداً، كي يحصل على طفلٍ. تعلمين بالموضوع أليس كذلك؟
- نعم أخبرتني والدتك، لم أقتنع بالفكرة، لكن لا أستطيع أن أجزم بشيء. بالمناسبة، أليس من الغريب أن تتحدَّثي بهذا اليأس؟ من يسمعك يظنُّ أنَّك أنت السبب وراء عدم الإنجاب!
- على أي حال، بعد عشرة أيام سيأتي أُسَيد، لقد اتَّصل بي صباحاً وأعلمني بذلك دون أي تفاصيل، حينها سأرى ما المفاجآت التي تنتظرني منه.

صمتُّ بعدها وبقيت شاردة الذهن ولم تعد لدي رغبة بالتركيز في معالم الطريق أو فتح أي ذكريات، تابعنا طريقنا دون أن نتحدَّث إلى أن وصلني إشعار من إحدى التطبيقات بأنَّ أُسَيد قد نشر منشورين. استغربت فمنذ مدَّة طويلة وهو لا يكتب أو ينشر شيئاً على صفحته. فتحت التطبيق لأقرأها، فتأكَّدت شكوكي بأنَّه ينوي فعل شيء.

أغلب الأحيان يكون الحلُّ أمام أعيننا، سهلاً وواضحاً ويسيراً، لكن نحن من نأبى رؤيته.

Osaid

قلت بصوتٍ مرتفعٍ:

- ما الحل الذي أمام عينيه وكان لا يراه وبات الآن واضحاً وجليَّاً؟ أهي أرملة ابن عمه؟ أهو انفصاله عنِّي؟ لا بدَّ أنَّ هذا ما يعنيه.

رأت خالتي تغيُّر ملامحي وشحوب وجهي، فنظرت إليَّ بارتباك بينما رحتُ أقرأ منشوره الثاني، الذي كان مبهماً وغير واضحٍ.

السلام الداخلي، هو كنزٌ ثمينٌ، اسعَ خلفه دائماً، أيَّاً كانت الظروف والأحوال والأماكن والأزمنة، ابحث عنه ولا تيأس، ولسوف يعطيك ربُّك فترضى إن شاء الله.

Osaid

سألتني خالتي وهي قلقةٌ جدَّاً:

- ما الذي جرى؟
- عن أي سلامٍ يتحدَّث يا خالتي؟ أسيضرم النار في حياتي بحجَّة سلامه الداخلي؟ هل أنا من سبَّبتُ له الفوضى، وبات الآن يسعى إلى السلام؟
- لم أفهم! عمَّ تتحدثين؟

أعطيتها هاتفي فقرأتْ ما قرأتُه للتوِّ، وعندما أعادته إلي حاولتُ الاتِّصال بأُسَيد على الفور، لا أعلم ماذا كنت أريد منه بالضبط، وعن ماذا سأستفسر، اتَّصلت به، لكنَّ هاتفه -كما قال مسبقاً- خارج التغطية. قلت لخالتي وأنا أصرخ:

- يجد الوقت ليكتب منشوراته، في حين لا وقت لديه ليحادث زوجته.
- اهدئي يا حبيبتي، دعينا نفهم القصَّة أوَّلاً.

رميت جهازي في حقيبتي ورحت أبكي، ثمَّ قلت لها:

- يبدو أنَّ كلَّ شكوكي وظنوني في محلِّها، لقد أرسلني إلى هنا وحدي كي يتسنَّى له التفكير بمستقبله ورسم ملامح حياته الجديدة، والآن يتذرَّع بمهمَّاته وواجباته كي لا يتحدَّث معي إطلاقاً، ولا بدَّ أنَّه سيأتي بعد عشرة أيام ليعلمني بقراراته ومخطَّطاته. هل انتهى كلُّ شيء بالفعل؟ كيف هنت عليه إلى هذا الحد؟ خسرت كلَّ شيء يا خالتي!
- لِمَ تقولين هذا الكلام؟ لم تخسري شيئاً، حتَّى وإن صدقت ظنونك، فليفعل ما يشاء، واختاري أنتِ الخيار الأنسب لكِ، لن يجبرك أحد على شيءٍ لا تطيقينه، ثمَّ إن رغب في تكوين عائلة، فأنتِ الأحقُّ بذلك، وليشق كلٌّ منكما طريقه!
- أهذا رأيك أنتِ أيضاً يا خالتي، ألا يوجد من يفهم مشاعري، كيف يخطر بباله أن يغدر بي بهذه الطريقة؟
- لا تكوني انفعاليّةً بهذه الطريقة، فكِّري بهدوء، ولا ترمي بنفسك في دوَّامة ظنونك. لن تنتهي الدنيا إن طلَّقكِ أتفهمين؟
- أنا مغفَّلة حقَّاً. بينما أتمسَّك به، يخطِّط هو لحياته بعيداً عنِّي.
- وأنتِ حينها ستفكِّرين بحياةٍ بعيدةٍ عنه، هذا من حقِّك! ثمَّ ألا ترين أنَّ عدم إنجابك للأطفال هو السبب الرئيس في حالتك

هذه؟ لِمَ ستحرمين نفسك من الأمومة إن كان هو من سيتخلَّى عنك؟!

- لم تعد المشكلة تتمحور حول الأطفال يا خالتي. تعقَّد الموضوع، وباتت كرامتي على المحكِّ، وستنهار ثقتي بنفسي إلى الأبد إن خذلني أُسَيد بهذه الطريقة، أنا لا طاقة لي على مواجهة صدمةٍ كتلك، ماذا أفعل؟

وانفجرت من البكاء، سحبتني خالتي إلى مدخلٍ صغيرٍ وضمَّتني وراحت تبكي معي، وبعد قليلٍ رَفَعت رأسي وقالت لي:

- هوِّني عليك يا ابنتي، ودعينا نتأكَّد، ولا تبني أحزانك على ظنونٍ لم تحدث بعد، وفي أسوأ الأحوال، وإن أراد أن يرحل، فليرحل.

نظرت إليها وأومأت لها، ومن ثمَّ أكملنا طريقنا بصمتٍ، وقلبي لا يتأمَّل خيراً البتة.

أُسَيد ديسمبر 2018

بعدما فرغنا من صلاة المغرب خلف إمام المسجد، توجَّهت نحو الغرفة الصغيرة والتي يُسمح لي فيها بتناول الطعام، ورغم أنِّي لم أشعر بالجوع بعد، لكنِّي تناولت طعام إفطاري وبعدها عدت إلى الزواية التي أجلس فيها.

مرَّت ثلاثة أيام على بدء اعتكافي، النهار قصير والليل طويل في شهر ديسمبر، ممَّا يجعل الاعتكاف والصيام أسهل من أيَّام الصيف، فبعد صلاة العشاء يعمُّ المسجد الهدوء والسكينة.

منذ البداية وأنا على درايةٍ بأنَّ ضوضاء الدنيا لن تتلاشى من رأسي خلال أيام الاعتكاف الأولى، وأن استجلاب التركيز سيحتاج إلى بضعة أيام، وأنا في العادة أهوِّن على نفسي فلا أتصنَّع حالة الخشوع والتضرُّع في دعاء القنوت إلى أن أدركها بالفعل. من الجيِّد أنَّ لديَّ خبرة سابقة في الاعتكاف، وإلا عزيت تأخُّر الخشوع لما أنا به الآن هذه الأيام. لم أنم كثيراً خلال الأيام السابقة، أنهيت ختمةً ما بين قيام الليل وتلاوة النهار، أزالت آثارها بعض الغشاوة التي على قلبي لكن ما تزال هناك حال

سيئة جاثمة عليه. صلَّيت بضع ركعاتٍ بين وقت المغرب والعشاء، وبعدها جلست أنتظر صلاة العشاء، وإذ بالإمام يناديني:

- السلام عليكم يا أُسَيد!
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
- أخبرني يا بنيَّ أتحتاج إلى شيء؟ منذ أتيت وأنت لم تخرج ولم تطلب من أحدٍ أن يجلب لك حاجياتٍ أو مسلتزماتٍ أو طعاماً.
- جزاك الله خيراً، أنا بأفضل حال الحمد لله.
- كُل جيداً وانتبه إلى صحَّتك، لا تهمل نفسك.
- شكراً لك ولاهتمامك، اتَّفقت مع الموظف المسؤول عن المسجد وسيجلب لي غداً مؤونةً للأيام المقبلة.
- هذا جيِّد، بارك الله بك وأعانك على تقواه.

ابتسمت وقبل أن أكمل صلاتي، فكَّرت بأنَّ اختياري لمسجدٍ لا أعرفه في مكانٍ لا يعرفني فيه أحد كان موفَّقاً جدَّاً، فأنا هنا أُسَيد فقط، لست مهندساً، ولا حاصلاً على شهادة الدكتوراة، ولا حافظاً للقرآن الكريم، ولا عالماً في أمور الفقه والشريعة، ولا زاهداً ولا ملتزماً ولا أيَّاً من ذلك.

أُسَيد فقط، ولعلَّ هذا أهم ما أحتاج إليه في اعتكافي.

نظرت إلى سقف الجامع ورحت أتأمَّل، فشتتت الثريا الكبيرة المعلقة انتباهي، لمعت أضواؤها وأحجارها، فلاح لي وجه زينة البريء، زينة التي لم ترَ أُسَيد كما هو، ولم يتسن لها أن تتعرَّف إليه ببساطةٍ، بل واجهت أقوى مواصفاته، وألمع مسمَّياته وأهمَّ ألقابه، ولم تعرف أُسَيد الزوج فقط. لا أعلم ما البديل، لعلَّني كنت أنتظر أن أصبح أباً فألين، أن نكوِّن عائلةً فيصبح مسار حياتنا أقلَّ جديَّة، وأكثر مرونة وبساطة، كنت أظنُّ أنَّها مسألة وقت وسنصبح أسرةً طبيعيةً كأي أسرة.

الدراسة، والإنجاز، والعلم، وتحليل الأمور بطريقةٍ منطقيَّةٍ، وتخطيط الأيام بدقَّةٍ متناهيةٍ، وكلُّ تلك المفاهيم بالغتُ فيها مع زينة طمعاً باستغلال الوقت قبل انشغالنا بالأطفال، لم أتعمَّد أن أحوِّل حياتنا إلى جدولٍ مرتَّبٍ ومزعجٍ، ولم أكن أنوي أن تكون علاقتنا بتلك الرزانة والرصانة المتكلِّفة.

عاودت النظر إلى تلك الثريا، وأنا أرى وجه زينة يضيء من خلالها، فخاطبتها في نفسي: ترى هل سأستعيد نفسي، فأستعيدك إلى حياتي؟!

زينة   ديسمبر 2018

جلبت السلم وصعدت، وبدأت بتلميعها، فأنا لا أحبُّ رؤية الغبار على الثريات، تلك الأحجار يجب أن تلمع وتشرق وتكون مبهرةً دوماً، وحين يكمد بريقها، ينتابني شعورٌ بالضيق. رحت أمسح كلَّ حجرٍ بعنايةٍ، وأفكّر: ماذا سأفعل؟ هل سأبقى ألمِّع حياتي أمام الجميع كما لو أنَّ شيئاً لا يحدث؟

كيف أواجه أهلي إن تركني أُسَيد؟ وإلى أين سأذهب؟ هل أبقى هنا؟ وهل أعود إلى العمل؟ ترى هل أعمل مجدَّداً في التمريض، أم ربما سأستفيد من شهادات اللغة الإنكليزية فأتوجَّه إلى التعليم؟! أنا بالفعل لم أعد أميل إلى التمريض بعد الآن، ربَّما سيكون التدريس حلّاً جيِّداً.

كنت أحاول التفكير بإيجابيَّةٍ راميةً خلف ظهري فكرة أنَّ أُسَيد سيرميني خلف ظهره، إلى أن لاح وجه أرملة ابن عمِّه أمامي، فرحت أفكِّر بمواصفاتها لأوَّل مرَّة، هي امرأة جميلة، حتَّى اسمها جميل ومناسب لاسمه "أُسَيد وأروى"، هي هادئةٌ وصوتها منخفضٌ، لا تتحدَّث كثيراً، ودراستها وعلمها سينالان إعجاب أُسَيد، فهي من أوائل خريجي كلية الآداب من قسم اللغة العربية. سيجتمع العلم والأدب في مكانٍ واحدٍ، وسيحظى أُسَيد بمن تشرح له ما يستعصي عليه من مفردات، ربَّما سيتناقشان حول بلاغة القرآن الكريم، وجمال بيانه، وسيتحدَّثان عن الكتب المهمَّة والأدبية منها ذات الشأن، وستمتلئ مناقشاتهما بأسماء الأدباء والمفكرين والعلماء، وسيجد من تستطيع احتواء فيضه العلمي والفكري، ناهيك عن مستواها الديني وعلمها الشرعي، الذي من الواضح أنَّه يوازي ويشابه مستواه كثيراً.

أدمعت عيناي، وبدأت أسحب الأحجار وأنا أمسحها بغضبٍ بعض الشيء، فقالت لي والدتي التي كانت تجلس في الغرفة تحيك بعض الصوف لدمى بنات أختي:

- كوني حذرةً، تتحرَّكين بسرعةٍ فوق السلم.

حاولت استعادة توازني وقلت لها:

- حسناً يا أمِّي!

وبعد خمس دقائق، سألتني وهي تتصنَّع العفوية:

- هل حدَّثك أُسَيد؟
- لا!
- كيف يسافر زوجك ولا يخبرك إلى أين وجهته؟

لم أرد، فلا يوجد لدي أي تفسير، لكن فكَّرت قليلاً بما قالته أمِّي وحاولت استرجاع كلمات أُسَيد في اتِّصاله الأخير، هو لم يقل أصلاً إنَّه مسافر، كل ما قاله إنَّه مشغول، ثمَّ كيف يسافر في نهاية السنة؟ في العادة لا يعقدون المؤتمرات بهذا التوقيت من السنة إلا نادراً.

فكَّرت قليلاً، لأجد أنَّ هناك ثغرة واضحة في كلامه، كان يوارب ولا يتكلَّم بوضوح، إذن فهو يخفي شيئاً عنِّي بالفعل. ما السر وراء اختفائه

وعدم تواصله مع أحد؟! لِمَ لا يعلمني بقراره الآن؟ ماذا ينتظر؟ ولِمَ يعطي لنفسه مهلة عشرة أيام؟ عشرة أيام من أجل ماذا بالضبط؟ هل هناك ما يريد أن يجعله أمراً واقعاً، فيحتاج إلى تلك الأيام كي يحقِّقه؟

وبينما كنت أفكِّر قالت لي والدتي مستنكرةً لهذا الوضع:

- هل من طريقة تستطيعين فيها معرفة أين زوجك؟ أمركما غريبٌ بالفعل!

وحينها فقط خطرت ببالي وسيلةٌ سهلةٌ وواضحةٌ لمعرفة مكانه، نزلت من السلم بسرعةٍ وتوجَّهت نحو غرفتي، فتحت جهاز الحاسب ورحت أبحث عن الموقع الإلكتروني الذي نحجز من خلاله بطاقات السفر، فحسابنا فيه واحدٌ، نستخدمه معاً للحجز.

فتحت الصفحة ويداي ترتجفان، وتوجَّهت نحو الحجوزات الأخيرة، لأجد هناك ما صدمني صدمةً كبرى!

زينة ديسمبر 2018

غيَّرت ملابسي وجريت بأقصى سرعة متَّجهة نحو منزل أهل أُسَيد، وحين طرقت الباب، توقَّعت أن يفتح لي أُسَيد، كنت مستعدَّةً لصبِّ جام غضبي عليه، لم أفكِّر بماذا سأقول، ولم أكن أرغب بسماعٍ أي كلمةٍ منه، ما أريده فقط أن يعلم بأنِّي على درايةٍ بخططه الماكرة، وقلت في نفسي: "إن تجرَّأ وحدَّثني أو سألني عن سبب مجيئي، فسأصفعه لا محال".

انتظرت قليلاً وإذ بأميرة تفتح الباب وهي تقول:

- زينة! أهلاً بكِ عزيزتي.

لم أجبها، كنت أرتعد من الغضب، دخلت مسرعةً إلى المنزل وأنا أردِّد:

- أين هو؟ أين العريس؟

استغربت أميرة جدّاً، ومن ثمَّ قالت لي:

- ما بكِ زينة؟ هل هنالك خطبٌ ما؟
- ما بي؟! اسألي نفسك، واسألي أخاك، واسألي كلَّ المتآمرين ضدِّي.

- المتآمرين! أنا لا أفهمك، ما الذي تقصدينه؟

تجاهلتها ورحت أكمل صياحي وأنا أجوب المنزل الذي كان فارغاً على غير العادة، فلا حماتي موجودة ولا حتَّى أطفال أميرة. هرعتُ إلى غرفة أُسَيد، بينما أهدِّد وأتوعَّد، ورحت أطرق الباب وأنا أنادي:

- اخرج، اخرج من مخبئك أيُّها الجبان!

وقفت أميرة مذهولةً وقالت لي:

- لا يوجد أحدٌ في الغرفة، ولا في المنزل غيري!

فتحت أميرة باب الغرفة كي تؤكِّد لي كلامها، أمَّا أنا وحين رأيت الحقائب في أرض الغرفة، صرخت وأنا أقول لها:

- وهذه الحقائب لمن؟ لأغراض العروس؟ أم للعريس؟

هنا صاحت أميرة في وجهي وهي تقول:

- أي عريسٍ يا زينة؟ ما الذي أصابك؟ هذه حقائبي، وضعتها في غرفة أُسَيد لضيق المكان في غرفتي.
- وأين أخوك؟ أين يختبئ؟
- من تقصدين؟

- أقصد أُسَيد! من سأقصد إذن؟! أُسَيد زوجي الوفي الصادق، والتقي!
- وما أدراني أين هو؟ ألستِ أنتِ زوجته، لِمَ تسألينني؟
- أميرة، لا تقحمي نفسك في هذه اللعبة، وقولي لي أين هو؟ وماذا تعلمين بالضبط؟
- أي لعبة؟ هل أصابك شيء؟ ما بكِ؟

غضبت أميرة كثيراً، ثمَّ حاولت كتم غيظها منِّي، استعاذت بالله من الشيطان الرجيم، ومن ثمَّ قالت:

- زينة! يبدو أنَّ هناك سوء تفاهم، أرجوك اجلسي قليلاً وتمالكي أعصابك، واشرحي لي، عمَّ تتحدثين؟! لكن من دون صراخ أو تجريح، لقد أزعجتني بالفعل.

كانت طريقتها في الكلام توحي بصدقها وبأنَّها بالفعل لا تفهم ما أعنيه، استعذت بالله من الشيطان الرجيم، وحاولت أن أهدأ، ثمَّ جلست على حافة سرير أُسَيد، ورحت أشرح لها الأمر، وبعدما سمعتني، سألتني وهي مندهشة:

- هل أنتِ متأكِّدة أنَّه في البلد الآن؟

- نعم أنا متأكِّدة، رأيت حجز الطائرة بأمِّ عيني، في ذلك اليوم اتَّصل بي وأخبرني أنَّ عليه إنهاء مهمَّة، وأنَّه سينشغل بها قرابة العشرة أيام، وخلالها لن يتمكَّن من التواصل معي، توقَّعت أنَّه سيسافر إلى مؤتمرٍ أو ورشة عمل، أو شيءٍ من هذا القبيل، لكن ساورني الشك لسببين.
- وما هما؟
- في العادة لا تجري أي فعاليات علميَّة مهمَّة في نهاية السنة.

صمتُّ ولم أكمل، فسألتني أميرة:

- ماذا عن السبب الثاني؟

ترددت قبل أن أبوح لها بشكوكنا حول ارتباطه، ارتبكت ولم أجبها، فقالت لي:

- ما بكِ زينة؟ هل الأمر خطير؟ أخبريني أرجوك، وأعدك بكتمان السر.

نظرت إليها، وشعرت أنِّي بحاجةٍ إلى البوح، وقلت في نفسي لعلَّها تعطيني معلومة تؤكِّد أو تدحض تلك الأفكار التي تدور في رأسي وتكاد تفتك بي. بالفعل، حكيت لها عن تلك الشكوك والفرضيات حول ارتباطه بأروى، وسألتها:

- اصدقيني القول يا أميرة، هل لديك أي معلومة حول هذا الأمر؟ هل رأيت أو سمعت ما يدلُّ عليه؟

قالت لي:

- لقد فاجأني ما قلتهِ للتوِّ، ولم أسمع عن تلك الفكرة إطلاقاً، لا من والدتي ولا من أحدٍ آخر، وفي نفس الوقت لا أستطيع أن أجزم لكِ بشيء، أقسم إنِّي لا أعلم شيئاً عن هذا الموضوع.
- إذن، أين هو الآن؟
- لا أعلم صدقيني.
- لعلَّها فتاة أخرى غير أروى.
- لا أعلم!

نظرت إليَّ أميرة وهي حزينة على حالي، فقلت لها:

- أصدِّقكِ أميرة، أصدِّقك! أنا آسفة لما بدر منِّي للتوِّ.
- لا عليكِ، لكن دعينا نفكِّر في الأمر، لعلَّنا نجد خيطاً يدلنا عمَّا يخطط إليه أُسَيد.
- ليس لديَّ أي معلومات غير التي أخبرتك عنها، أنا بالفعل محتارة ولا أعلم ماذا يريد!
- هل تسمحين لي بسؤال؟

أومأت لها بالإيجاب، فقالت:

- هل أنتِ متمسِّكة بأخي بالفعل؟
- لم يعد الأمر كذلك يا أميرة، غضبي ورغبتي في معرفة الحقيقة ليس نابعاً من تمسُّكي به، أشعر بأنَّه يهزأ بي، ويسخر منِّي، ويخطِّط لأشياء لا أعرفها، ويقصيني بطريقةٍ مُهينةٍ، فليفعل ما يشاء، لكن ليس بهذه الطريقة، لا لم أعد متمسِّكةً به، أنا آسفة لقولي هذا الكلام بهذه الصراحة.
- لا تعتذري، أنا فقط مشوَّشة ولا أفهم بالعموم طبيعة علاقتكما، لطالما حاولت أن أسأل والدتي عن الأمر، فشعرت من كلامها أنَّ الوضع غير مُطَمئِن، وأنَّ أُسَيد قد لَمَّح لها مرَّات عديدة عن مشكلات تتعلَّق به، تساءلت حينها عن شعورك نحو الأمر، وعن مستقبلكما معاً، بصراحةٍ لم أكن واثقةً من قرارك بالبقاء معه، فمن حقِّك أن تختاري طريقك، لكن في الوقت ذاته، لا أعلم إن كان أُسَيد قد منحك هذا الحق أم لا! وكنت حين أسأل والدتي حول الأمر تجيب بأنَّ كلَّ شيء على ما يرام وتحاول تغيير الموضوع، ولا تسمح لي بالتدخُّل فيه بتاتاً، لذا فثمة كثيرٌ من علامات الاستفهام فيما يتعلَّق بهذه الجزئية، لكن كما تعلمين، أنا لست من النوع الذي يتدخَّل، لذا فما كان منِّي إلا أن أدعو لكما

دوماً براحة البال والسكينة والطمأنينة، وبالطبع بالذرية الصالحة.

صمتُّ ولم أجب عن أيٍّ من استفساراتها، فهي لم تسألني بشكلٍ مباشر، لكن بعد دقيقة فكَّرت قليلاً، وشعرت أنِّي مرتاحة للحديث معها، فبحت لها ببعض التفاصيل، وبأنَّ أُسَيد كان قد عرض عليَّ الانفصال مراراً، وأنِّي كنت أرفض الفكرة بشكلٍ متكرِّر. أنهيت كلامي فقالت لي وهي تنظر إليَّ بعنين لامعتين:

- إذن فأنتِ تحبينه بالفعل؟
- كنت أحبُّه، أمَّا الآن فلا!

تنهَّدتُ قليلاً ثمَّ استأنفتُ كلامي:

- نعم، كنت أحبُّه، وهل تملك أي فتاةٍ إلا أن تحبَّه! سامحه الله، هدم كلَّ شيء، لِمَ يفعل ذلك؟
- تروّي قليلاً يا زينة، ودعينا نفهم ما أسبابه، صدِّقيني ليس لأنَّه أخي، لكن دعينا ننتظر عودته، وحين نسمع ونفهم الأمر منه، صدِّقيني لن أقف في صفِّه إن كان مخادعاً أو ظالماً، أعدك بذلك!
- حسناً، لكن حتى ذلك الحين، أرجوكِ فليبقَ هذا الأمر سرَّاً بيننا.

- اتفقنا!

أمضيت بعضاً من الوقت معها ومن ثمَّ عدت إلى المنزل، وفي طريق عودتي فكَّرت: لِمَ حين غضبت وحاولت أن أتمرَّد وأصرخ لم أر أمامي سوى أميرة المسالمة التي لا ناقة لها في هذه القضية ولا جمل، حتَّى حماتي لم تكن في البيت!

فكَّرت بعمقٍ، فوجدت أنَّ الله سترني وتلطَّف بي ولم أواجه حماتي وأنا منفعلة بهذا الشكل، لقد صرخت كثيراً، وكنت فظَّةً ووقحةً، لقد رحمني الله من كمية الاعتذارات التي كان عليَّ تقديمها لحماتي.

الحمد لله على نعمة الستر.

أُسَيد ديسمبر 2018

بسم الله خير الأسماء، بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، يا ذا اللطائف، أقف اليوم بين يديك، تائباً إليك وراجياً عفوك وصفحك وغفرانك. هتكتُ ستر نفسي، فتكشَّف لي إيمانٌ هشٌّ، وفهمٌ محدودٌ، وصبرٌ متزعزعٌ، ورضاً لا يعرف من الرضا سوى حروفه، وقلب هزيل مليء بالكبر والعناد. هتكتُ ستر نفسي، فلاحت لي ظُلماتٌ لم أكن أعلم بها، وجهلٌ لم أكن أدرك مداه. هتكتُ ستر نفسي، فرأيت وجهاً غير وجهي، وسريرةً غير سريرتي، وتبدَّى لي شخصٌ غريبٌ ومريبٌ، لا أنا أفهمه ولا هو يفهمني، وما عدت أعرف أيٌّ منهما أنا؟!

أأنا الشاكر، والحامد، والعابد، والقانت في السراء؟

أم أنا الساخط، والمتكبِّر، والناقم، والجزِع في الضراء؟

تائهٌ أنا، اتَّكلتُ على إيماني، فحين ضعف وانطفأ، ظهرت شرور نفسي وسوءاتها، فكن وكيلي يا رب الإيمان، يا قيوم السموات والأرض، ولا تكلني لنفسي طرفة عين.

حائرٌ أنا، قيَّدت نفسي بنفسي، ففكَّ قيودي، وحرَّر روحي التي ضاقت بي وضقت بها.

ضعيفٌ أنا، فقوِّني وتولَّني، وهبني من لدنك رحمةً وعفواً ومدداً.

غريقٌ أنا، فانتشلني من أوحال يأسي ومن متاهة أوهامي.

ربَّاه! أتراني فشلت في امتحانك؟ أهذا كل ما في جعبتي من إيمان؟! أسيءٌ أنا إلى هذا الحد؟!

ربَّاه! أضعيفٌ أنا بهذا القدر؟! أمنافقٌ أنا؟ أم ماذا أكون بالضبط؟

ربَّاه! ماذا عساي أن أقول وأنت أعلم بحالي؟! سامحني يا إلهي، فقد غلبني الحزن، وآلمني العجز، وانهارت أحلامي، فما عدت أرى أمامي،

وما عدت أعي ما أقول وما أفعل. اختلَّ توازني، فلم تسعفني ذخيرتي، ولم يحمني رصيد إيماني. يحزنني استسلامي لليأس، ويخجلني ما بدر منِّي من حماقةٍ وسخطٍ، وتالله إنَّه ليؤلمني فقداني لإيماني أكثر من حرمان الذريَّة والولد.

لا أعلم ماذا دهاني! وكيف آلت حالي إلى هذه الحال! عميت بصيرتي فما تفكَّرت بقضائك وقدرك، ولا فهمت حكمتك، بل رحت أتخبَّط في كلِّ الاتِّجاهات، ولم أرضَ بما قدَّرته لي وكتبته عليَّ.

نعم أردتُ أن تكون لي ذريَّة صالحة، أُنبتها نباتاً حسناً لتكمل المسيرة في الدعوة والإصلاح، لكنِّي أتساءل بعدما رأيت من نفسي ما رأيت: أكنتُ مخلص النية لكَ في هذه الأمنيات؟ أكانت المنجزات التي أتطلَّع إليها في سبيلك حقَّاً ومن أجلك أنت وحدك؟ فإن كان الجواب "بلى"، لِمَ كل هذا السخط؟ ولِمَ كل هذا الاعتراض الذي بدر منِّي؟!

ربَّاه! آمن روعتي، خائفٌ أنا وأرجوك أن ترأف بحالي، فقدت حقيقة نواياي، ولم أعد أميزها، اصنعني على عينك، وألقِ عليَّ محبةً منك. يا جميل الستر، استرني أمام نفسي، وهَبني إيماناً راسخاً، ويقيناً جلياً، وقلباً خاشعاً، ونيَّةً خالصةً لك وحدك. ربَّاه! لجأت إليك يا رب وأنا بأسوأ حال، أسألك أن تمنحني الهداية والرشد والثبات، ثبِّتني على صراطك

المستقيم. ظلمتُ نفسي، وأنا عبدك الفقير، ليس لي سواك، أقف على بابك، أبوح إليك بما أنتَ أعلم به من نفسي، فيا مالك الملوك، آنس قلبي، وشدَّ عزيمتي.

ربِّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين، لا تذرني فرداً بكلِّ معانيها وبكلِّ تجلِّياتها التي ارتضيتها لي، لا أنتظر معجزةً، فلستُ نبيَّاً ولا صدِّيقاً، لكن أسألك أن تكتب لي الخير أينما كان، وحيثما وُجِد، ألهمني الصبر والسلوان، ووجِّهني لدروب الخير الكثيرة، واستخدمني لنصرة دينك بالطريقة التي اخترتها أنتَ لي، استخدمني ولا تستبدلني، واجعلني أهلاً لهذا الاستخدام. هيِّئ لي سبل البرِّ والتقوى، واجعلني من المحسنين، والراشدين، والصالحين والمُصلِحين.

إلهي، اجعل سرِّي خيراً من علانيتي، قوِّني وتُب عليَّ، وانظر إليَّ بعين الرضا، واصفح عنِّي، وردَّني إليك ردَّاً جميلاً.

إلهي، أبعد عنِّي الحسد والحقد، بتُّ أخشى سماع أخبار أصدقائي، فتنكمش نفسي ويضيق صدري إن سمعت بأنَّ "فلاناً قد رُزق بولد"، من أين لي بهذه الأمراض القلبية يا إلهي؟ كيف وصلتُ إلى القاع بهذه السرعة؟ أعوذ برب الفلق من شر نفسي ومن شر ما خلق، ارفعني يا

رب من الحضيض واشفِ روحي المرهقة من تلك الآفات. يا رب أفرغ عليَّ صبراً، ورضاً، وفهماً، وعلماً، وانصرني على وساوس نفسي.

إلهي أنزل السكينة والطمأنينة والسلام علينا، هبنا من الخير والبركة والرضا والإحسان ما تطمئنُّ به قلوبنا، وتهدأ به نفوسنا، واجعل لنا نوراً، وفي طريقنا نوراً، وفي حياتنا نوراً، ولا تحرمنا من نورك يا نور السماوات والأرض.

إلهي، هَب زوجتي زينة ما يتمنَّاه قلبها وتتوق إليه روحها، واكتب لها السعادة والرضا في الدنيا والآخرة. أشهدك يا رب أنِّي راضٍ عنها، فهي تحمَّلت ما تحمَّلته معي، وعاملتني بإحسانٍ، ولم أرَ منها إلا الخير. يا رب، أنا راضٍ بما قدَّرته لي، لكن لا أريد أن أظلمها معي، فدُلَّني على ما هو خيرٌ لها ولي، واجعلني أهلاً لكلِّ امتحانٍ سأواجهه من فقدٍ وبُعدٍ وحزنٍ.

يا رب، خفِّف ألم والديّ، أراهما يكتمان حزنهما على حالي، فأقف عاجزاً عن مواساتهما، املأ قلبيهما بالصبر وقوَّة الإيمان، واجعلهما سنداً لي، كما كانا دوماً، احفظهما وبارك بهما وأنزل عليهما الرضا واليقين والسكينة، ولا تجعلني سبباً لحزنٍ يصيبهما، أو أسىً يمرُّ على قلبيهما يا أرحم الراحمين.

اللهمَّ يا رب الأكوان، ويا رافع السموات بلا عمد، اللهمَّ لك الحمد بما هديتني، ولك الحمد بما سترتني، ولك الحمد بالقرآن، ولك الحمد بالإيمان، ولك الحمد بالمعافاة، ولك الحمد حتَّى ترضى، ولكَ الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

ربَّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربَّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربَّنا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به، واعفُ عنَّا واغفر لنا وارحمنا، أنتَ مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

وصلِّ على النبي وآله وصحبه وسلِّم.

زينة

ديسمبر 2018

- زينة، دعينا ننهي هذا الأمر!
- كيف تتَّخذ القرار وحدك؟ هل أنتَ الطرف الوحيد في هذه المعادلة؟ أجبني أُسَيد!
- زينة، صدِّقيني سيكون هذا الانفصال من مصلحتنا.
- لا تقل مصلحتنا! مصلحتك أنتَ فقط، أنت لا تفكِّر إلا بنفسك، سترتبط وستكمل حياتك مع عائلةٍ تحتويها وتحتويك، وأنا ماذا عنِّي؟ هل سأضمن أنِّي سأتزوج وسأنجب؟ ثمَّ من قال إنِّي سأتزوج بالأساس؟ كيف سأثق بالرجال بعد الذي رأيته منك؟ هل تعتقد أنَّ الأمر هيِّنٌ وسيمرُّ عليَّ كتجربةٍ عابرةٍ! أنتَ دمَّرتني يا أُسَيد، ولن أسامحك ما حييت.

لم يكترث بما قلته، بل مضى وابتعد عن ناظري، سقطت على الأرض وأنا أبكي بشدَّةٍ وحرقةٍ، وأنا أردِّد: "ليتنا لم نلتقِ يوماً يا أُسَيد". كرَّرتها مراراً وما إن فتحت عينيّ بفزع، علمت أنَّه الكابوس ذاته الذي يتكرَّر منذ أربعة أيام. استعذت بالله من الشيطان الرجيم واستلقيت مجدَّداً على سريري، لكن لم أستطع النوم.

تساءلت: أهي علامة وعليَّ أن أفهم مغزاها وأقتنع بالأمر؟ أم أنَّها أضغاث أحلام؟! إن كان أُسَيد قد حضر إلى الوطن بنيَّة الزواج، فهذا يعني أنَّه يودُّ أن يضعنا جميعاً أمام الأمر الواقع، فمن الواضح أنَّ أهله لا يعلمون بالأمر. ترى هل تزوَّج بالفعل؟ هل أقام حفل زفافه أم ليس بعد؟ من هي يا ترى؟ هي ليست أروى وفقاً لكلام أميرة التي أكَّدت لي بأنَّها زارت أروى البارحة بشكلٍ مفاجئٍ حتَّى تتقصَّى عن الأمر، فلم تجد شيئاً مريباً. إن كانت ليست أروى بالفعل، فكم ولداً لديها؟ واحدٌ أم اثنان؟ هل سيطلِّقني كي يتسنى له استقدامها إلى إنجلترا بصفتها زوجته؟ أم سيجد طريقةً أخرى لتحصل بها على الفيزا؟! أجَلَب لها هدية الزواج؟ ترى كم سيكون مهرها؟!

وهنا وعند هذا السؤال لمعت ببالي فكرةٌ، إن كان أُسَيد أتى بنية الزواج فهو يحتاج إلى مالٍ كي يعقد القران، فهو حين تزوَّجني دفع لي مهري كاملاً، وهناك احتمالٌ أن يجلب المال بحوزته، وإن كان الأمر كذلك فهو سيسحب مبلغاً كبيراً من حسابه البنكي الذي يدَّخر فيه المال. ذلك الحساب الذي لا نستخدمه بالعادة، وأذكر أنَّه أطلعني على معلوماته كي أستخدمه في الطوارئ. أصرَّ يومها على إعطائي المعلومات وهو يقول: "احتفظي بهذه المعلومات جيِّداً، إن أصابني مكروهٌ أو احتجتِ إلى شيءٍ طارئ ولم أكن موجوداً، تستطعين التصرُّف دون الحاجة إلى الرجوع

إلي". أذكر إلى الآن كيف وقع قلبي من كلامه من فرط حبِّي وتعلُّقي به، يا للخسارة!

قفزت من سريري وفتحت جهاز الحاسب، وحين وصلت إلى الموقع وبدأت بتعبئة المعلومات، أنَّبني ضميري، فهو قد ائتمنني على معلوماته للضرورة، لا للتجسُّس! تراجعت ولم أكتب اسم المستخدم، لكن عدت إلى التفكير مجدَّداً، أمامي فرصة لأزيل الغموض حول اختفائه غير المبرَّر، أمامي طريقة أصل بها إلى خيطٍ يؤكِّد شكوكي التي أهلوس بها منذ علمت بوجوده السرِّيِّ في البلد. فكَّرت وتردَّدت عشرات المرات، ورحت كالمجنونة أكتب وأمسح، وقبل أن أغلق جهازي، كرَّرت لنفسي جملته: "إن أصابني مكروهٌ أو احتجتِ إلى شيءٍ طارئ ولم أكن موجوداً، تستطعين التصرُّف دون الحاجة إلى الرجوع إلي".

قلت في نفسي: هذا شيءٌ طارئ، فأنا أكاد أن أفقد عقلي ولم أعد أستطيع الانتظار أكثر من ذلك. تنهَّدت بقوَّةٍ، وكتبت المعلومات وكلمة السرِّ بيدين مرتجفتين، وفتحت الصفحة، لأجد باللون الأحمر مبلغاً قيمته ثمانية آلاف جنيهٍ استرليني قد سُحب قبل ستة أيام، أي في يوم مجيئه إلى هنا.

تجمَّدت في مكاني، وتأكَّدت شكوكي، ولم يعد هناك أي داعٍ لانتظار الخبر اليقين، فها هو ذا الخبر اليقين أمام عيني. ثمانية آلاف جنيه استرليني، قد يدفع منها مهراً لعروسه، ومستلزمات زفافهما!

ابتسمتُ وأنا أجلس في غرفتي المظلمة ابتسامة الخاسر والخائب، لم أبك، فلم يعد هناك حاجة إلى البكاء، أغلقت جهاز الحاسب وانكمشت على نفسي، وشُلَّ تفكيري، لكنَّني قررت قراراً واحداً، وهو أن أخفي هذا الأمر عن الجميع خلال الأيام المقبلة، إذ لا رغبة لي بمزيدٍ من الذل والهوان.

ليتنا لم نلتقِ يوماً يا أُسَيد! ليتنا لم نلتقِ!

أُسَيد ديسمبر 2018

فرغت من صلاة الظهر وتأكَّدت من أنِّي جمعت أغراضي وحاجياتي، ومن ثمَّ انتظرت الإمام لينتهي من تسبيحاته بعد الصلاة، وتوجَّهت نحوه وقلت له:

- السلام عليكم!
- أهلاً يا بني، أراك قد جمعت أغراضك.
- نعم، لقد انتهت فترة اعتكافي.
- تقبَّل الله يا بني، آمل أنَّك نلت ما كنت ترجوه من اعتكافك.
- الحمد لله، لقد كانت من أجمل تجارب الاعتكاف، أسأل الله القبول وأن يجزيكم عنِّي كلَّ الخير.
- آمين، أخبرني ألن تزورنا بين الفينة والأخرى؟ لعلَّك تأتي مرَّةً كلَّ شهر، وتؤمُّنا في الصلاة، فوالله ما سمعت أجمل من مخارج حروفك، ولا أرقَّ من ترتيلك، ولا أعذب من صوتك، حفظك الله يا بنيَّ، وجعلك صالحاً ومُصلِحاً.
- إنَّها شهادة أعتزُّ بها يا شيخي، والحمد لله على نعمه. يؤسفني أنِّي لن أستطيع زيارة المسجد كثيراً، فأنا مغتربٌ وأعيش في لندن،

لكن أعدك بأن آتي كلَّما سنحت الفرصة وفي كلِّ إجازةٍ أقضيها هنا إن شاء الله.

- ما شاء الله، تبارك الرحمن، أسأل الله أن يعينك في غربتك ويوفِّقك دوماً ويسدِّد خطاك.

قبَّلت رأسه وأنا أودِّعه وسالت دموعي تأثُّراً بكلامه الرقيق. بالفعل، أحياناً يأتيك كلامٌ من شخصٍ لا تعرفه، فيجبر كسراً في قلبك، ويمحو جرحاً في روحك.

خرجت إلى ساحة المسجد، ثمَّ جلست على أحد المقاعد كي أفتح هاتفي الخليوي بعد تسعة أيامٍ من إغلاقه، وإذ بعددٍ كبيرٍ من الاتِّصالات الواردة والرسائل النصيَّة والمحادثات، وأول ما فعلته هو أنِّي اتَّصلت بيزن.

- أهلاً يا أُسَيد، يسعدني أن أرى اسمك مجدَّداً على شاشة هاتفي، كيف حالك؟
- أنا بخيرٍ الحمد لله.
- هل كل شيء على ما يرام؟
- نعم بحمد الله، لكن أحتاج إلى مساعدتك بمهمَّة ضروريَّة جدَّاً.
- تفضَّل وطلبك مُجاب بإذن الله.

- جُزيت خيراً، أرجوك يا يزن، اذهب إلى بيتي، وارفع كتبي عن الأرض، ضعهم حيثما شئت، لا ترتِّبهم، ولا تنسِّقهم، فقط ارفعهم عن الأرض، ولن أنسى لك هذا المعروف.
- أهذا كل شيء! أبشر يا عزيزي.
- شكراً جزيلاً، وجزاك الله كلَّ الخير، لن أطيل عليك فأنت في دوامك، أحدِّثك فيما بعد إن شاء الله.
- حسناً، وحتَّى ذلك الحين اعتنِ بنفسك!
- في أمان الله.

وما إن أغلقت الخط حتَّى وصلتني منه رسالةً عبر تطبيق الواتساب، فتحت الرسالة فإذا بصورةٍ لمكتبتي مرتبةً، والكتب مرصوفةٌ على رفوفها بعنايةٍ وأناقةٍ، كتب يزن تحت الصورة:

- بعدما ودَّعتك في المطار، عدت مباشرةً إلى منزلك لترتيبهم، كتب أُسَيد غاليةٌ علينا جميعاً.

لم أتمالك نفسي، وسالت دموعي مجدَّداً، هذا هو يزن، كما عرفته دوماً، بالفعل لا يظهر الأصدقاء الحقيقيُّون إلا في الشدَّة. تأمَّلت كتبي، ابتسمت وأنا أشعر بسلامٍ داخليٍّ ورغبةٍ في معاودة القراءة وجلب

مجموعة جديدة، فثمة مخطَّطات وبرامج كثيرة وضعتها أثناء اعتكافي، وكلِّي حماسة وشغف لتنفيذها.

تابعت تصفُّح الرسائل والاتِّصالات المهمَّة، لأجد خمس مكالماتٍ فائتة من دار الأيتام، فاتَّصلت بالإدارة مباشرةً لأرى ما الأمر.

- السلام عليكم، أُسَيد يتحدَّث، لقد حاولتم الاتِّصال بي لكن للأسف كان هاتفي خارج التغطية خلال الأيام السابقة.
- أهلاً أستاذ أُسَيد، نعم هذا صحيح، أودُّ التأكُّد من أمرٍ حول المبلغ الذي تبرَّعت به الأسبوع الماضي، لقد كتبتَ في الاستمارة أن يُنفق المال في مجال التحصيل العلميِّ للأطفال في الميتم.
- نعم هذا صحيح!
- حسناً، باعتبار أنَّ المبلغ ضخم بعض الشيء، اقترحنا أن نشتري أجهزة حواسيب، كي يتسنَّى للأطفال استخدامها بالبحث والتعلُّم وما إلى ذلك، سننفق نصف المبلغ للأجهزة ومسلتزماتها، أعتقد أنَّه لن يكون هدراً أليس كذلك؟
- بإمكانكم التصرُّف بالمبلغ بالطريقة التي ترونها مناسبةً دون الرجوع إليَّ، وأجهزة الحواسيب هي من أهم وسائل التعلُّم، ويجب على كلِّ طفل أن يتقن استخدام الحاسب، هذا أمرٌ في غاية الأهمية، قراركم صائب بإذن الله.

- حسناً، هناك أمرٌ آخر.
- تفضَّل!
- بصراحة، يودُّ الأطفال أن يتعرفوا إليك، ولا سيَّما بعدما علموا أنَّهم سيحصلون على أدوات ووسائل جديدةٍ ومتنوِّعةٍ، لا يمكنك تخيُّل مدى سعادتهم بما قدَّمته لهم.
- أستغفر الله العظيم، أنا لم أقدِّم شيئاً، هو رزقٌ من الله لهم، على أي حال، يسعدني جدَّاً القدوم ومقابلتهم والتعرف إليهم، سأتَّصل بك في الأيام المقبلة ونحدِّد موعداً إن شاء الله.
- سيسعدون جدَّاً، لقد حضَّروا بطاقات شكرٍ وكثيراً من الأشياء المتواضعة هدية لك، لم أذكر لك ذلك كي لا أضغط عليك، لكن بما أنَّك قد قرَّرت المجيء فعلاً، فلا أجد حرجاً في أن أطلعك على الأمر، لا يمكنني وصف إصرارهم على لقائك، إنَّها المرَّة الأولى التي يتحمَّسون فيها بهذا الشكل تجاه أحد المتبرعين، ما شاء الله، لا بدَّ أنَّها هبةٌ من الله، أن تكون محبوباً من أشخاصٍ لم يروك بعد.
- لقد فاجأتني بالفعل، أتمنَّى لهم حياةً كريمةً وأياماً جميلةً، وأن يكونوا من أفضل الناس وأنجحهم، إن شاء الله.

أنهيت المكالمة وقلبي يخفق بشدَّة، لم أتوقَّع أن أسمع ما سمعته للتوِّ، فسالت دموعي فرحاً وحمداً وشكراً لله. بعدما هدأت قليلاً، وقفت على طرف الشارع وطلبت سيارة أجرة، وحين سألني السائق عن وجهتي، أعطيته عنوان منزل أهل زينة. كنتُ أودُّ رؤيتها مباشرةً كي أتحدَّث معها في موضوعنا بشكلٍ صريحٍ وأعرض عليها الخيارات المتاحة لنا، فهي لا علم لها بآخر مستجدٍ طرأ معي هذا الشهر، ومن حقِّها أن تعيد التفكير في مستقبلها. الغريب أنّهَا اتَّصلت بي عشرات المرَّات رغم معرفتها بأنَّ هاتفي سيكون خارج التغطية، أتمنَّى أن تكون بأفضل حال. لم أتَّصل بها، وقلت في نفسي سأراها بعد قليل. أغلقت هاتفي ورحت أتأمَّل الشوراع وقلبي مطمئنٌ وهادئ، اشتقت إلى الناس، وأشعر بأنَّ طاقتي قد عادت إلي، وأنَّ نفسي مفعمةً بالحيوية ومليئة بالنشاط. متفائلٌ أنا بما ستقوله لي زينة، لا أشعر بسوءٍ حيال قرارها، اشتقت إليها جدَّاً وأنا متأكِّد من أنَّها لن تتخلَّى عنِّي، فهذه المرَّة -ورغم أنَّ نتيجة فحوصاتي جازمة ونهائية- إلا أنَّني قويٌ بإذن الله، ولن أخسرها.

وصلت إلى المنزل، وحين طرقت الباب لم يجبني أحد. لم أمضِ مباشرةً وبقيت منتظراً لبضع دقائق، وقلت في نفسي: لعلَّ أهل البيت يقيمون الصلاة، فلأنتظر مقدار أربع ركعات.

زينة
ديسمبر 2018

ليست كلُّ الأشياء تُحكى للأم، فهي انفعاليةٌ في بعض الأحيان حيال ما يطرأ مع أولادها لفرط خوفها عليهم. وليست كلُّ المشكلات تُسرد للأم، فهي تتعامل مع ألم أولادها وهمومهم كما لو أنَّها آلامها وهمومها بل وأكثر، فيتردَّد الابن قبل أن يصارح والدته بمشكلاته، ويتراجع في كثيرٍ من الأحيان عن إقحامها في مصاعب وعقبات حياته، لألَّا يزعجها ويُتعِب قلبها ويسبِّب لها القلق والهمَّ والحزن.

وهذا ما حدث معي، فوالدتي متأزِّمةٌ معي منذ سنوات، ولم أعد أحتمل هذا الأمر، ولهذا السبب لم أحكِ لها عمَّا علمته عن أُسَيد في الآونة الأخيرة. في المقابل، شعرت أنِّي سأختنق، كنت بحاجةٍ إلى شخصٍ أحبُّه وأثق به، ومتأكدة من أنَّه يحبُّني ويريد مصلحتي، لا أسبِّب له الأذى حتَّى لو تعاطف معي، ولا ينفعل بما سأقوله، فيهدِّئني بدلاً من أن أقوم أنا بذلك. لم أجد صعوبةً في العثور عليه، ومن غيرها: خالتي، النعمة الأجمل التي وهبني الله إيَّاها بعد والدتي –حفظهما الله– إنَّ دور الخالة يأتي ليكمِّل دور الأم، فتجبر، وتسمع، وتعِظ، وتوجِّه حينما تكون روح الأم مرهقةً من أحزان أولادها.

كنت أعدُّ الأيام رغماً عنِّي، وفي اليوم العاشر سألت نفسي: أسيأتي اليوم؟ أم لعلَّه كان يقصد يوم الغد؟ أهي عشرة أيام وبعدها سيصل، أم سيصل في اليوم العاشر؟ لم أكن متأكِّدةً من موعده بالضبط، وكي لا أزيد توتري واضطِّرابي، قرَّرت زيارة خالتي، فأحكي لها وأرى بماذا ستنصحني. بالفعل، انطلقت منذ الساعة العاشرة صباحاً إلى منزل خالتي، ومن حسن الحظ أنَّ منزلها قريب، إذ كان الطقس سيئاً للغاية، لا عجب فنحن في أواخر شهر ديسمبر. بقيت عند خالتي قرابة ثلاث ساعات، وأطلعتها على آخر المستجدات، فنصحتني مجدَّداً أن أنتظر عودة أُسَيد لأتأكَّد منه بشكلٍ مباشر دون تخمين أو شكوك، لكنَّها لم تستطع إخفاء استغرابها الشديد حول وجوده السري في البلد. هنا شعرت بأنَّها تحاول مواساتي ورفع آمالي لكن من غير رصيدٍ حقيقيٍّ، فموضوع زواج أُسَيد أصبح واضحاً، لكن في كلِّ الأحوال، ارتحت بعد حديثي إليها.

ودَّعتها وانطلقت عائدةً إلى المنزل، فوالدتي قد ذهبت أيضاً إلى السوق لتشتري بعض الحاجيَّات، وعليَّ أن أساعدها في تحضير طعام الغداء قبل عودة والدي. صعدت الدرج وقبل أن أصل إلى الطابق الثاني، غرست وجهي في حقيبتي بحثاً عن مفاتيحي، وقبل أن أرفع رأسي، سمعت أحدهم يقول:

- زينة! اشتقتُ إليك كثيراً.

"زينة! اشتقتُ إليك كثيراً"، والله لو لم يقل تلك الجملة لما كان بدر منِّي ما بدر، لكن أبعدَ الخيانة، يتظاهر بأنَّه الزوج المحب والمخلص والمشتاق؟! لا وألف لا!

صمتُّ لثوانٍ وأنا أتأمَّل جرأته، يبدو أن موعده مع زوجته الأولى التي يودُّ التخلي عنها هو اليوم. تساءلت: كيف يستطيع أن يظهر لي هذا الوجه البريء؟ كان حينها قد وصل أمامي وعلى وشك أن يضمَّني إليه، فدفعته وأنا أصرخ:

- ابتعد عنِّي، وعد من حيث أتيت!

حينها أظهر لي وجهاً آخر، وجهاً مرتبكاً ومشوَّشاً كما لو أنَّه لا يفهم ما أرمي إليه، سبقته في الكلام وقلت له:

- هذا عظيم! يبدو أنَّ لديك مهارات أخرى لم نكن ندري بها، أضف إلى سيرتك الذاتية أنَّك ممثلٌ بارعٌ يا حضرة الدكتور المهندس والعالم التقي.

حاول أن يستوعب كلامي، لكن يبدو أنَّه فشل، فظلَّ صامتاً بينما أكملت كلامي بانفعالٍ شديد:

- تبدو متفاجئاً! طبعاً، فأنت لست معتاداً على زينة التي تدافع عن نفسها وعن حقوقها، ظننت أنَّك ستأتي وتجد زينة التي تحبُّك حد العمى، وتعشقك حد الهوس. زينة التي ترى كلَّ ما يصدر منك صحيحاً وسديداً، أيَّاً كان، ومهما كان، وحيثما كان. زينة التي تقول لك على الدوام: أهلاً وسهلاً، وسمعاً وطاعةً، وشكراً جزيلاً، بسببٍ وبلا سببٍ. زينة التي لا ترى منك سوى مزاياك ومحاسنك، وتتعامى عن عيوبك وأخطائك. زينة المغفَّلة والغبية التي تماديتَ في استغلال مشاعرها، وحبِّها وإخلاصها لك، وتعلُّقها بك. لكن زينة القديمة ماتت ولم تعد موجودةً، يا حضرة العريس.

وهنا أظهر لي وجها آخر، وجهاً غاضباً وحانقاً، كما لو أنَّ أحداً تعدَّى عليه ظلماً وعدواناً بما ليس فيه، سبقته مجدَّداً في الكلام وقلت له:

- ألا تخجل من نفسك؟ تأتي إلى منزلي لتستلذَّ بإذلالي! ألا يكفيك ما فعلته بي؟

وهنا وقبل أن يظهر لي وجهاً جديداً، قال لي بصوتٍ منخفضٍ:

- زينة! هذا يكفي، هلَّا دخلنا إلى المنزل، وشرحتِ لي ما الذي يجري بالضبط؟

ليتني أعلم من أين يأتي ببرودة أعصابه! وددت لو يبقي على الوجه الغاضب، فتعلو وتيرة شجارنا، لأخرج كلَّ ما في قلبي، لكنَّه قطع عليَّ سلسلة حربي الكلامية، ومع ذلك لم أستسلم وحاولت الاستئناف، فأجبته قائلة:

- أترى هذا المنزل؟ انسه إلى الأبد، واغرب عن وجهي لا أودُّ رؤيتك إطلاقاً.

قطب حاجبيه وأمسك بساعدي محاولاً جرِّي إلى المنزل، لكنِّي حاولت مقاومته، وحين شعرت بأنَّه لن يستسلم، دفعته بعيداً عنِّي وخرجت مسرعةً خارج المبنى، وكنت متأكِّدةً من أنَّه لن يلحق بي، فمنظره سيكون مريباً وهو يجري خلف امرأةٍ في الشارع. جريت نحو منزل خالتي، ألهث وأنا أبكي وأردِّد: لا، لا أريد سماع صوته ولا رؤية وجهه بعد الآن.

أُسَيد ديسمبر 2018

حقَّاً لم أفهم ما الذي أصابها! عمَّ تتحدث بالضبط؟! ولِمَ كل هذا الغضب والجنون؟! كنت أعتقد أنَّها ستكون سعيدةً لرؤيتي بعد هذه الفترة الطويلة. تساءلت وأنا مذهول: أهناكٌ أمرٌ لا أعرفه؟ أم أنَّ هذا التمرُّد نتيجة لضغطٍ أو غسيل دماغ من قبل أصدقائها؟! فهذه ليست زينة، تماماً كما قالت!

وقفت في مكاني أمام باب المنزل وانتظرتها، ففي العادة تعود بعد غضبها بدقائق، وبالفعل سمعت صوت أحدهم يصعد الدرج.

- أُسَيد!

نادتني حماتي باستغراب، فألقيت السلام عليها، أجابتني وهي تفتح الباب:

- أهلاً أُسَيد، حمداً لله على سلامتك. ماذا تفعل أمام الباب؟ ألم تعد زينة بعد؟ تفضَّل.

دخلت إلى غرفة الجلوس، فلحقت حماتي بي بعد دقيقتين وهي تحمل كأساً من العصير:

- هل وصلت للتوِّ؟ أراك تحمل حقيبة سفرك، وتبدو مرهقاً للغاية، تفضَّل.
- شكراً لك يا خالة.

شربت قليلاً من العصير ومن ثمَّ بدأت حديثي معها، فهي تنتظر أجوبةً لأسئلتها:

- نعم أتيت للتوِّ، ومررت إلى هنا أولاً، كنت أودُّ رؤية زينة، لكن يبدو أنَّ ابنتك لا ترغب بذلك.
- ابنتي! ما الذي جرى؟ ولماذا تتحدَّث بهذه اللهجة؟
- وصلت قبلها، وحينما أتت ورأتني على الباب أنتظر، وبدلاً من أن ترحِّب بي، طردتني وصرخت وتحدَّثت بكلامٍ لم أفهمه إطلاقاً! من حسن الحظِّ أنِّي استطعت كظم غيظي، فما فعلته لا يمكن وصفه، وأنا أحتاج الآن إلى تفسير الأمر من فضلك!

ارتبكتْ قليلاً، ثمّ عدَّلت جلستها وقالت:

- دعني أتحدَّث بصراحةٍ، واعذرني إن كان الكلام قاسياً.
- تفضَّلي.
- لا تلمها على ما بدر منها، فقد استنفدتَ صبرها بالكامل.
- أنا؟ ماذا فعلت؟ لم أفهم، هلَّا وضَّحتِ الأمر لي؟

- ترسلها وحدها إلى هنا، ثمَّ تهملها ولا تتحدَّث معها بشكلٍ طبيعيٍّ، وفي نهاية المطاف تختفي فلا يعلم أحد أين مكانك وكيفية الوصول إليك، أهذا شيءٌ طبيعيٌ برأيك؟
- نعم طبيعيٌّ، فأنا أخبرتها أنَّ لديَّ مهمَّة وسأكون منشغلاً، لا أفهم ما المشكلة في ذلك؟
- المشكلة أنَّكما لا تحظيان بعلاقةٍ طبيعيةٍ في الأساس، لذا فأي تصرُّفٍ غير محسوبٍ لا يمكن ضبط عواقبه.
- عفواً لم أفهم! ماذا يعني هذا الكلام؟
- أُسَيد، أنت تعلم أنَّ مشكلة الإنجاب ليست بالأمر الهيِّن، ومنذ فترة وأنت تلمِّح لابنتي بضرورة الانفصال، ومن يسمع كلامها ويرى بؤسها يعتقد أنَّها هي التي لا تنجب.

تنهَّدت وأنا أسمع حماتي لأوَّل مرَّة تتحدَّث معي بهذه الصراحة والقسوة، كان وقع كلماتها مؤلماً للغاية، لكنِّي حاولت جاهداً أن أبقى متماسكاً وألا أنفعل، أصغيت إليها بهدوء كي أفهم الأمور بشكلٍ حياديٍّ قدر الإمكان. قلت لها وأنا بالكاد أستطيع ضبط نفسي:

- حسناً، لكن مع ذلك لم أفهم ما علاقة موضوع الإنجاب بالإجازة، وبغضبها الآن؟

- أُسَيد، حين تزوَّجتها، كنت أرى أنَّ ابنتي قد انسحبت خلفك بشكلٍ كاملٍ، جعلتكَ عالمها، لم أتدخَّل، فهي حرَّة، ويسعدني أن أراكما منسجمين ومتناغمين، علمنا بالخبر المحزن حول صعوبة الإنجاب واحتماله الضئيل ومجدَّداً، لم نتدخَّل، فهذا خيارها، أن تبقى معك أو أن ترحل، وعندما رأيت تمسُّكها بك لم أحاول أن أثنيها عن قرارها، وقلت في نفسي: لعلَّه سيقدرها أكثر ويقدر تضحيتها، فتعيش معه بهناء وسعادة، ولعلَّ هذا هو نصيبها من نقص الدنيا، لكن ما حدث هو العكس فعلاً.
- ما أزال لا أفهم، لِمَ ستحتاج زينة إلى مزيدٍ من التقدير؟ من يسمع هذا الكلام يظنُّ أنَّها تعيش مع زوجٍ ظالمٍ ومتعجرفٍ وآكلٍ للحقوق، اعذريني يا حماتي، لكن أنا لا أقبل هذه الاتِّهامات.
- لم يتَّهمك أحدٌ، لكنَّك إلى الآن لا تدرك كيف حوَّلت زينة إلى آلةٍ لطاعتك، فانصهرتْ الفتاة في شخصيتك ولم يعد لها أي وجود.

استغربت جدَّاً من هذا المنطق الذي ظهر فجأة، ولم أعد أرغب بالجدال معها، فلا طائل من ذلك، يبدو أنَّها تودُّ إزعاجي، وتحاول أن ترمي كلماتٍ جارحةً هنا وهناك، وكي أوقف هذا النقاش السخيف، قلت لها:

- حسناً، أفهم من كلامك، أنَّ زينة ترغب في الانفصال.

- لا أعلم بالضبط.
- أيَّاً كان الأمر، وأيَّاً كان القرار، هل برأيك أنَّه من الصائب أن تزفَّ لي قراراتها على باب المنزل، فتصرخ بأعلى صوتها أمام الجيران؟
- لا بالطبع! لكن اعذرها، فهي تشعر بالإهانة والذلِّ.
- إهانة!

وهنا أفصحت حماتي أخيراً عن الحلقة المفقودة:

- نعم، إن كنتَ تنوي الزواج مجدَّداً، فلتفعل ما يحلو لك، لكن لا تعامل ابنتي كما لو أنَّها شيء من أشيائك، تركنه متى تشاء، وأينما تشاء، وكيفما تشاء.
- عن أي زواجٍ تتحدَّثين؟
- تختفي، ولا تتحدَّث، تسافر ولا تخبرها إلى أين أنت مسافر، وتخطِّط لنفسك دون أن تعلمها بشيء، ألا يعني ذلك بأنَّ هنالك إمرأة خلف هذا السلوك الغامض!

لم أرد، فلا طاقة لي للأخذ والردِّ، ولا أودُّ أن أرتكب خطأً مع حماتي، فأي كلمة ستصدر منِّي في هذا الظرف ستكون قاسيةً ولئيمةً. سألتها بعدما عرفت سرَّ جنون ابنتها:

- والآن، أين زينة؟
- لا أعلم، لم تتَّصل بي.
- حسناً، سأنتظرها في هذه الغرفة إن لم يكن لديك مانع.
- لا بأس، أهلاً بك.
- إن اتَّصلت لا تخبريها بوجودي، دعيها تأتي وتهدأ قليلاً، ومن ثمَّ سأتحدَّث إليها.
- رجاءً، لا تقل "دعيها تهدأ"، كما لو أنَّ ابنتي مجنونة!

أستغفر الله العظيم، ضبطت نفسي مجدَّداً، وقلت لها بهدوء:

- لم أقصد ذلك يا خالة، قصدت أن تأتي فترتاح وتسكن جوارحها وتهدأ نفسها، هذا كلُّ ما في الأمر. أودُّ الحديث معها اليوم، ولن أخرج من هنا قبل أن أراها، وكي يكون حديثنا طبيعيَّاً، سأنتظرها لتصل وترتاح قليلاً، أفي الأمر مشكلة؟
- لا بأس لكن ماذا لو أتت فتوجَّهت مباشرةً نحو غرفة الجلوس حيث أنت.
- حينها سأراها وأتحدَّث إليها مباشرة.
- حسناً، سأكون في المطبخ، عليَّ تحضير طعام الغداء، إن احتجتَ إلى أي شيء فلا تتردَّد بطلبه.
- شكراً جزيلاً.

الآن فهمت من هو العريس! هل ظنَّت أنِّي سأتزوَّج؟ من أين لها بهذه الفرضية التافهة! أقسم إنَّ أحداً وراء هذا الكلام، ولولا أنَّ بعض الظَّنِّ إثم لجزمت أنَّ هذه السردة من صنع حماتي.

بقيت أفكِّر وأحاول الوصول إلى طريقةٍ ملائمةٍ أبدأ بها حديثي معها، قرَّرت أن ألتمس لها العذر وأن أتغاضى عن فعلتها السخيفة التي استقبلتني بها. بينما كنت أرتِّب أفكاري، سمعت باب المنزل يُفتح، وإذ بها زينة بالطبع، كنت أجلس في مكانٍ لا يمكنها رؤيتي منه، دخلتْ وتوجَّهت أوَّلاً إلى المطبخ، ويبدو أنَّها تحدَّثت مع والدتها، ثمّ انطلقت نحو غرفتها وهي تقول:

- لا تنتظراني على وجبة الغداء حينما أرتاح سأخرج وحدي.

وأغلقت باب غرفتها.

زينة ديسمبر 2018

- أمِّي.
- أهلاً يا حبيبتي.

نظرت إليها لأستشفَّ هل علمت بمجيء أُسَيد أو قابلته، سألتني:

- كيف حال خالتك؟
- هي بخيرٍ الحمد لله.

قلت في نفسي: إذن فهي لا تعلم بقدومه، وبما أنَّ الصداع كان يأكل رأسي حينها، قرَّرت أن أخبرها بما حدث حالما أرتاح قليلاً. قلت لها:

- اعذريني سأدخل إلى غرفتي أشعر بصداعٍ شديدٍ.
- لا عليك يا عزيزتي.

خرجت من المطبخ وأنا أقول:

- لا تنتظراني على وجبة الغداء حينما أرتاح سأخرج وحدي.

ومن ثمَّ دخلت إلى غرفتي وأغلقت الباب خلفي، كنت منهكةً إلى أبعد حدٍّ. لستُ نادمةً على ما قلته له، ولستُ حزينةً لأجله، بل لأجلي أنا، منذ متى وأنا شرسة بهذا الشكل؟! سألت نفسي: لِمَ كنت عنيفةً معه لهذه

الدرجة؟! لم يسمع جيراننا صوتاً لي خلال السنوات الماضية، لآتيَ اليوم وأصرخ بأعلى صوتي بكلامٍ لم أعتد قوله لأحد، فيجدونني أوجِّهه لزوجي، ما الذي فعلته بنفسي؟!

جلست على الأرض، وأسندت رأسي إلى طرف سريري ورحت أبكي. البكاء، هو ما أجيده منذ أشهر. بكاءٌ طويلٌ ومستمرٌّ، لا يزيدني إلا ضعفاً وتعباً وإرهاقاً، لا أملك حكمةً ترشدني ولا خبرةً توجِّهني، ولا قوةً كافيةً تدعمني ولا رصيداً من العزم والصبر. وحده أُسَيد من يستطيع أن يفعل ما يشاء دون أن يكترث لأحدٍ ودون أن ينتظر موافقة أحد.

أُسَيد! سأكذب إن قلت إنِّي لم أشتق إليك، نعم لقد اشتقت إليك، وددت لو أستقبلك بحبٍّ وحفاوةٍ وحماسةٍ، لكنِّي أعلم أنَّك لم تأتِ لخير. أتهزأ بي؟! تأتي حاملاً حقيبتك كما لو أنَّك وصلت لتوِّك من المطار؟! يا لك من مخادع! ما حاجتك إلى اللفِّ والدوران؟ ليتني أعرف!

ترى أين ذهب الآن؟ إلى خطيبته؟ زوجته؟ هل سيرسل إلي ورقة طلاقي قريباً، خاصَّة بعدما بدر منِّي؟ لماذا لم أعطه فرصة للكلام؟ لقد أوصتني خالتي مراراً أن أنتظره وأسمع ما لديه، لِمَ فعلت ذلك؟!

أجهشت بالبكاء، وأنا أشعر بالظلم والخذلان، وحين علا صوت نحيبي، سمعت صوت باب غرفتي وهو يُفتح، يبدو أنَّ والدتي قد سمعتني، فأتت لتطمئنَّ عليَّ. أكملت بكائي وأنا في تلك الحالة المزرية، فوضعت يدها بحنانٍ على رأسي.

حاولت أن أهدأ وأتوقَّف عن البكاء كي أشرح لها ما جرى.

انتظرت عشرة دقائق وبعدها توجَّهت نحو غرفتها، فتحت باب الغرفة بهدوء فوجدتها قد غرست وجهها بين يديها مستندةً إلى حافة سريرها وهي تجلس على الأرض.

رقَّ قلبي ونسيت غضبي منها، اقتربت منها فلم تشعر بوجودي أو لربَّما ظنَّتني والدتها. كانت تتمتم بكلماتٍ متفرِّقةٍ: "أتهزأ بي، مخادع، ليتني أعرف، أين ذهب، ورقة طلاقي، لماذا... لماذا...."

حزنت لحالها، فوضعت يدي على رأسها ورحت أمسح عليه برفقٍ شديدٍ، انخفض صوت بكائها شيئاً فشيئاً، لكنَّها صمتت فجأةً ورفعت رأسها بشكلٍ سريعٍ كما لو أنَّها تنبَّهت لوجودي، وحين رأتني نظرت إليَّ بدهشةٍ واستنكارٍ، وقالت:

- أُسَيد! ماذا تفعل هنا؟

لم أجبها، ورحت أنظر إلى وجهها وملامحها، كم اشتقت إليها، ما بها قد جنَّت هكذا؟! نظرتْ إليَّ بعينيها اللامعتين بحزنٍ وألمٍ. هممت لأمسح دموعها فأبعدت يدي عن وجهها بحزمٍ وغضبٍ، فقلت لها:

- زينة، أرجوك اسمعيني، تحدَّثتُ مع والدتك وفهمت دواعي غضبك، من أين لكِ بفكرة زواجي تلك؟! لا يوجد شيءٌ مما تشكِّين به، هل أجلب المصحف كي أقسم عليه؟
- لا تجلبه فأنا لن أصدِّقك بكلِّ الأحوال.
- لماذا زينة؟ ما الجريمة التي ارتكبتها في حقِّك؟
- هلَّا أخبرتني أين كنتَ، ومن أين أتيت؟
- كنت في مهمَّةٍ وأتيت إلى هنا بعدما أنهيتها، ألم أخبرك مسبقاً بذلك؟

- ألا تخجل من نفسك؟! أن تخدعني وتجلب معك حقيبة سفر، وتنتظر منِّي أن أفرش لك بساطاً أحمر ترحيباً بقدومك من السفر، وأنت هنا في البلد بشكلٍ سريٍّ منذ عشرة أيام!

إذن فقد علمت بوجودي، فكَّرت بسرعةٍ بمصدر المعلومة فاكتشفت الأمر، وقلت لها:

- أهو موقع الحجز؟
- نعم يا أستاذ، والآن أخبرني، هل عقدت قرانك أم ليس بعد؟ لا تخف لن أمنعك، بل أودُّ أن أبارك لكما أنت وسعيدة الحظ...

لم أدعها تكمل كلامها، قاطعتها وأنا أقول لها:

- زينة اسمعيني، سأشرح لكِ الأمر.
- ومن قال لك إنِّي بحاجةٍ إلى الشرح، افعل ما يحلو لك، أنا اتَّخذت قراري، دعنا ننفصل، وليذهب كلُّ واحدٍ منَّا في حال سبيله.
- كما تشائين، لن أجبرك على البقاء معي، لكن اسمعي ما لدي وللمرَّة الأخيرة، لا أريد أن ننفصل بهذه الطريقة، أرجوك!
- قل ما لديك وأوجز.

جلست أمامها على الأرض بعدما كنت جالساً القرفصاء، ابتسمت وقلت لها:

- لا تقلقي، لن أزعجك، ولن ألحَّ عليك بشيء، وستصرِّين على الانفصال بعدما تسمعين كلامي، فما سأسرده هو خبرٌ يضعف موقفي، ولا يدعمه.

تنهَّدتُ، ثمَّ أردفت:

- بعد سفركِ بأيام، أجريت فحوصاتٍ جديدةً في مركزٍ مختلفٍ، وجزم الطبيب بعدم جدوى المحاولات الطبِّية. باختصار: لا أمل لي في الإنجاب. كان وقع الخبر على نفسي سيئاً للغاية، انهرت تماماً، أحمد الله أنَّه لم يقبض روحي في تلك الأيام، فقد كنت في دركي الأسفل، ضاقت عليَّ الدنيا، فقرَّرت أن ألجأ إلى ملاذي الوحيد، إلى المكان الذي يؤنس وحشتي، ويحتويني عندما أتوه، ويغمر قلبي بالسكينة والسلام، إلى المكان الذي يخرج أفضل ما لديَّ، ويمحو بؤسي وشقائي. اعتكفت في أحد المساجد على أطراف المدينة، لذا أخبرتك ألا تحاولي الاتِّصال بي، ويبدو أنِّي أخطأت بعدم إخبارك بالأمر، لم يخطر ببالي أن يساورك الشكُّ، وتظنِّي بي هذا الظن، أنا لا أفهم لماذا سأتزوَّج؟

من منّا الذي لا ينجب؟ ومن منَّا صاحب الموقف الضعيف؟ أجيبيني لا تنظري إليَّ بهذه الطريقة!

انتظرتها لتتحدَّث، لتجيب، لتقول أي شيء، لكنَّها لم تفعل، فأكملت كلامي:

- زينة، في اعتكافي، عدت إلى رشدي، ملأ الرضا قلبي مجدَّداً، ووصلت إلى السكينة التي أرجوها، حزينٌ أنا، لكنَّني راضٍ بما قسمه الله لي. في هذه الحياة، لن يكون لي أبناء، هذه الحقيقة قد اقتنعت بها تماماً، ولم تعد تنغِّص عليَّ. أنا الآن متوازنٌ ومدركٌ أنَّ أموراً كثيرة سأغيرها في مسيرتي، وفي خطَّة حياتي، ومشاريعي واهتماماتي. وضعت اقتراحاتٍ كثيرةً خلال فترة اعتكافي ورتَّبت أفكاري من جديدٍ.

صمت قليلاً لأعطيها المجال لتتحدَّث، لكنَّها مجدَّداً لم تفعل، فتابعت كلامي، ولا سيَّما أنِّي وصلت إلى النقطة الأكثر أهمية:

- كما قلت لكِ، لستُ هنا لأثنيك عن قرارك، بل لأوضِّح لك المستجدات، فإن كان قرارك نهائياً، تستطعين تأكيده الآن، وإن أردت أن تفكِّري، فسأنتظرك. لكن يجب أن تعلمي شيئاً مهمَّاً، أنِّي لا أريد الانفصال عنك، وأتمنَّى أن نبقى معاً حتى آخر لحظةٍ

من حياتي، أن أكبر وأنت بجانبي، أن أُطلعك على خططي الجديدة، ونناقشها معاً، فنضع أحلاماً مختلفةً، ونسعى إلى تحقيقها يداً بيدٍ، وقلباً بقلبٍ، لكن لن يحصل هذا إلا إن اتَّخذتِ قرارك بكلِّ شفافيةٍ وحياديةٍ، وسكن الرضا قلبك، ورضيت بما قسمه الله لكِ معي، عدا عن ذلك، ستعيشين في جحيمٍ لا يُطاق، ولا سيَّما أنَّك لست مرغمةً على الخطَّة البديلة، فكِّري بالأمر جيِّداً، وكوني واقعيةً، وتحدَّثي مع نفسك بصدقٍ وحاولي أن تكتشفي ماذا تريدين بالضبط. زينة، لا أريد أن أضغط عليك بهذا الكلام، لكن كان لا بدَّ من أن أذكِّرك بأنَّك الشخص الأساسي في حياتي. أعلم أنِّي لستُ الأفضل لكِ، إلا أنَّكِ كنت وستبقين الأفضل لي.

نظرت إليها، فلَم أستقرئ منها أي شعور، كانت ملامحها جامدة، فعلمت أنَّها ليست مستعدَّةً الآن للإدلاء بأي رأيٍ أو تعليق. نهضتُ من الأرض، وقلت لها وأنا أنصرف من الغرفة:

- سأمضي الآن، ألن تقولي شيئاً؟ هل سكوتك يعني المضي في قرار الانفصال؟ هل أفهمه بهذه الطريقة؟ أجيبيني.

زينة ديسمبر 2018

صدمني كلامه، وقع على قلبي كالجبل، كنت أسمعه وأنا مشوَّشة، أأفرح لأنَّه مخلصٌ لي، وكانت كلُّ أوهامي خاطئة حول ارتباطه، أم أحزن لأنَّنا فقدنا الأمل في الإنجاب؟!

أأفرح لأنَّه استعاد قوَّته الداخلية، وإيمانه العميق، وسلام فؤاده، أم أحزن لأنَّ هذا السلام بعيدٌ عنِّي، فأنا لا أضمن أن أصل إليه وألَّا تزورني أيامٌ أندم فيها على اختيار مصيري بيدي بينما كنت أمام خيار آخر؟!

أأفرح لأنَّه يجلس أمامي، وبين يدي، يخبرني بأهمِّيتي في حياته، ويشوِّقني لأحلامه الجديدة، وطموحاته المختلفة، أم أحزن لأنَّنا سنبقى هكذا، شخصين وفقط، وسأنسى كلَّ ما يتعلَّق بالأطفال إلى الأبد؟ كيف سأنتزع كلمة "ماما" التي ترنُّ في أذني؟ وكيف سيستقرُّ قلبي بهذا القرار؟

أأفرح لأنّه ما تزال لديَّ فرصة الاختيار؟ أم أحزن لأنَّ عقلي يميل إلى تركه؟ ولم يعد قلبي يمتلك الطاقة ليدفعني إلى البقاء معه؟

كنت أفكِّر، حينما وقف وسألني:

- ألن تقولي شيئاً؟ هل سكوتك يعني المضي في قرار الانفصال؟ هل أفهمه بهذه الطريقة؟ أجيبيني.

وددت لو أجيبه بـ "نعم"، فأحسم أمري وأنتهي من هذا التردُّد، لعلِّي أصل إلى سلامي كما وصل هو إليه، لكن كان علي أن أعيد التفكير بعد كلِّ ما سمعته منه.

لكن مجدَّداً، ماذا سينفعني التفكير؟ هل سأكون مستعدَّةً لخوض التجربة مجدَّداً، بالطريقة ذاتها، والأسلوب ذاته؟ أن أضغط على نفسي وأمشي وراء طموحاته البديلة، وأسعى فقط لإرضائه، ومجاراة مزاجه الخاص، وأفكاره الصارمة؟

ماذا عنِّي أنا؟ وعن طموحاتي، أليس من حقِّي أن أبني طموحاتي الخاصَّة، سواءً مع أطفال أو من غير أطفال، مع زوجٍ أو بمفردي؟

لماذا لا أتعلَّم منه هذه الثقة بالنفس، فأخرج من علاقتنا وأنا رابحة ومستفيدة، فأكتسب مهاراته واعتزازه بنفسه واعتداده بطريقته وأفكاره وآرائه؟ لماذا لا أكون حازمةً مثله، فأستطيع سرد ما أريد قوله بشجاعةٍ وإقدامٍ وتصميمٍ؟!

لماذا لا أطوي هذه الصفحة وأنا قوية وأملك تجربةً زاخرةً بكلِّ أنواع التحدي؟ لماذا لا أمضي بالفعل؟ ما الذي سيضرُّه إن مضيت؟ لا شيء،

أنا أعلم ذلك، سيحقِّق كلَّ أهدافه بي ومن دوني، وسيصل إليها، وسيتفوَّق، وينطلق وهو سعيدٌ ومطمئنٌّ.

تلعثمت وأنا أحاول النطق بكلمة "نعم"، فقلت في نفسي: لا، لن أقولها الآن، سيكون الدرس الأول الذي أتعلَّمه منه، أن أحسب كلَّ خطوةٍ بهدوء وأعلنها بهدوء، أمَّا خطوة الانفصال لن أفصح عنها وأنا مُتعبة ومرهقة ولا أقوى على تمرير أفكاري، ولا تبرير موقفي، ولا تفسير كلماتي.

سأدعه يمضي الآن، وسأستجمع قواي، وأكون مستعدَّةً لمواجهته بقراري، دون أن أزعجه ومن غير أن أجعل لحظة فراقنا لحظةً سيِّئةً لنا ، فهو لا يستحقُّ إلا الخير، مع كلِّ عيوبه التي لا أعتقد أنِّي سأحتملها أكثر من ذلك.

زينة ديسمبر 2018

بعد لقائنا الأخير، بقيت في غرفتي لأيامٍ وأنا أحاول التفكير بهدوء. لم أشأ هذه المرَّة أن أرمي حملي على أحد، أو أشكي همِّي لأي إنسان، بل أردت سماع صوت نفسي، وأنصت إليها لعلِّي أخرجها من القفص الذي وضعتها به، وأصدق الحديث معها، وعلى عكس ما توقَّعت، كانت تلك المهمَّة شاقّةً وعسيرةً، فعلى مدار السنوات الماضية كبتُّ نفسي، وغيَّبتها حتَّى بات الوصول إليها مرهقاً وصعباً.

"لماذا سأنفصل عن أُسَيد؟"

في البداية كان جوابي سريعاً وواضحاً: سأنفصل عن أُسَيد لأنَّنا مختلفان، ولم أعد أنسجم معه، كما أنَّه لا يكترث بي، ويتركني تائهةً في ظنوني. يا إلهي كم ينتابني شعور بضحالة علاقتنا، لم أصل إلى أعماقه، ولم يصل هو إلى أعماقي، يزعجني هذا الأمر على نحوٍ كبير. كيف يأتي ولا يخبرني؟ كيف يخطِّط ولا يعلمني بشيءٍ؟ سامحه الله.

لكن حين أمعنت النظر في ظنوني الأخيرة المتعلِّقة بزواجه من غيري، قلت في نفسي: كيف صدَّقتُ هذه السردة؟ وكيف اقتنعتُ بها؟ ماذا كنت أريد من تصديق حبكةٍ كتلك؟ ولماذا احتميت بفكرة تخليه عنِّي،

ولجوئه إلى الزواج من امرأةٍ غيري؟ أهي فكرةٌ أعجبتني فتمنَّيت لو تصبح حقيقةً، ومثَّلت دور الضحية فيها؟

فكَّرت ثمَّ أجبت نفسي: لا أريد أن يتركني ليتزوَّج غيري، أنا متأكِّدة من ذلك.

إذن لعلَّها أوهامٌ تعكس قلَّة ثقتي بنفسي؟

لا، ليس الأمر كذلك، فرغم قناعتي بتفوُّق أُسَيد عليَّ في كلِّ المجالات إلا أنَّني متأكِّدة من حبِّه لي، وبأنَّه لا يلتفت إلى امرأةٍ غيري، وواثقة كلَّ الثقة بأنَّه لا ينظر إليَّ بعين المقارنة والتنافس، بل إنَّ نظرته إليَّ مليئةٌ بالمودَّة والرحمة، واثقةٌ أنا من شعوري.

وهكذا رحت أنتقل كلَّ يومٍ من سؤالٍ إلى آخر. كانت والدتي خلال تلك الأيام تحاول مساعدتي لكنَّني كنت أؤكِّد لها حاجتي إلى الخلوة مع نفسي وأنَّني سأكون بخيرٍ. مضت أيام عديدة على هذه الحال، إلى أن ضُقت ذرعاً من الجدران التي تحيط بي، فقرَّرت الخروج للتنزُّه، كانت الشمس مشرقةً رغم برودة الطقس، مشيت بين الأزقَّة والحارات إلى أن وجدت نفسي أمام إحدى الحدائق العامَّة، كانت الساعة نحو الثانية ظهراً، جلست على أحد المقاعد الفارغة، ورحت أتأمَّل الأطفال وهم يلعبون على الأرجوحات ويمرحون ويصرخون.

حينها شعرت بأنِّي على وشك فتح أسرار وخبايا قلبي، كما لو أنَّها في صندوقٍ مقفل أتجنَّب فتحه وأحرص على عدم الاقتراب منه، أو الإشارة إليه. صندوقٌ يحوي إجابة عن كلِّ الأسئلة التي استعصت عليَّ. عزمت وأنا أراقبهم أن أفتح ذلك الصندوق بتأنٍّ وهدوء، وما إن فعلت ذلك حتَّى توضَّعت النقاط على الحروف، والكلمات على السطور.

كانت كلمة السرِّ وراء تصرُّفاتي غير المنطقيَّة وقراراتي المتضاربة وتردُّدي الدائم، وعدم استقراري هي "الأطفال". حزني وألمي من حرمان الأطفال، جعلني مشوَّشةً، أحاول دوماً أن أشغل قلبي وتفكيري بشيءٍ بعيدٍ عن هذا الموضوع، لأغطِّيه وأرسله بعيداً، فلا أجد الوقت للتفكير به.

"يؤلمني بشدَّة أنِّي لن أصبح أمَّاً" لماذا أكذب على نفسي، وأختلق أسباباً بعيدةً عن هذه الحقيقة؟ هل أريد أن أكره أُسَيد؟ أم أنِّي فقط ألعب لعبةً نفسيَّة مع مشاعري؟ ماذا أريد بالضبط؟ هل أريد أن أنفصل عن أُسَيد كي أحظى بفرصة الإنجاب؟ لماذا أكبت شعور الحزن حيال الأطفال؟ لعلِّي لا أريد أن أجرح أُسَيد؟ أو لعلِّي أريد نسيان الأمر وإبعاده عنِّي؟ لكن، هل أنا مُضحِّية، أضغط على نفسي من أجل الآخرين؟ وإن كنت فعلاً كذلك، هل أنا راضية بهذا الدور؟

أم لعلِّي أنانية، أُظهر نفسي بدور الملاك وأنا ساخطة وناقمة؟ وإن كنت فعلاً كذلك، هل سأبقى متظاهرةً بهذا الدور؟

سألت نفسي بصدقٍ وشفافيةٍ: هل سأنفصل عن أُسَيد من أجل الأطفال؟ هل أرغب فعلاً في الانفصال، فيذهب كلٌّ منَّا في حال سبيله؟

أخرجت هاتفي ورحت أصيغ أفكاري التي بدت لي أكثر وضوحاً، وأحاول ترتيبها، فليس هنالك وقت كبير أمامنا، سيعود أُسَيد إلى لندن بعد خمسة أيام، لديه عمل ومشاغل ولن يستطيع البقاء بعد انقضاء عطلة رأس السنة الجديدة.

لكن هل كانت مشكلاتي ستحلُّ لو أصبحت أمَّاً؟ هل مشكلتي الأساسية مع أُسَيد هي الأمومة؟ أم طريقة حياتنا وطبيعة علاقتنا؟ إن تركت أُسَيد هل سأضمن أن أرتبط مجدَّداً، وأنجب؟ ماذا لو انفصلنا، وبقيت وحدي بقيَّة حياتي؟ هل سأعود إلى مهنة التمريض مجدَّداً؟ وهل سيكون من السهل العودة إلى نظام الحياة السابق حين كنت عازبةً في منزل والدي؟ لقد اختلف الأمر الآن، واعتدت نظاماً جديداً.

وبينما كنت أدوّن أفكاري على هاتفي تنبَّهت لأمرٍ مهمٍّ.

أُسَيد ديسمبر 2018

خرجت من المسجد، وبينما كنت متوجِّهاً إلى البيت بعد صلاة العصر، رنَّ هاتفي، فإذا بها زينة، قلت في نفسي: أخيراً اتَّخذت قرارها. خلال الأيام السابقة، لم يتكوَّن لديَّ أي شعور أو تخمين حول ما سيفضي إليه قرارها، كنت أنتظر ردَّها.

- أهلاً زينة، كيف حالك؟

أجابتني وهي متوتِّرة:

- أنا بخيرٍ، أُسَيد، لديَّ سؤال.
- تفضَّلي!
- كيف عليَّ أن أتصرَّف إن أضعتُ محفظتي؟
- هل أضعتِ محفظتك؟!
- نعم، لقد سُرِقت حقيبتي، وبها المحفظة.
- هل بطاقاتك البنكية بداخلها؟
- نعم، بداخلها بطاقة بنكية، وهويتي الشخصية، وبضع بطاقاتٍ أخرى.

- سأوقف البطاقات حالاً، وأعاود الاتِّصال بك، أين أنتِ الآن؟
  هل أنت بمكانٍ آمنٍ؟
- أنا في الحديقة العامَّة في الحيِّ المجاور لمنزل أهلي.
- سآتي حالاً، أرسلي إلي العنوان بدقَّةٍ، لن أتأخَّر لا تقلقي.
- أُسَيد، لا داعي لأن تأتي، قل لي ما عليَّ فعله، وسأتولَّى أنا المهمة.
- حسناً، سأقول لكِ حالما آتي.

ألغيت البطاقات، ومن ثمَّ انطلقت بسرعة، ووصلت خلال مدَّةٍ قياسية لأراها جالسةً على أحد الكراسي، كانت مضطَّربةً وقلقةً، ألقيت السلام عليها ومددت يدي، فلم تحرجني. أمسكت يدها وقبضت عليها:

- ماذا حدث؟
- كنت أجلس هنا، شردت قليلاً، وأنا ممسكة بهاتفي، فلم أنتبه أنَّ أحدهم سحب الحقيبة التي وضعتها بقربي.
- هل كان جواز السفر بداخلها؟
- لا أعلم، لست متأكِّدة.

قلت في نفسي: ما هذا الجواب؟! لا تعلم؟! وإن كان في الحقيبة بالفعل، لِمَ تأخذ جواز السفر معها؟ ما هذا التصرُّف الغريب؟! لم أشأ أن ألومها،

ولا أن أؤنبها، لكن لا بدَّ وأنَّه قد ظهرت عليَّ ملامح الاستغراب، إذ نظرت إليَّ بقلقٍ، فقلت لها:

- حسناً، كل شيء يعوض، لا عليكِ. وفي كلِّ الأحوال سنضع بلاغاً، لعلَّ السارق يأخذ المال ويرميها في مكانٍ ما.
- تفوق قيمة الحقيبة، والمحفظة، والنظارة الشمسية، المال الذي فيها بكثيرٍ!
- ومع ذلك، قد يرميها في مكانٍ ما، دعينا ننطلق حالاً إلى مركز الشرطة التابع لهذا الحيِّ، لقد بحثت عنه وأنا في طريقي إلى هنا.

وبالفعل انطلقنا ووضعنا البلاغ ورقم الهاتف عند مركز الشرطة كي يتَّصلوا بنا في حال عثروا على المحفظة أو الحقيبة، ومن ثمَّ خرجنا من مركز الشرطة معاً، وأنا لا أدري بماذا تفكِّر زينة، وإلى أين وصلت بقراراتها. مشينا قليلاً ونحن صامتان، ثمَّ قالت لي:

- أريد أن أتحدَّث إليك بأمرٍ، هل لديك وقت؟

أجبتها:

- بالطبع!

أشارت حينها إلى أحد المقاهي، وقالت:

- هل نجلس هنا؟

ورغم أنِّي لا أحبذ الحديث بأمورٍ حساسَّة في مقهىً عام، إلا أنَّني أجبتها:

- حسناً، إن كنتِ ترغبين في ذلك.

وبالفعل، جلسنا في المقهى، فانتظرتها لتبدأ حديثها، كنت أتأمَّل حركاتها وهي تتصنَّع هدوء الأعصاب، ثمّ َقالت:

- أتعلم أُسَيد؟ ليست هذه المرَّة الأولى التي أدخل فيها إلى هذا المقهى، كنت أجلس فيه بعد كلِّ مباراة.
- مباراة؟
- نعم لقد كنت عضواً في فريق تنس الطاولة للمدينة.
- حقَّاً؟
- كنت من أمهر اللاعبات، لطالما تأهَّلت إلى النهائيات.
- جميل! إنَّها المرَّة الأولى التي أسمع بها عن هذا الأمر.

نظرتْ إليَّ نظرةً فهمتُ فحواها، قصدت بها عدم تحبيذي لهذه الفعاليات والأنشطة. أكملتْ كلامها قائلةً:

- كانت المباراة الأخيرة قبل خطوبتنا بأشهر.

سألتها متصنِّعاً عدم فهمي لما ترمي إليه:

- ولماذا توقَّفتِ عن اللعب؟

تنهَّدتْ حينها وأطالت صمتها، ثمَّ قالت:

- أُسَيد، أنت تعلم أنِّي أحببتك كثيراً، أحببتك بكلِّ ما فيك، وانجرفت بحبُّك بشكلٍ مبالغٍ فيه، فلم أعد أعطي نفسي حقَّها، لا أسمعها ولا أفهمها، ألغيتها من حياتي، وبات كلُّ شيء يدور حول أُسَيد، وما يقوله أُسَيد، وما يريده أُسَيد.

توقَّفتْ قليلاً عن الكلام، لتعطيني المجال، لكنَّني لم أقاطعها، وأردت أن أسمع كلَّ ما لديها أوَّلاً، فأكملتْ:

- أنا لا ألومك أُسَيد، بل ألوم نفسي، أنا التي أخطأت، وأنا التي فقدت توازني، وأنا التي ضغطت على روحي. أعلم أنَّك لم تجبرني على طباعك، ولم تُكرِهني على تبنِّي أفكارك، وأنِّي فعلت ذلك بكامل إرادتي، لكن كنت واقعةً تحت تأثير هالتك البرَّاقة، التي كانت تسحبني نحوك وتلغيني. لم أعد أعلم من أنا، ومن أكون؟ وماذا أريد أن أفعل؟ ولماذا؟ ومتى وأين؟! وبلا قصدٍ منَّا شكلنا ثنائياً غير متوازنٍ البتة.

ظهرت ملامح الدهشة على وجهي رغماً عنِّي، فأردفت كلامها، وقالت:

- دعني أسألك سؤالاً.
- تفضَّلي!
- خلال السنوات الماضية التي قضيناها معاً، كم عدد المرَّات التي تشاجرنا فيها شجاراً حادَّاً وحقيقياً؟

فكَّرت قليلاً، ومن ثمَّ أجبتها:

- لا أذكر أنَّنا تشاجرنا شجاراً حادَّاً.
- وهنا تكمن المشكلة!
- مشكلة! ألا يدلُّ ذلك على انسجامنا؟
- إطلاقاً!
- لماذا؟
- هناك مقولة لطبيبٍ نفسيٍّ يُدعى "مارك بورغ"، مفادها بأنَّ الغياب التام للخلافات بين الزوجين ليس ظاهرةً صحيَّة، فهو يدلُّ على أنَّ أحد الطرفين لا يملك الثقة الكافية لإظهار اختلافاته في الرأي. بمعنى آخر، أنَّ أحد الطرفين يكبت شعوره ورأيه لتجنُّب الخلاف والاختلاف.
- وفي حالتنا، كنتِ أنتِ الضحية؟ أهذا ما تقصدينه؟

- شيءٌ من هذا القبيل!

شعرتُ بعدم الارتياح لما تقوله، فهي تباغتني باتّهاماتٍ خطيرةٍ، كنت أودُّ الدفاع عن نفسي، لكنَّني فضَّلت الصمت، لأرى إلى أين ستصل، فإن كان قرارها بالانفصال، فما حاجتي إلى التبرير؟! لن يغيِّر دفاعي عن نفسي شيئاً، فالسبب الأساسي واضحٌ ولا يَغفِل عنه عاقل. لو أنَّنا أنجبنا طفلاً، لانشغلتْ به عن الدنيا بما فيها، ولملأ لها الكون بأبعاده، ولأضفى على حياتها سعادةً تغنيها عن كنوز الأرض. إنَّ ما تحتاج إليه زينة واضحٌ وضوح الشمس، فلماذا كل هذا اللف والدوران؟! أدرك أنَّها لا تودُّ إحراجي، لكن ما فائدة ما تفعله إن كان سيؤدِّي إلى النتيجة ذاتها؟! بقيت صامتاً ولم أشكك فيما تقوله، فأردفت كلامها:

- أُسَيد، وضعت معادلةً لسلامي الداخليِّ، وأودُّ أن أُطلِعك عليها.

معادلة؟! عن أي معادلة تتحدَّث؟ أصابني الفضول حول الأمر، أرسلتْ إلي رسالةً عبر تطبيق الواتساب، فيها بندان تحتاج إلى حلِّهما لتصل إلى سلامها الداخليِّ على حدِّ تعبيرها، حين وجدت أنَّ موضوع الإنجاب من ضمنها، علمت أنَّها لا تنوي المواربة كما اعتقدت، إنَّما

كانت تمهِّد للأمر. قرأت رسالتها ورحت أردِّد عباراتها باستغراب، إذ كتبتْ فيها:

أسلوب الحياة مع أُسَيد، و الأمومة.

شعرت بالأسى والأسف الشديدين، كنت أظنُّ أنَّ ما ينغِّص حياتها هو حرمانها من الأطفال، سألتها:

- لم أفهم ماذا تقصدين بـ "أسلوب الحياة مع أُسَيد"؟ أنتِ لم تشتكي يوماً، ولم تناقشي ولم تعترضي!

ابتسمتْ ابتسامةً صفراء وقالت:

- هل تذكر أيام الخطوبة؟ هل تذكر أمثلتك التي كنت ترميها لي كأمرٍ محقَّقٍ لا يقبل النقاش؟ هل تذكر تعليقاتك حول ذهابي وقدومي مع أصدقائي؟ هل تذكر صرامتك حول طريقة حجابي؟ هل تذكر ردَّة فعلك حين رأيتني مرَّة وعلامات الكحل على عيني؟ هل تذكر حين أتى ذِكْر ابن خالتي في إحدى المرَّات، فاكتشفتَ أنَّه أحد أعز أصدقائي؟ هل تذكر كم استنكرت ذلك؟ هل تذكر، أم أسرد لك أكثر؟
- أظنُّك تعلمين أنِّي أتحرَّى الحلال والحرام.

- نعم أعلم، لكنَّك كنت تقحمني بآرائك حول المكروه والمستحب، وتلزمني بالفتوى التي تختارها، حتَّى لو توفرت فتوى أخرى، ثمَّ إنَّ صرامتك لا تقتصر على الدين فقط، ألا ترى كم أنتَ صارمٌ مع أهلي؟ وكم أنَّ طريقتك معهم قاسية؟ أتعتقد أنَّ شكل العلاقة التي تجمعك بهم طبيعية؟ لم أرك يوماً تتودَّد إليهم، أو تحادثهم بلطفٍ، لم أرك يوماً تتَّصل بهم لتطمئنَّ عليهم، لم أسمعك يوماً تثني عليهم فتُفرِح قلبي، لم أجدك يوماً تسعد بزيارتهم، أو رؤيتهم، أتظنُّ أنَّ هذه التفاصيل لا تؤلمني؟ في المقابل أنت لا تتسامح معي بأي تقصيرٍ مع أهلك، وأرجوك لا تسألني لماذا لَم تخبريني بهذا قبل أزمتنا، فأنا لا أجرؤ على قول هذه الحقائق.
- لكنِّي لستُ مخيفاً، متى عاملتك بقسوةٍ؟
- طبيعة علاقتنا لا تسمح لي بأن أتفوَّه بأي نقدٍ لك، هذا شيءٌ مؤسف للغاية، أتعلم؟ كنت أظنُّ أنَّنا حين نرتبط سأكون الأقرب إليك، لكن ما حدث هو العكس، أشعر دوماً أنِّي الأبعد، لا أحدِّثك إلا بطريقةٍ رسميةٍ. لا أمازحك، ولا أتحدَّث خارج سياق الحوار الذي تطرحه. لا أخبرك بما يجول في خاطري من أفكارٍ خشية أن تتَّهمني بالتفاهة، أو تؤنِّبني على

الكلام الذي لا فائدة منه، بتُّ كالرجل الآلي. أُسَيد، حين تزوَّجتني أنت لم تتزوَّج فتاةً عمرها ثماني عشرة سنة، أنت تزوجت فتاة تبلغ من العمر سبعة وعشرين، بعائلة، وأصدقاء، وشخصية مستقلَّة متكوِّنة، بأفكارٍ وماضٍ، وآمالٍ، وأحلامٍ واضحةٍ، لم أكن طفلةً صغيرةً، لكن مع هذا وذاك استطعتَ بمهارةٍ أن تمسح لي كلَّ ذلك. أُسَيد، نحن لا نحظى بعلاقةٍ متكاملةٍ، ثمَّة نقص لا أعلم سببه، وازدادت الفجوة بيننا في السنة الأخيرة ولم أعد قادرة على سدِّ تلك الفجوة، أنا محتارة جدَّاً، وليس لديَّ أي تصوُّر لشكل حياتنا.

نظرت إليها عند هذا الحد نظرةً مغزاها: "توقَّفي أرجوكِ"، فقالت:

- اعذرني أُسَيد، كان لا بدَّ من أن أخبرك بما في قلبي عاجلاً أم آجلاً. أنا لا أتعمَّد إزعاجك، صدِّقني!

أعلم أنَّها لم تتعمَّد إيذائي، لكنَّها فعلت، سامحك الله يا زينة، أرحيلٌ وألمٌ وعتابٌ في آنٍ واحدٍ؟!

تظاهرت بالصلابة، وقلت لها:

- لا بأس، أنا أقدِّر صراحتك.

وقبل أن أمضي، سألتها:

- وهل المطلوب منِّي الآن حل المعادلة؟

نظرت إليَّ بلطفٍ وأجابت:

- لست مجبراً، إلا إن أردت أنتَ ذلك.

- مفهوم.

أنهت جملتها، ومضت في طريقها. عندما افترقنا، رأيت في عينيها لمسة حزنٍ، فسألت نفسي: أحزينةٌ هي على صراحتها معي؟ أم نادمةٌ على سنواتها التي قضتها معي؟ أم قلقة من افتراقنا للأبد؟

أنا لا أعلم، لا أعلم حقَّاً، ورغم أنَّها باحت بما في قلبها بكلِّ صدقٍ وشفافيةٍ، إلا أنَّها جعلت الرؤية بالنسبة لي أكثر تشويشاً عمَّا قبل.

زينة دیسمبر 2018

مضى يومان بعد لقائي بأُسَيد في المقهى، شعرت بأنِّي قد تحرَّرت من الأعباء التي تثقلني، وبحت له بكلِّ ما يزعجني، وتحدَّيت ضعفي وعجزي. خرج صوتي لأول مرَّةٍ يصرخ بمعاناتي مع أُسَيد. منيت نفسي بأيامٍ من الهدوء وبأنَّ الأزمة ستنتهي قريباً، ستنتهي باعتذار أُسَيد إلي ووعده لي بحياةٍ أفضل، أو ستنتهي بانفصالنا. خلال اليومين السابقين لم يتَّصل أيٌّ منَّا بالآخر، لذا داومت على صلاة الاستخارة، أقيم صلاة العشاء بركعاتها الأربع، ثمَّ أصلي ركعتين لله وأدعو بدعاء الاستخارة المعروف، أترك مصيري بيد الله وآمل في إشارةٍ يرسلها إلي تعينني على الخروج من هذه الأزمة التي لم أعد أحتملها.

أنهيت صلاتي ووقفت أنزع حجابي فملأتني صورة أُسَيد فجأة، قلت في نفسي: من الطبيعي أن أذكره في هذا الوقت بالذات، فقد اعتدنا إقامة الصلاة معاً، وكان يؤمُّني ما دام في البيت، كما كانت صلاة الاستخارة هي وصيته لي كلَّما استصعب علي أمرٌ وعجزت عن اتِّخاذ قرارٍ حياله. رحت أشغل نفسي عن أُسَيد وأحاول تحييد أفكاري قدر الإمكان، أبحث عن علامةٍ هنا أو هناك. شعور بالسكينة أو القلق، نصيحةٍ تأتيني من صديقٍ أو قريبٍ أو حتَّى خبرٍ أقرؤه في جريدةٍ فيلهمني ما عليَّ فعله!

أمسكت هاتفي فوجدت أصابعي تبحث عن اسمه فتراجعت وفتحت معرض الصور، وتنقَّلت بينها بسرعةٍ وبفتورٍ وعدم اهتمام حقيقي غير أنَّ هذه الصورة استوقفتني! كانت صورتنا معاً، كان أُسَيد يمدُّ يده ويمسك بالهاتف، وكنت أنا أضحك كطفلةٍ صغيرةٍ، متى التقطنا هذه الصورة يا ترى؟ ضغطت على قائمة الخيارات أبحث عن بيانات الصورة وتاريخ التقاطها، لقد كانت منذ سنتين ونصف تقريباً، يا إلهي أنا لا أذكر شيئاً عنها على الإطلاق! لا أذكر أين كنا، ومتى؟ ولا حتَّى سبب سعادتي في ذلك اليوم!

تجاوزت الصورة ورحت أقلِّب بين باقي الصور، تفاجأت بكثرة الصور التي تجمعنا، وتفاجأت بأنِّي بدوت في معظمها سعيدةً، وعدت أطالع تواريخ التقاط الصور فوجدت أن أحدثها كان منذ عامين، لقد كان ذلك قبل أن تبدأ المأساة حقًّا!

أثارت الصور حنيني لأُسَيد، وبدأتْ ملامحه تطاردني في أركان الغرفة، هربتُ من ملامحه ونظراته الهادئة والتي بدأتُ أشعر فيها بلومٍ لا أدرك سببه، فتحت خزانتي فتذكَّرت حقيبتي التي سُرقت منذ أيام، لقد كان جواز سفري فيها، فقد بحثت عنه في كلِّ مكانٍ ولم أجده، وكذلك بطاقتي الشخصيَّة، ومفتاح منزلنا في لندن، ومفتاح منزل أهلي هنا.

الآن عرفت لماذا اتَّصلت بأُسَيد في ذلك اليوم فقد فقدت مفتاح منزلنا، لكن لحظة! كانت أمِّي في المنزل حينها والحديقة قريبة، فلماذا لم أعد إلى المنزل؟ ولماذا اتَّصلت بأُسَيد؟ لماذا تذرَّعت بأمر البطاقات وأنا أعلم كيفية إلغائها؟! أنا لم أحاول إيجاد جوابٍ لهذا السؤال، ولم يخطر ببالي من الأساس، لكن أنا بحاجةٍ إلى جوابٍ يشفيني الآن!

تذكَّرت نظراته لي في آخر لقاءٍ لنا، كانت عيناه نابضتين بالحبِّ، وحين أمسك يدي، قبض عليها بحنانٍ وشوقٍ. نظرت إلى صورته مجدَّداً، فارتسمت البسمة على شفتي رغماً عنِّي، واعترت قلبي رعشةٌ شديدةٌ، وغمرت السكينة روحي. تذكَّرت كلَّ لحظةٍ جميلةٍ عشتها معه، وكلَّ إحساسٍ رقيقٍ شعرته نحوه، وكلَّ عطاء تبادلناه.

أحبُّ أُسَيد، أحبُّ ابتسامته الهادئة، أحبُّ كيف ينظر بثقةٍ واعتزازٍ، أحبُّ كيف يجيبني بالإيماءات حين يكون منشغلاً بأوراقه وكتبه، أحبُّ كيف يعتمد على ذكائي وهو يقتضب كلامه، لطالما أخبرني بذلك، أحبُّ نظراته حين أفشل في تحضير المأكولات، أحبُّ كيف يُخفي ردَّة فعله، واندهاشه بالطعم المريب، ومع ذلك أراها. أنا أحبُّ كيف يناديني، وينطق اسمي بمخارج حروفه الجميلة. أحبُّ تلاوته، اشتقت إلى صوته في القرآن، واشتقت إلى أن أصلِّي معه، فيؤمَّني ويخفِّف كي لا أتعب، فلا يطيل التلاوة والسجود كما كان سيطيلهما بالصلاة لو صلّى وحده.

خفق قلبي شوقاً إليه، وأملاً بلمِّ شملنا مجدَّداً، وقرَّرت إن هو عاد معتذراً عمَّا مضى، وعازماً على ترميم ما كُسر، وجادَّاً في استكمال علاقتنا، فسأمنحه فرصةً، وأعود معه إلى لندن. وعدٌ منه كفيلٌ بأن يجعلني أتبعه، فهو إن وعد وفى، لا يرمي أقوالاً لا يعنيها ولم يدرس أبعادها، ولا يبالغ في حديثه. كلماته مدروسة، ومفرداته منتقاة بعنايةٍ، فهو لم يخدعني يوماً.

فتحت صفحته على الفيسبوك، وتذكَّرت أيام الخطوبة حين كنت أترقَّب منشوراته وتحرُّكاته، وبينما كنت أقرأ آخر مواضيعه، وجدته قد نشر جملةً أثارت مخاوفي:

لا يملك الجميع رفاهية التغيير، فليس من السهل أن يتغيَّر المرء وهو في موقفٍ ضعيفٍ.

Osaid

اضطَّرب قلبي، وأعدت قراءة المنشور مراراً لأفهمه. أعلم كيف يفكِّر أُسَيد، لديه من الكبرياء ما يمنعه من التغيير في موقفٍ كهذا، وهو لا يعد بشيءٍ ليس متأكِّداً من إمكانية تحقيقه، ويبدو أنَّه لن يستطيع إجبار نفسه على التغيير. راودني شعور بأنَّه لن يحاول إنقاذ زواجنا، تمتمت وأنا أحاول التخفيف عن نفسي بعد كلِّ هذه المشاعر التي اعترتني:

أليس هذا ما أردته يا زينة؟!

أُسَيد ديسمبر 2018

مضى ثلاثة أيامٍ بعد لقائنا، كنت أجلس أغلب الوقت وحيداً أتأمَّل، لم أخبر والدتي عن سبب غياب زينة وعدم حضورها معي كالمعتاد، وبقائها في منزل أهلها، لكنَّها شعرت بأنَّ ثمة خطبٌ ما، وبشكلٍ غير مباشر لـمَّحتُ لها بعدم رغبتي بتدخل أي شخص في الوقت الراهن.

ذهبت إلى المسجد لإقامة صلاة العشاء، وجلست بعد الصلاة ورحت أفكِّر بحيادية، فأنا أحاول منذ ذلك اليوم تقبُّل كلامها ونقدها. استجمعت كلَّ الخصال الحميدة التي في حوزتي ووضعت معادلتها نصب قلبي وعقلي:

" أسلوب الحياة مع أُسَيد، والأمومة."

أمضيت الليلة وأنا أحاول فهم ما بين السطور، رغم أنَّ المعادلة تتكوَّن من سطرٍ واحدٍ لا غير. كان تعبيرها حول الفجوة التي بيننا صادماً بالنسبة إلي، لماذا حدث ذلك؟ وما الخطأ الذي وقعنا به كي نصل إلى هذه النتيجة؟

أعدت التفكير بالأمثلة التي ذكرتها، فوجدت أنَّها محقَّة بعض الشيء، لكن يؤخذ عليها بأنَّها سلَّطت الضوء على العيوب فقط، فنسيت وتغافلت عن كلِّ جميل جمعنا معاً.

ألم تحظَ بيومٍ سعيدٍ معي؟

وددت لو أسألها هذا السؤال الآن، فأنا بالفعل أشعر بالراحة والسكينة لوجودها معي، لكن ماذا عنها؟ يبدو من كلامها أنَّها تعيش المعاناة فقط.

لا أريد أن أتخلَّى عنها، لذا إن أردت التمسُّك بها فعليَّ أن أجد حلولاً. سألت نفسي: هل أضع كامل تركيزي على النقاط التي بإمكاني إصلاحها؟ هل سأستطيع أوَّلاً؟ وهل سيكون إصلاحها كافياً؟ أم ننهي علاقتنا فترتاح هي وأخرج أنا من حيرتي؟

ربَّما لو كانت أمَّاً، لاكتفت بأطفالها، ولحصلت على سلامها بسهولةٍ ويسرٍ، وانشغلت بهم عنِّي وعن طباعي. ربما لو كنتُ أباً لتغيرت من تلقاء نفسي، فأنا أعلم أنَّ الأبناء يجبرون آباءهم على التغيير، فلا شيء يبقى كما هو، ولا تنفع معهم القوانين دائماً. ربَّما لو كنَّا عائلة طبيعية، لاتَّخذنا شكلاً مختلفاً عمَّا نحن عليه الآن، ولوصلنا إلى سلامنا بطريقةٍ مختلفةٍ.

لكن كلَّ هذه الفرضيات غير متوفرة، ولا أملك إليها سبيلاً.

زينة يناير 2019

كنت أتنقَّل في غرفتي من مكانٍ إلى مكانٍ أحاول دفع كل المشاعر التي تعتريني! مشاعر الغضب نحوه، ومشاعر الاشتياق إليه. الترقّب، والانتظار، وخيبة الأمل. بقي يومان وسيسافر أُسَيد، أين هو؟ لِمَ لا يتَّصل؟ ماذا ينتظر؟ هل يودُّ أن يتخلَّى عنِّي حقَّاً؟ أليس بارعاً في الهندسة والرياضيات؟ أمعادلتي بهذه الصعوبة كي لا يتمكَّن من حلِّها؟ أين ذكاؤه وبراعته وفطنته؟

كنت أسأل نفسي تلك الأسئلة، ومن ثمَّ أكرِّر الإجابات ذاتها:

عساه خيراً، هذا أفضل، هي مرحلة وعليَّ تجاوزها، لن يكون الأمر سهلاً، لكنِّي سأتماسك... سأنساه، حتماً سأنساه...

كان قلبي يخفق بشدَّةٍ واضطِّرابٍ، وكانت روحي مرهقة إلى أبعد حدٍّ. بقيت على هذه الحال، أهرب من نفسي من يمين الغرفة إلى يسارها، ومن يسارها إلى يمينها، أدور حول السرير وأتَّكئ على الخزائن، ذهاباً ومجيئاً، إلى أن انتهى بي المطاف أمام مرآتي، نظرت لوجهي في المرآة فوجدت وجه فتاة تعيسة، أنا لست هادئةً ومرتاحةً كما تصوَّرت، أنا تعيسةٌ، تعيسةٌ جدَّاً، حاولت تجاوز هذه الملامح الكئيبة ووضع خطَّة

مناسبة لتحرُّكاتي في الأيام المقبلة، وسأذهب لاستخراج بطاقة شخصية جديدة، ثمَّ جواز سفر جديد...

سألت نفسي: لماذا جواز السفر؟

نظرت مجدَّداً إلى المرآة، وأجبت: قد يلزمني لإجراء معاملات الطلاق في إنجلترا، أو قد أزور لندن، لا أعلم، سيلزمني جواز السفر لسببٍ ما، أو لعلَّ أُسَيد يتمسَّك بي وأكون مضطَّرة لمرافقته إلى لندن.

أين هو؟ عليه أن يبدي تمسُّكه بي؟ لِمَ لا يأتي؟ لِمِ لا يقدِّر أنَّ موافقتي على العودة معه هي فرصة ذهبية له؟ كيف يسمح للوقت أن يمضي دون أن يتحرَّك؟ عليه أن يفعل شيئاً، لا أن يبقى جامداً وصامتاً؟

شعرت بالسخط الشديد على قلَّة اهتمامه، وتقصيره الذي بلغ أوجه، وبينما كنت ألومه وأوجِّه له الاتِّهامات خطر ببالي سؤال على حين غرَّة: لكن هل أنا أنانية؟

سألتُ نفسي ورحت أستجديها لتجيب، حدَّثتني نفسي بأنَّني لست أنانية كما أظن، وأنِّي فتاة طبيعية من حقِّي أن أعيش حياةً زوجيةً هانئةً وأن أُرزق بأطفال وأن أصير أمَّاً، ومن حقِّي أن أجد شريكاً داعماً ومحبَّاً وودوداً ولديه كثير من الوقت ليمنحه لي، كما من حقِّي أن أشعر بشوقه ولهفته عليَّ وألمه من غيابي. نعم، هذه كلها حقوق، وليست رفاهية أو

كماليات، وهذا ما لا يفهمه أُسَيد. سيتخلّى عنّي وهو يظنُّ بأنّي أنانية؟ سأدعه يتبنى التفكير الذي يريحه.

لن أهتمَّ، لن أهتمَّ.

كرَّرت تلك الجملة مراراً، ومع كلِّ محاولاتي لإرضاء نفسي إلا أنَّني وحين عاودت النظر إلى وجهي في المرآة، رأيت زينة بأبشع صورةٍ يمكن أن تكون عليها، رأيتها وهي تتقنَّع بملامح لا تشبهها، وتتفوَّه بمفاهيم ليست مقتنعةً بها. رأيت زينة وهي تتمرَّد في التوقيت الخاطئ بأسلوبٍ رديءٍ وبمبرِّراتٍ واهيةٍ، رأيت زينة وهي تكذب، وتختلق الأعذار لأنانيتها المفرطة، وحبها لذاتها، لتظهر نفسها ملاكاً بريئاً.

صرخت دون أن أشعر: يا للمصيبة!

زينة　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　يناير 2019

- إلي أين يا زينة؟

سمعت أمِّي تناديني وهي مندهشة، كنت قد ارتديت حجابي بسرعة والتقطت حقيبتي وركضت مسرعةً نحو باب البيت، استوقفتني جملتها لثوانٍ، أجبتها مسرعة:

- إلى أُسَيد يا أمي.
- ما الذي حدث؟ أخبريني!
- لا شيء يا أمي، لا شيء، عليَّ أن أذهب الآن، لا تقلقي، دعواتك.

وغادرت البيت مسرعةً، كنت أهرول في الطريق إلى بيت أُسَيد، ماذا سيقول الناس عن فتاةٍ تهرول في الشارع بعد الساعة العاشرة ليلاً؟ لا أدري، ولا يهمني ما سيقولونه.

ركضت، أريد أن أراه حالاً، أن أعتذر إليه، أيًّا كان قراره. ليتني أعرف أي جوابٍ كنت أنتظره وأنا أطالبه بالأمومة؟!

بكيت وأنا أركض، أجهشت ببكاءٍ حارٍّ، لم أكن زينة التي أعرفها في ذلك الوقت، كنت فتاةً أخرى، فتاةً تلوم نفسها على أنانيتها في الحب،

لقد عاملت أُسَيد كما لو كان مذنباً بحقِّي، لعبت دور الضحية بجدارة، كنت أنا الأقوى وتوهَّمت بأنِّي الأضعف. توقَّعت أن تنتهي الأزمة باعتذار مهذَّبٍ من أُسَيد، ووعدٍ بالتغيير ولم أفكِّر أن أُسَيد هو من يحتاج إلى الرحمة في ذلك الوقت.

أحبَّني أُسَيد، ولم يربط حبَّه لي بظرفٍ أو مكانٍ أو حالةٍ. أحبَّني، فكنت أنا الجلاد، أمَّا أنا فقد أحببت أُسَيد وكلت له بمكاييل مختلفة، في قربه مني أكيل حبَّه بمدى اهتمامه بي وإغداقه علي وتغاضيه عن هفواتي وحنانه علي، وبعدد الساعات التي يقضيها معي كل أسبوع ويقتطعها من عمله ودراسته وحقوق طلابه عليه، وفي بعده أكيل له بمدى شوقي وحاجتي إليه، وبقدر ما أشعر به من عذابه ولهفته وانشغاله علي.

أحبَّني أُسَيد لذاتي، وأحببته أنا لأسبابٍ تتغيَّر مع الظروف، وبينما كان بحاجة إلى زوجةٍ تجبر نقصه، كنتُ أنا الزوجة التي تزيد ألمه، وتذكِّره – بإصرارها على فكرة الإنجاب- أنَّه عاجزٌ عن منحها ما تستحقّه من أمومةٍ، كنت أبخل من أن أحبَّ أُسَيد فقط، أبخل من أن أقول له: "أنت وحدك تكفي!"

ولأوَّل مرَّة، أدرك أنَّه يكنُّ لي حبَّاً جمَّاً، حبَّاً يفوق المعاني التي أكنُّها أنا له. سألت نفسي وأنا أجوب الشوارع: ماذا لو كنت أنا مكان أُسَيد؟ هل

كنت سأجد في نفسي الشجاعة لأمنحه حرية الاختيار وأطلق سراحه وأدفن حبِّي وألمي بقلبي؟ هل كنت سأحتمل رغبة أُسَيد ومحاولاته المستمرة؟ هل كنت سأفكر بالتخلي عن أُسَيد والزواج بغيره ليكون لي أبناء من غيره؟ هل كنت سأحتمل حديث أُسَيد إليَّ وهو يصف نقصي وتقصيري بحقِّه، فلا يُنصفني؟ هل كانت معادلة سعادتي ستنطبق عليَّ وقتها؟ تبًّاً لتلك المعادلة، لماذا ارتأيتُ أن أجرحه بهذه الطريقة الجائرة؟ ألم أجد أقسى من هذا الأسلوب؟!

وفي تلك اللحظة، وصلت إلى بداية الشارع المؤدِّي إلى بيت أُسَيد، كنت أستطيع أن أرى منزله من مكاني لكنِّي توقَّفت خلف شجرةٍ كي ألتقط أنفاسي المتقطعة وأنهي نوبة بكائي، قلت في نفسي: لن أدخل منزلهم وأنا بهذه الحالة وإلا سأثير فزعهم، وربَّما لم يخبر أُسَيد أحداً منهم بما حدث، وكفاني ما حدث بيني وبين أميرة منذ وقت قريب.

ازدادت دموعي غزارةً وأنا بالقرب من منزله، حاولت أن أتمالك أعصابي، لكنِّي رأيت فجأةً طيف أُسَيد في نهاية الشارع، إنَّه هو، واقفاً برفقة شابَّين آخرين، خفق قلبي، واضطَّربت مشاعري. تأمَّلته رغم بعد المسافة بيننا، وعلى الرغم من أن ملامحه لم تكن واضحة من هذه المسافة إلا أنَّني شعرت به بقلبي، شعرت بأُسَيد حزيناً يبدي لأصدقائه خلاف ذلك، شعرت بالندم وقتها، حدثت نفسي:

ما الذي جاء بي إلى هنا؟ هل جئت لأعتذر؟ ماذا سأقول له؟ هل سأقول له سامحني لأنَّني كنت لئيمةً معك؟ آسفة لأنَّني ألوح لك بعجزك، وأذكِّرك به، وأطالبك بما يفوق قدرتك! هل سأعتذر له لأنَّني لم أنفصل عنه بطريقةٍ مهذَّبةٍ، بل كسرت قلبه وكبرياءه، وصفعته بعيوبه دفعةً واحدة، ولأنَّني أقحمته في متاهة أنانيتي؟

تأمَّلته مجدَّداً وقلت وقلبي يعتصر ألماً: إنَّ أُسَيد يستحق زوجةً فاضلةً لستُ هي حتماً!

استدرت عائدة إلى منزلنا بقلبٍ مكسورٍ، وروحٍ منهارةٍ، وبعد أن قطعت أمتاراً عديدة سمعته يناديني:

- زينة! ماذا تفعلين هنا في هذا الوقت؟

التفتّ إلى أُسَيد وانهرت، هذه المرَّة كنت فعلاً أنا الأضعف بندمي وأسفي، ضمَّني أُسَيد إليه بهدوءٍ وحذر وهو يقول:

- اهدئي زينة، اهدئي وأخبريني ما الذي حدث؟ هل تحتاجين إلى مساعدةٍ ما؟

آلمني وذبح فؤادي حين سألني: "هل تحتاجين إلى مساعدةٍ ما؟"

كيف جعلتُ منه شخصاً لا يتوقَّع إلا الطلبات؟ بعدَ كلِّ ما حدث بيننا أما يزال مستعدَّاً للإصغاء إلى احتياجاتي وتلبية نداءاتي؟

دفنت وجهي في صدره وتشبَّثت بذراعيه وأنا أقول من وسط دموعي:

- استخرج لي جواز سفر أُسَيد قبل أن يحين موعد عودتنا إلى لندن، أرجوك!

لم أرَ وجه أُسَيد، كان وجهي مدفوناً في صدره، رائحة عطره تزكم أنفي، دفؤه يغمرني بشعورٍ افتقدته طويلاً، أنا حتَّى لم أمنح أُسَيد الفرصة ليفسر لي غيابه وإخفاءه خبر وجوده هنا عني، ولربَّما شرح وجهة نظره لكنِّي لم أصغِ إليه وقتها، لقد قسوت عليه وعلى نفسي، لم أرَ ملامحه، أزاحني خلف الشجرة تماماً وضمني إليه أكثر، ضمَّني بلا حذر أو حرج، ثمَّ سألني بصوتٍ خافتٍ وبنبرةٍ مضطَّربةٍ:

- هل أنتِ متأكِّدة زينة؟

لم أجبه، بل أحكمت قبضتي على معطفه أكثر، فأمال رأسه باتجاهي إلى أن أحاط كياني وغمرني بالكامل، فشعرت بأنفاسه المتلاحقة، ونبضات قلبه المتسارعة، همس بعدها في أذني قائلاً:

- شكراً لكِ زينة!

سألته وأنا خجلةٌ ممَّا فعلت:

- هل كنتَ سترحل وتتركني بالفعل؟

فأجابني بهدوئه الساحر:

- وهل أستطيع ذلك؟

رفعت رأسي ونظرت إليه بقلقٍ وأنا أسأله:

- كيف سأستخرج جواز السفر؟ هل يمكن إتمام الأمر في يوم واحد فقط؟

ابتسم وأجاب وهو يضع راحة كفِّه على خدي ليمسح دموعي:

- لا تقلقي، أؤجِّل سفري، لا تشغلي بالك بذلك.

صمت قليلاً وهو يتأمَّلني كما لو أنَّه يرى ملامحي للمرَّة الأولى، ثمَّ قال:

- أحبُّك زينة.. أحبُّك كثيراً.

أجبته وقلبي يكاد أن يخرج من ضلوعي وأنا أبوح له بشجاعةٍ عن شعوري الذي أدركته متأخِّرةً، فقلت له وأنا أمسك بكلتي يديه:

- وأنتَ تكفيني أُسَيد، سأعود معك إلى لندن، وسأتغيَّر، لكن ساعدني أرجوك، ألم تكتب بأنَّه ليس من السهل أن يتغير المرء وهو في موقف ضعيف؟ أنا ضعيفة أُسَيد...

قاطعني قائلاً:

- وأنا سأتغيَّر لأجلك، لن يكون التغيير صعباً يا زينة مادمنا معاً، أليس كذلك؟

أومأت له برأسي فأمسك يدي وسحبني معه إلى منزل أهله، وهناك استقبلتني حماتي بحفاوةٍ وابتهاجٍ، ثمَّ اتَّصلتُ بأمي لأطمئنها أنِّي بخيرٍ مع أُسَيد، فشعرتُ بالسعادة التي غمرتها بخبر عودتي إليه، دعت لي بالخير والتوفيق دوماً وأرسلت سلامها إلى أُسَيد.

أمضيت الليلة ممسكةً بيده لا أفلتها، ورحت أتطلَّع إلى لحظة وصولنا معاً إلى لندن، ولأوَّل مرَّة منذ زواجي أشتاق إلى بيتنا. سأبدأ منذ صباح الغد رحلتي لاستخراج بطاقة شخصية وجواز سفرٍ جديد، جواز سفرٍ يمكِّنني من دخول حياة أُسَيد مرَّة أخرى، فنفتح صفحةً جديدةً، بخطَّةٍ مصممةٍ لنا خصيصاً، بخطَّةٍ تحرِّرنا من كلِّ قالبٍ لا يناسبنا، وتنتزعنا من كلِّ كمدٍ يعترضنا، ونصل بها إلى ما نصبو إليه، بإذن الله.

نعم، سنبدأ من جديد.. زوجين من دون أطفالٍ للأبد..

كما شاء الله لنا، إنّه عليمٌ قديرٌ..

فما حياتي أنا إن لم يكن فيها؟!

تمّت

لتقييم الرواية وإضافة تعليق أو مراجعة، زوروا صفحة رواية عتبات الجبر على موقعنا.

رواية عَتَبات الجبر

لا وجود للكمال، لكن قد نرى ما يقاربه، هكذا كان الجميع يصف أسيد، الشابُّ المثابر والباحث المتميِّز الذي يدرِس بدقّةٍ كلَّ ما هو مُقدِم عليه، رسم شكل حياته، ووضع خطَّة له وللأجيال التي ستليه، وسعى جاهداً إلى تحقيقها بكلِّ ما أوتي من قوّةٍ وحكمة. اختار شريكة حياته "زينة" كي تكون عوناً له في الوصول إلى مبتغاه. بعد زواجهما، يهزُّ أُسَيد وزينة أمرٌ صادمٌ يقلب حياتهما رأساً على عقب، ويضيع أسَيد لأوَّل مرَّة ويفقد الطريق! ترى ما ذلك الحدث الذي سيغيِّر حياة الزوجين؟ وهل يتمكَّن أُسَيد من الإمساك بزمام الأمور من جديدٍ؟ وكيف يكون موقف زينة في هذه الأزمة غير المتوقَّعة؟

هذه الرواية هي جزء من سلسلة فيء الغمام، وهي مجموعة روايات اجتماعيَّة تقدِّم سبع قصص متوازية ومتداخلة فيما بينها، ورغم ذلك فإنّ كلّ رواية قائمة بِحدِّ ذاتها. تتناول الروايات مجموعةً من شباب وشابّات لِكُلٍّ مِنهم قِصَّته وأحلامه، ومحاسنه وعيوبه، ونقاط قوته ومواطن ضعفه، ومشكلاته التي سيواجهها وسيسعى لحلِّها.

الروايات متاحة بشكل مجانيّ، ويمكن تحميلها عبر موقعنا أو صفحاتنا على مواقع التواصل الإجتماعي.

سحر وهبة

www.faibooks.com
@faibooks
@faibooks7
@faibooks7
info@faibooks.com

جميع الحقوق محفوظة لسحر خواتمي وهبة اعرابي – ٢٠٢٤